العولمة والإسلام والعرب



الدكتور السيد أحمد فرج
كلية التربية - جامعة المنصورة

دار الوفاء

العولمة والإسلام والعرب

الدكتور
السيد أحمد فرج

دار الوفاء

الطبعـة الأولـى

١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م



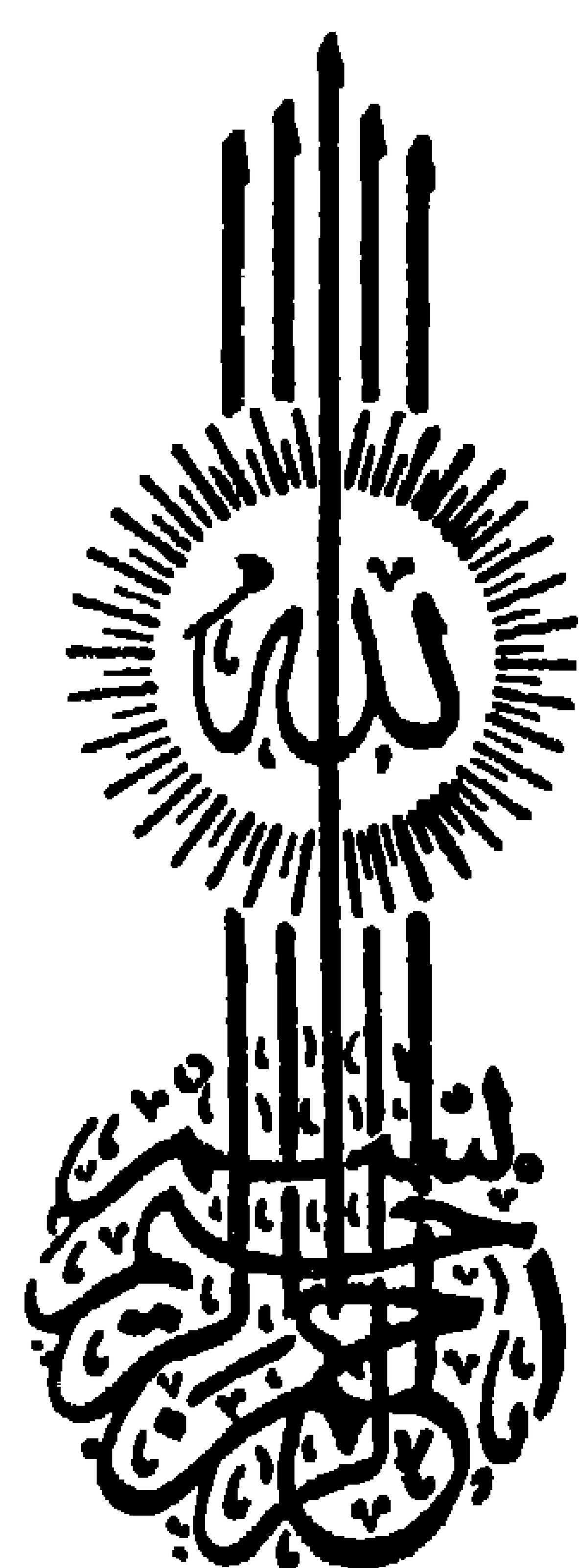
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة

الإدارة :ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ ـ فاكس :٢٢٦٠٩٧٤/ ٠٥٠
المكتبة : أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠
E-Mail:DAR ELWAFA @ HOTMAIL . COM

إهداء

إلى أبى ـ يرحمه الله ـ الحاج / أحمد بن محمد بن فرج بن السيد بن سعد بن چاهين كما كان يحب أن يذكر اسمه .

ابنك السيد


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هل نشأت العولمة فجأة ، أم نتجت عن تراكمات ثقافية واقتصادية واجتماعية فى المجتمع الغربى ؟ ربما كانت بداية التكوين مع نشأة الرأسمالية الصناعية التجارية وتصاعد أهمية السوق،وتوفر العلم بأحواله المتعددة والمتقدمة .

ومع أن السوق تسعى من أجل الوفاء برغبات المستهلكين،إلا أنها تضعهم فى الوقت نفسه تحت ضغط ترغيبى فى الاستهلاك ، ومن هنا لا تكون القضية قضية اقتصادية فحسب ، ولكن تتحول إلى قضية اقتصادية وحمايتها بدروع ثقافية ، يمكن أن يطلق عليها ثقافة الترغيب فى الاستهلاك بالدرجة التى يجد الفرد المستهلك نفسه فيها مقبلا بغريزته على استهلاك سلع لم يكن فى حاجة إليها، بل لم يكن مقبلا على شرائها لولا الضغط الترغيبى فى شرائها .

وعندما يجد المجتمع الرأسمالى نفسه ـ وهو يسوق لسلعه فى أنحاء العالم ـ مضطرا إلى استغلال أسواق خارجية أو مصادر لاستجلاب الخامات ، فإنه يندفع إلى تحقيق رغباته بكل الطرق ، حتى ولو كانت القوة هى الطريقة الوحيدة لتحقيقها، ومن هنا يضطر إلى تطوير أسلحة الحرب والقتال ، بل إلى تحويل سباق التسليح إلى نزعة تنافسية، لا لحفظ التوازن الدولى ، ولكن باعتبار التسليح أمرًا حيويًا فى تكوين طبيعة المجتمع الصناعى نفسه ، وعند ذلك يتحول النظام الرأسمالى تحولا حتميا إلى نمط سياسى واحد ذى ثقافة تبرر له شرعية السيطرة ، وشرعية تعميم النمط ؛ ولأن هذا النمط لا يشبع ، فإنه يحرص على استجلاب العلماء الأفذاذ الذين يطورون نظم النتاج والتخطيط ، والإدارة ، وكذا استجلاب العمال الفنيين من أصحاب المهارات الفنية العالية ، ثم يأخذ هذا النمط فى تطوير نفسه باستمرار من أجل أن ينفرد بالمشروعات الكبرى على أساس أنها ضرورة فنية مواكبة للنظام الرأسمالى . وهذا النمط ، هو النمط السائد الآن فى الولايات المتحدة ؛ لأن التقدم الاقتصادى الكبير،الذى تحققه الدول الكبرى وفى مقدمتها الولايات المتحدة « لا يرجع إلى تراكم رؤوس الأموال ، بقدر ما يرجع إلى التقدم

الفنى ووضع وسائل جديدة متطورة للنتاج ذات كفاءة أكبر » [١] .

ولكى تستطيع هذه الطاقات النتاجية الجبارة توزيع منتوجاتها ، فلا بد من عمل تغيير فى عقلية الإنسان ومزاجه وذوقه ، بإدخال قيم الاستهلاك فى مجال القيم الاجتماعية ، وقد سبقت الولايات المتحدة العالم إليه ، فبذور ثقافة الاستهلاك باعتبارها قيمة اجتماعية واكبت تقدمها الصناعى ، حتى صار تقييم الفرد الأمريكى لما يستهلكه لا يتوقف على ما يحتاجه ، أو بما يتواءم مع ذوقه ، ولكن بما يظهره نحوه الآخرون من الرغبة فى تملكه أو استهلاكه ، وبطبيعة الحال لا يتم ذلك إلا بنوع من الثقافة الإعلامية التى تقنع المستهلك باستهلاك المواد المستهلكة باعتبار ذلك قيمة فى حد ذاته . ولا تقتصر هذه الطريقة فى التفكير على الطبقة الغنية فى المجتمع ، إنما تسللت إلى الطبقات الوسطى والدنيا .

ولقد صارت الثقافة الإعلانية فنا من فنون السوق ، تعتمد له الشركات طاقات جبارة من المتخصصين فى فن الدعاية ، والعلاقات العامة والتصميمات التى تغرى المستهلك . وتنفق الولايات المتحدة فى الدعاية لسلعة واحدة مثل : السيارات ملايين الدولارات ، فقد أنفقت فى سنة واحدة (١٩٩٨م) (٦ مليارات) سنة مليارات دولار أمريكى [٢] . دون أن يهتم منظمو السوق بفزع بعض المفكرين الذين رأوا أن هذا الأسلوب النمطى للاستهلاك سيؤدى إلى قتل الذوق الفردى ، وبالتالى قتل الإبداع .

إن العقل الغربى الذى أوصل صاحبه إلى امتلاك التقنية ، أجبر الإنسان على أن يتخلى عن عقله؛ لأن الآلة تقوم بكل شيء أو لأن التقنية لا تطور الأشياء تطورا حرا ، إذ إنها تطور الماديات ، أما الأخلاق ، والمواهب الإنسانية فإنها تقتلها قتلا .

إن الإنسان يسير داخل هذا المجتمع معتقدا أن النظام الديمقراطى أعظم النظم السياسية ، ويرى ذاته فى إنجازات التقدم الصناعى ، فى تملك السيارة والتليفزيون والمسدس ، وأطعمة بعينها ، وأزياء خاصبة ، ومن ثم فإن هذه الحرية التى يفتخر

---

(١) حازم البيلاوى . على أبواب عصر جديد ، ص ٦٥ ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٧ م .

(٢) الأهرام : صحيفة سوق السيارات العدد (٦٤) فى ٢٠/ ٥/ ١٩٩٩م، ص ١ عن مجلة أوتوكار الإنجليزية

بها المجتمع الأمريكى مفروضة على المواطنين دون ما اختيار ؛ لأن الفرد فى هذا المجتمع يختار ما هو محدد له بالفعل ، وعن هذه الحرية تحدث (ماركيوز) كما تحدث عن الأفراد الذين يتمتعون بها ووصفهم (بالعبيد) فقال : « إن عبيد الحضارة الصناعية المتقدمة عبيد راقون ؛ لأن الحرية لا تتحدد بمجرد الطاعة ، ولا بالعمل الشاق الذى يقوم به الإنسان ، إنما تتحدد بقدر ما أن يكون الإنسان شيئا » (١) .

إن الديمقراطية الأمريكية تعمل من أجل تزييف الفكر الإنسانى ، وتكييفه ليقبل الطابع الأمريكى ، وإن الناس قد يدركون زيف هذه الثقافة ، ومع ذلك فهم عاكفون على الاتصال بها ، إن المطبوعات الأمريكية والأفلام والتليفزيون مليئة بالسخافات ، وخلط مدروس وتكييفى بين ما يقدَّم من دين وفنون وسياسة وإعلانات ، والناس يقبلون عليها ويندمجون معها ؛ لأنها ثقافة استطاعت أن تجسِّد مثلها العليا بتقدمها التقنى ، فى مجتمع عملى لا يؤمن إلا بما يحقق من الرفاهية المادية الاستهلاكية .

إنه النظام الجديد فى الولايات المتحدة الذى بلورته الفلسفة البرجماتية = العملية (pragmatism) وهى فلسفة أمريكية خالصة ، قد يكون لها جذور أوربية منذ الحركة الإنسانية، إلا أنها رسخت القيم الأمريكية الجديدة فى آخر القرن التاسع عشر بإعلان أن العلم الحديث يؤكد أن الكون فى حركة دائبة، وأن التغيير دائم وحتمى ويشغل كل شىء . وهكذا استطاع (وليم جيمس) بمؤلفه مبادئ علم النفس ١٨٩٠م تغيير وجهة التفكير عند المجتمع الأمريكى إزاء العديد من المفاهيم ، فلم تعد النظرة إلى الأمور تأملية ، وهكذا نبه (وليم جيمس) الأمريكيين إلى أن العقل لا يزيد على كونه نمطًا من السلوك يحدد به صاحبه (الإنسان) التكيف مع بيئته ، وأن يكون نشاطه فيما يتولَّد عن فكره من نتائج تغير وقائع الأشياء ، بقدر ما تكون سببا فى إزالة معوقات إسعاده المادى فى حياته .

تمسك (وليم جيمس) بربط ما يحققه العلم بطريقة التفكير ، فالعلم يحقق قفزات كبرى لصالح الإنسان ، بسلسلة من التجريب والإجراءات العلمية ، فلم لا تكون الطريقة نفسها وسيلة التفكير أو موضوع المعرفة ، لقد حقق العلم آفاقا بعيدة

---

(١) مجلة الفكر المعاصر ، ص ٢٧ ، العدد (٥٨) لسنة ١٩٦٩م .

من الرقى المادى ، فلم لا تكون الفلسفة هى الأخرى وسيلة التقدم الإنسانى ، فلا ينظر الإنسان إلى المتعة الجمالية فى الطبيعة باعتبارها آية لصنع الله فى الكون يزعمه « بل على اعتبارها وسيلة للتوجيه الدنيوى ، أى طريقة لإحداث تغيرات مقصودة تعدل من اتجاهات سير الحوادث» (١) لمصلحة الإنسان فى مجالات المنفعة.

ثم جاء جون ديوى بصورة أكثر وضوحا للمذهب الذرائعى الذى تطور عن المذهب البرجماتى ، ليوضح أن التصورات الذهنية لا قيمة لها ، إن لم تكن وسيلة لتشكيل وقائع المستقبل فى الواقع العملى: فهى تعنى كما حدد (جون ديوى) نفسه : « محاولة تكوين نظرية منطقية دقيقة للمدركات العقلية والأحكام والاستنباطات فى شتى صورها ، وذلك عن طريق البحث أولا فى الكيفية التى يؤدى بها الفرد وظيفته فى التحديد التجريبى للنتائج المستقبلية » (٢) .

ولكن إسراف المذهب العملى (البرجماتى) فى توظيف العقل لهذه الوجهة على وجه الخصوص ، جعل العقل لا يرى وجهة غيرها . وهذا ما دفع (هربرت ماركيوز) منذ نيف وثلاثين سنة إلى أن يقدم للمجتمع الغربى بصفة عامة ، وللمجتمع الأمريكى بصفة خاصة ، هذه النظرة التشاؤمية بكتاب الإنسان ذى البعد الواحد ، وهو الكتاب الذى أحدث هزة عنيفة للمجتمع الغربى تمثَّل فى ثورة الشباب فى كل من الولايات المتحدة (ثورة الهيبز) وثورة طلاب الجامعات فى كل من : فرنسا وألمانيا سنة ١٩٦٨ م ومع أن هذه الثورة المضادة لم تحقق أهدافها ؛ لأن مجتمع السوق استطاع أن يحتويها ، ويذيبها فى المجتمع لصالحه ، فقد نبهت العالم إلى أن التقدم المادى للمجتمع الصناعى الحداثى لن يحقق الحلم السعيد للإنسان ، فبالرغم من أنه حقق للفرد حاجاته الضرورية والحاجية والتحسينية ، إلا أنه أفقد الفرد متعة ممارسة الفنون ، والإحساس بفضيلة التراحم ، كما أفقده القدرة على الإسباغ النفسى والثقافى .

إن الثورة الجديدة ثورة داخل العقل ، تخالف ما كان قبلها من ثورات تطالب بمزيد من الطعام للجوعى ، وبمزيد من الحرية والاستقلال السياسى ، والحرية السياسية ، وحرية الملكية الشخصية وغيرها . فقد كانت ثورات أوربا منذ بداية

(١ ، ٢) د . سعيد إسماعيل على : مجلة الفكر المعاصر ، العدد (٢٠) سنة ١٩٦٦م ، ص ٣٣ .

العصر الحديث تعمل على تحرير الإنسان من الكنيسة والإقطاع ، وتطالب بحكم نيابى، وتضع النظريات فى الحكم فى عقود ومواثيق اجتماعية تحدد العلاقة بين الحكام والمحكومين مثل كتاب (التنين) (لهوبز) و(الحكومة المدنية) (لجون لوك) و(العقد الاجتماعى) (لروسو) . و(روح القوانين) (لمونتسكيو) وغيرها . ثم تنظيم العلاقات بين المؤسسات الصناعية والتجارية، وتنظيم النقابات وحقوق العمال وما أشبه .

واختفت هذه القضايا التى كانت تشغل الطبقتين الدنيا والوسطى بصفة خاصة، لتحقيق مجتمع الرفاهية ، كما كانت تشغل الطبقة العليا ؛ لأن تحققها كان بمثابة درع يحمى المجتمع الرأسمالى من الشيوعية . بل تحولت هذه القضايا إلى مشكلات يتضايق منها كبار الرأسماليين، ثم لم تعد هذه المشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية فحسب ، بل أصبحت نفسية وثقافية ، لقد شبعت الأمعاء ، وافتقر العقل إلى الإشباع الثقافى .

وصارت النفوس جوفاء تحتاج إلى إشباع نفسى ، بعد أن انحسرت رغبة المجتمع الرأسمالى فى تحقيق وفرة النتاج السلعى ، وصارت النظرة إلى السوق الوسيلة والغاية . وشبع الجسد ، وتفجر الإحساس بجوع النفس والروح .

ولم يكن (ماركيوز) الرافض الوحيد الثائر باسم العقل ، ولكن الذى ميزه عن كل الرافضين أنه كان الرافض القطعى للرفض ، دون أن يترك ثغرة ضيقة للعودة أو الانسحاب . فقد كانت هناك آراء متناثرة هنا وهناك لا ترفض حركة الرأسمالية الأمريكية ، ولكنها تحذر ـ فقط ـ من الوقوع فى بعض المنعطفات الخطرة، منذ أن قدم الرئيس الأمريكى (جورج بوش) برنامجه الخطير فى ١٧ يناير ١٩٩١م تحت اسم النظام العالمى الجديد[1] New world order وليلاحظ

---

(١) فى هذا الوقت كان لنا زميل بالكلية (٠ , ١) عائد من بعثة تعليمية للحصول على الدكتوراه فى العلوم التربوية من الولايات المتحدة ، وكانت له نظرة ثاقبة للأحداث قال : إن أجهزة الإعلام الأمريكية تكيف العقل الأمريكى لحدث جلل ، لم يعلن عنه بعد ـ ولقد عدت من الولايات المتحدة دون أن أعرفه، ولكنى كنت أحس بأنه حدث عالمى عظيم تكون الولايات المتحدة بطلته،ويحقق لها مكاسب مادية عظمى دون ما خسائر، وأن الخسائر ستكون من نصيب أطراف أخرى ،وفى هذه الأثناء كانت أجهزة الإعلام تحذر الناس من ضائقة مالية قد تحل بالولايات المتحدة ، وكساد فى أسواقها العالمية، قد يؤثر تأثيرا سلبيا فى تجارتها خاصة تجارة السلاح ، كما تحذر مما يمكن أن يعكسه هذا الكساد من حالات سلبية على الفرد الأمريكى،=

القارئ أن كلمة order تعنى أمر ، أى أنها تحمل معنى القسر والإجبار ، فلا اختيار فى الأمر الأمريكى ، ولو كانت تكلفته آلاف من الضحايا الأبرياء فى أى مكان من العالم .

كانت حرب الخليج قد أوحت إلى العالم بأن كل القوى العالمية قد سقطت ، واعترفت بسقوطها أمام القوة الوحيدة ـ قوة الولايات المتحدة ـ ولم تعد هناك قوة فى الكون تستطيع الصدام مع القوة العسكرية الصناعية الثقافية للولايات المتحدة .

ولكن أمريكا فى حاجة إلى محفز ، بعد سقوط الاتحاد السوفييتى ، وهنا جاء دور المنظرين، وانبرى (صمويل هنتنجتون) يحدد من يكون المحفز للتنين الأمريكى فى تسييس العالم . إنه الإسلام والحضارة الكنفوشية ، وافترض (هنتنجتون) أن يكون الصدام حتميًا معهما ، وبذلك يضمن هذا المحفز دوام الحركة للعالم حول محورها الأعظم المتمثل فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وتظل الولايات المتحدة تقوم بدور المحرك الأساسى للعالم ، ومركزه ، وهو ما يساوى فى الوقت نفسه العولمة .

وكان (فرانسيس فوكوياما) قد سبق هنتنجتون بثلاث سنوات فقدم مشروعه المعروف (بنهاية التاريخ) ورأى فيه أن كل الأفكار والسياسات والنظم تجمدت وتوقفت قدرتها على الحياة وتركت الساحة للقوة الأعظم = الرأسمالية الأمريكية . وهى نظرة قديمة محفورة فى العقل الغربى منذ جاء (دارون) بنظرية النشوء والارتقاء والبقاء للأصلح ، تلك النظرية التى ألهمت الخيال البريطانى ليصنع إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس تؤسس على استعباد الناس . إنها الآن تأخذ الشكل الغربى بعد تطويره أى الشكل الأمريكى .

لكن بول كيندى قطب التنظير الأمريكى الآخر ، لم يشغل نفسه بأطروحة

= وكان كلام الزميل يوحى بأن الأنظار تتجه إلى العالم العربى ، ومنطقة الخليج بالتحديد ، وأن أجهزة الإعلام الأمريكية تهيئ الناس لحتمية إحداث الأزمة ، وقد حدثت بإشعال حرب اجتياح الكويت ثم تحريره ومعاقبة شعب العراق بقسوة غير مسبوقة فى تاريخ البشر . والله غالب على أمره .

وكان الاتحاد السوفييتى ـ القطب العسكرى والسياسى ، الذى كان يصادم الولايات المتحدة فى الحرب الباردة قد سقط ولفظ آخر أنفاسه ، وكانت الولايات المتحدة تبحث عن محفز آخر للصدام ـ يتمثل فى الإسلام ويبدأ من منطقة الخليج التى بدأ فيها ظهور الإسلام ثم انتشر فى كل القارات .

(فوكوياما) (نهاية التاريخ) أو (صدام الحضارات) كما تصور (هنتنجتون) فقد ترسخ دورهما فى العقل الأمريكى ، وكان عليه أن يأتى بدور مكمل فطرح السؤال التالى : ماذا تصنع الولايات المتحدة فى القرن الحادى والعشرين ؟ وقدم كتاب Preparing for the 21 th cencury (أى الإعداد للقرن الحادى والعشرين) وهو فى أطروحته لا يضاد العولمة ، ولكنه فقط ضد نمذجتها ، أى اعتبارها نموذجا أمريكيا ، فبحسب رأيه أن العولمة خرجت من رحم الإنسانية ، وإن كان مكان مولدها ومسقط رأسها فى الولايات المتحدة . لقد شارك فى خلق جنينها حضارات شتى ، وأبناء ثقافات متعددة ، وأعراق متباينة ، لقد كانت ثمرة حتمية لما وصلت إليه ثقافه العالم .

لماذا لا ينظر للعولمة ـ على أنها مكسب بشرى ، أو حصاد بشرى ، ونتاج بشرى ، فلا يسعد بإيجابياتها الأمريكيون وحدهم ، فيجنون ثمارها وحدهم ، ويقع الناس فى شرور سلبياتها من تلوث للبيئة ، وانخفاض فى المعيشة ، والحرمان من التقنية ، عند ذلك يتقبل الناس العولمة فتكون عالمية لا أمريكية ، لكن الدكتور / السيد فليفل يقول ـ فى مقال له بجريدة الأهرام : « إن أخطر ما فى العولمة بالمفهوم الأمريكى أنها انتهازية ، تريد انتهاز الوضع الدولى الحالى ، لاقتياد العالم صوب مصالحها ، وتريد أيضا فرض قيمها عليه » .

الولايات المتحدة لن تقبل استفتاء عالميا حول العولمة ، ولكنها تُؤَمرِكها وتفرضها على العالم ، فى حين أنها غير جديرة بقيادة العالم أخلاقيا ، لأنها تريد أن تجعل كل شىء فى العالم أمريكيا حتى ذلك الذى يتعلق بالمعتقدات الدينية والثقافة والتقاليد الخصوصية للشعوب . فهل ستقبل الشعوب العولمة بهذا الشكل الأمريكى ؟! وهل ستقبل أمريكا إبقاء الشعوب على تقاليدها الثقافية ؟! إن (فوكوياما) يحذر الديمقراطيات الغربية من الإسلام لأسباب ثقافية بالدرجة الأولى، و(هنتنجتون) يرى الشىء نفسه، ويرى حتمية الصدام مع الإسلام للأسباب نفسها، أما (بول كيندى) فيرى أن هناك تسعة مواقع استراتيجية تتحكم فى حركة العالم منها سبع إسلامية وعربية ويحض الولايات المتحدة على السيطرة عليها حتى تتمكن من السيطرة على العالم كل هذه الأمور تجعل العرب والإسلام يجابهون العولمة .

لقد حاولت الولايات المتحدة إقامة مشروعين :

١ ـ مشروع السوق الشرق أوسطية .

٢ ـ مشروع القرن الإفريقى ، ولم تكن الولايات المتحدة موضوعية ، ففى المشروع الأول عضدت إسرائيل لتجعل منها مرابى المنطقة العربية وشرطيها فى الوقت نفسه بفكر أمريكى ، مع تجاهل العالم العربى والإسلامى ، خاصة مصر التى تمثل المحور الرئيس لحركة الشعوب العربية والإسلامية ، وفى الثانى وضعت دول القرن الإفريقى فى فخ الأزمات السياسية والاقتصادية والقبلية . وفى كل الأحوال تجاهلت القيم الأخلاقية لشعوب المنطقة العربية والإسلامية ، وتراثها الدينى والثقافى والحضارى جميعا .

إن العولمة لن تكون مقبولة إلا إذا كانت تشاركية يفيد العالم كله من ثمارها ، ويوقف أخطارها .

وبالله التوفيق .

ميت سويد : أ . د. السيد أحمد فرج

الخميس ١١ من رمضان المعظم عام ١٤٢١ هـ

الموافق ٧ من ديسمبر عام ٢٠٠٠ م

الفصل الأول

ما العولمة ؟

العولمة

(١)

المفهوم :

مصطلح العولمة مصطلح وافد من الغرب ، مترجم عن المصطلح -Globali zation (مادة Glob) الإنجليزية ، وفى الفرنسية Mondialisation من الكلمة monde أى العالم، ولكنها لا تعنى مفهوم العالمية Internationlism ، ويرى بعض الدارسين أن مفهوم العولمة ألصق بمفهوم الكونية ، بمعنى أن العولمة نظام ينشد وحدة كونية تشتمل كل النشاطات الإنسانية لكل الأمم على أساس أنها كون واحد يتعامل وفق منظومة واحدة فى مجالات : الاقتصاد والسياسة والفكر والثقافة والعلم والاختراع والنتاج الصناعى، وحقوق الإنسان، ووسائل الاتصالات والتقنية والإعلام ونحو ذلك ، بقصد تعميم أنماطها بحيث لا تخص بلدا دون الآخر، دون ما اعتبار لماضى هذه الشعوب الدينى أو العرقى أو الثقافى، أو موقفه من هذه الأنماط التى يراد تعميمها دون ما نظر إلى نتائج تجريد هذه الشعوب من مقوماتها الخصوصية ، أى أن العولمة تفاعل كوكبى ذو أبعاد تشتمل جوانب حياة الإنسان المعاصر وشؤونه،، وإن كان الجانب الاقتصادى أكثر بروزا من العوامل الأخرى المتداخلة معه، وقد ساعد على فرضها ، القوة الناشئة المتمثلة فى رأس المال الغالب الذى يحرك الشركات متعدية الجنسيات التى تجاوزت بهيمنتها القوميات وصار لها أيديولوجية نابعة منها ومؤثرة فيها فى الوقت نفسه ، تحركها وتجعل منها قاعدة السياسات الاقتصادية والثقافية والسياسية الكونية .

ومع أن ظهور العولمة صار واقعا مؤثرا فى سياسات العالم فى الربع الأخير من القرن العشرين ، وبصفة خاصة بعد بروز الدور الأمريكى قوة متفردة غالبة ، ومع إمكان إرجاع فكرة الكوكبة إلى عصور قديمة ، سيطرت على فكرة قيام الإمبراطورية الرومانية باعتبارها قوة وحيدة تسيطر على العالم القديم ، فإن البعض

يرجعها إلى القرن الخامس عشر مع قيام الحركة الإنسانية [1] .

إن أكثر الباحثين المتخصصين لم يحددوا تاريخا زمنيا محددا لبداية العولمة غير أن بعضهم مثل : (رولاند روبرتسون) فى كتابه (تخطيط الوضع الكونى) له رأى فيها على أساس أنها المؤثر الرئيس فى الحداثة والثقافة الكونية ، فقد حاول أن يرسم خطًا بيانيا لمراحل تطور أطوار العولمة وتمددها عبر الزمان والمكان وقال : إن أول هذه الأطوار بدأ مع ظهور الدولة القومية على الوجه التالى :

١ ـ المرحلة الجنينية التى تبدأ بالقرن الثانى عشر حتى منتصف القرن الخامس عشر فى الفترة التى شهدت ميلاد الدولة القومية ، متزامنة مع التوسع الكنسى ، ونشوء نظرية وحدة العالم والبشرية .

٢ ـ مرحلة النشوء منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى سنة ١٧٨٠م وما بعده ، وشهدت هذه المرحلة تحديد العلاقات بين الفرد والدولة والدستور والمجتمع الدولى .

٣ ـ مرحلة الانطلاق من سنة ١٧٨٠م حتى عشرينيات القرن العشرين ، واتسم هذا الطور بظهور الأفكار الكونية فى السياسة والرياضة والاقتصاد، وتحديد مفهوم العلاقات الدولية محددة الأبعاد القانونية التى تحكم هذه العلاقات.

٤ ـ مرحلة الصراع من أجل الهيمنة من العشرينيات حتى الستينبات من القرن العشرين وشهدت حربين عالميتين ، وصراعات دول الغرب ، ودخول الولايات المتحدة حلبة الصراع بدور فاعل ضمن لها دور القيادة ، ثم ظهور عصبة الأمم المتحدة .

٥ ـ المرحلة الأخيرة (الطور الأخير الأعظم) منذ الستينيات حتى آخر القرن العشرين وهى مرحلة التقدم العلمى والتقنى الهائل ، والهبوط على القمر ، وثورة المعلومات والاتصالات .

والعولمة فى كل أطوارها ومراحلها برأى (روبرتسون) تبدأ من الغرب من أوربا تحديدا ، وتنطلق منه عدا المرحلة الأخيرة ، فقد انبعثت من الولايات المتحدة

---

(١) ارجع إلى : السياسة الدولية العدد (١٣٦) أبريل ١٩٩٩م ، ص ٣١٤ .

الأمريكية [1].

لكن مصطلح العولمة لم يفرض نفسه قبل منتصف عقد الثمانينيات من القرن العشرين إذ لم يكن له قبل ذلك حضور خاص بالمفهوم الحالى ، بل إن قاموس أكسفورد للمصطلحات الإنجليزية الجديدة أشار إلى مفهوم مصطلح العولمة للمرة الأولى ١٩٩١ م واصفا إياه بأنه من الألفاظ الجديدة التى برزت خلال التسعينيات مستعينة بالمستجدات التقنية ، وتطور علم المعلومات وآليات الاتصال [2] . لوصف ظاهرة تشابك الاقتصاد الدولى ومنذ ظهور القوميات والكشوف الجغرافية والتطلع الاستعمارى لم تتوقف مسيرة العولمة فقد سارت بمراحل متتالية ومتقدمة إلى الأمام.

(٢)

لقد تطورت العولمة مع بروز الحداثة بكونها مؤثرًا فى صيرورة المجتمع الغربى وتطور الرأسمالية الغربية فقد أعادت الحداثة وتطور الرأسمالية فى الغرب ترتيب النظام الدولى وأهلته لحركة دمج وصهر فى نظام اقتصادى عالمى ينبثق من الغرب وينتشر فى كل الاتجاهات فى العالم مضللا بقناعة تفوّق ثقافة الغرب وسلوكياته وتأثيرهما فى شعوب العالم .

إن العولمة ثمرة نظم الاتصال الحديثة التى سهلت تقريب الاتصال بين الدول لحظيا كما سهلت التعامل المباشر بواسطتها . ومفهوم العولمة وإن ترسخ فى عالم الاقتصاد والعلاقات الدولية أكثر من غيرهما لم يتجاهل العلوم الإنسانية الأخرى ؛ لأن مفهوم العولمة يقوم على عمليات متشابكة تدخل فيها كل العلوم الحديثة سواء كانت طبيعية أو تطبيقية أو إنسانية مما يجر الباحث إلى إشكاليات الفهم والتأويل ويصعبها خاصة إذا كان الباحثون ينتمون إلى مذاهب فكرية متباينة . وربما يجعل

---

(١) ارجع إلى: رولاند رويرتسون : تخطيط الوضع الكونى ، ص ١٥ ـ ٢٠ دار نشر سياح ، ١٩٩٢م ، ومقال د.على إبراهيم الأهرام ١٣/٨/١٩٩٩م، وعبد الخالق عبد الله، بحث العولمة عالم الفكر، مجلد ٢٨ عدد ٢، ص ٥٨، وانظر أيضا: رولاند رويرتسون: العولمة النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية،ص ١٣٣، ١٣٤ .

(٢) بحث د . عبد الخالق عبد الله ، العولمة ، عالم الفكر السابق ، ص ٥٠ نقلا عن :
Ronald Robertson Globalization 1992 p . 8 .

هذا التشابك والتضاد مهمة العولمة صعبة .

وإذا كانت العولمة من صنع الغرب ، فإن العصور الحديثة فى العالم كله من صنعهم بدءًا من عصر النهضة (القرن ١٤ ـ ١٦) على أيدى الإنسانيين وبعقلهم ، فقد رأوا أن على الإنسان ـ باعتباره أرقى الأجناس ـ أن يعتمد على عقله ، وأن يلتمس كل ما يصلح أموره من داخل عقله ـ من عالم الواقع، لا من عالم الغيب، ومن ثم طفت الإنسية humanism وكونت نمطا ثقافيا لأوربا بمقتضاه عدّت نفسها العالم ، وظل هذا النمط من التفكير الثقافى لأوربا ينمو حتى قيل: (أوربا هى العالم) وإن تكونت من وحدات قومية ؛ لأن الوحدة الثقافية الأوربية لم تقدر على توحد سياسى يجعل من دول أوربا أمة واحدة .

ولقد سيطرت فكرة العالمية على كثير من المفكرين الأوربيين منذ القرن الرابع عشر، وكان دانتى اليجييرى Dante Alighieri (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) أول من اتجه إلى النزعة العالمية فى القرن الرابع عشر عندما اقترح فى مؤلفه Dc monarchia سنة ١٣١٥م حكومة عالمية،وكانت فكرته مستوحاة من الإمبراطورية الرومانية التى «كرسها الله لتوفير السلام للبشر » على حد تعبيره// وكان دانتى يعنى بالحكومة العالمية المقترحة « أن تتمتع الممالك والإمارات والمدن التى تتكون منها هذه الحكومة بحرية كاملة داخل نطاقها ؛ لأن الشعوب يجب أن يسير نظامها وفق القوانين التى تلائم كلا منها ؛ لأن الناس يعيشون وفق أجواء مختلفة ، ومن ثم يحتاجون إلى قواعد حياتية مختلفة ، أما الوسائل التى يشترك فيها الجنس البشرى ، المنبعثة عن فطرة كامنة فيهم ، فيجب الخضوع منها لحاكم واحد ، كما يجب على الناس فى هذه الحالة أن يتمسكوا بقاعدة واحدة ترشدهم إلى السلام » (١) .

وفى القرن السابع عشر نظر أمريك كروشيه (١٥٩٠ ـ ١٦٤٨م) Emeric crocee إلى العالمية نظرة أوسع من نظرة دانتى وأشمل « لقد دعا إلى ضرورة قيام اتحاد عالمى مفتوح للشعوب والأمم كافة دون التقيد بدين خاص ، وروّج لفكرته بضرورة حماية التجارة العالمية ورواجها وكذا ترقية العلوم والفنون ، ونشر التسامح الدينى والأخوة بين الشعوب ، واقترح أن تكون الدولة العثمانية (الإسلامية)

---

(١) بطرس غالى : التنظيم الدولى ١/ ٢٤ ، الأنجلو ١٩٥٦م .

والصين والهند والفرس أعضاء فى هذا الاتحاد الدولى » (١) .

وفى نهاية القرن الثامن عشر تجسَّدت الوحدة العقلية لدى الفيلسوف الألمانى (كانط) لتحل محل الوحدة الجغرافية ، ونتج عن ذلك قوة اقتصادية مبدعة فى أوربا الحديثة ورأسمالية قوية تعتمد على تقدم صناعى وتجارى وقوانين تساند الاستعمار ، وتطلعات إلى الدولة القومية ، وكانت إنجلترا وفرنسا قد تكونت فيها الدولة القومية بالفعل ، وكانت تطلعات إيطاليا وألمانيا إلى الدولة القومية قد بلغت ذروتها ، وكان المفكرون الأوربيون على العكس من ذلك ، فقد كانت الدولة القومية بنظرهم حالة تاريخية ظرفية لا تفتأ أن تزول ، وتذوب فى دولة عالمية ، وكان من أبرز هؤلاء (كانط) وسان سيمون ، وأوجست كونت ، وماركس ، ولكن على الباحث أن يضع فكرة المفكر ضد فكرة السياسى ، فالمفكر يجسِّد بخياله عالما موحدا حرا يسوده السلام الدائم وترفرف عليه الرفاهية . أما السياس فيكون أكثر واقعية ، وأكثر انتهازية .

غير أن (دارون) وقد تعاصر مع (سان سيمون) و(أوجست كونت) و(ماركس)، جاء بنظريته الحيوية فى التطور ، فرأى عكس ما رآه هؤلاء ، وحرضت نظريته الرجل الأبيض على كل الأجناس الأخرى باعتباره الأقوى والجدير بالصلاحية لإدارة العالم وللبقاء ، وللسيادة بزعم نظرية أصل الأنواع (لدارون) ، ومن يومها لم يتوقف الصدام بين أصحاب فكرة العالمية ، وأصحاب الميل إلى الهيمنة والتسلط على الآخرين .

لم ير (كانط) فى الدولة القومية إلا لحظة تمر فى التاريخ (الزمن البشرى الأعظم) ؛ لأن المجتمع البشرى (بحسب قوله) لكى يوائم فطرة الإنسان لابد أن يسعى لإقامة نظام ، أو نمط يحقق وحدة الشعوب الحرة بدستور مدنى يقوم على ثلاثة عناصر :

١ ـ الحق المدنى للأفراد الذين يؤلفون شعبا .

٢ ـ حق الشعوب الناظم للعلاقات بين الدول .

---

(١) د. محمد حسن الإبيارى : المنظمات الدولية الحديثة ، وفكرة الحكومة العالمية ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٨م .

٣ ـ الحق العالمى القائم على ترابط البشر والدول باعتبارهم مواطنى دولة عالمية ، تنتظم فيها البشرية جمعاء [١] .

الحكومة العالمية فى رأى (كانط) تتصل جوهريا بالسلام الدائم ، لكى تصل بالإنسان إلى الغاية التى يوجبها عليه عقله، لكى تناصر غايته الأخلاقية ، ومن ثم فعلى مواطن هذه الحكومة أن يخضع للجوانب الثلاثة من القانون العام = القانون المدنى ، وقانون الشعوب ، والقانون العالمى .

ونظام الحكم الذى ينشده (كانط) هو النظام الجمهورى ؛ لأنه وحده المتوائم مع حقوق الإنسان ، وإذا كان الناس عاجزين عن بلوغه بما طبعوا عليه من ميول الأثرة والأنانية ، فإن الطبيعة تسخر هذه الميول نفسها لتكون فى عون الإرادة العامة التى تقوم على العقل ، بما يقوم به النظام السياسى الصالح من تثقيف الشعوب تثقيفا أخلاقيا صالحا .

ويرى (كانط) أن اختلاف اللغة والدين قد يكون منبتا لبذور الأحقاد ومصدرا للصدام بين الشعوب ، ولكنه هو نفسه يؤدى مع ازدهار المدنية ، وزيادة تقارب الناس فى المبادئ إلى الوفاق فى ظل السلام الدائم .

ويقترب (كانط) فى مشروعه للسلام الدائم من العولمة التجارية التى تمثل أهم أهداف العولمة فيقول : « إن تبادل المصالح بين مختلف الشعوب يوصل إلى جمع شملها جميعا ، وما كانت فكرة القانون العالمى وحدها تستطيع أن تحميه من العنف والحرب . إن الروح التجارية التى تتنافى مع الحرب يمكن أن تتسلط عاجلا أو آجلا على الشعوب .

« ولما كان المال أقوى ما تملكه الدولة من وسائل العمل فقد رأت الدول نفسها مضطرة لا بمقتضى بواعث أخلاقية (بل بواعث برجماتية) إلى بذل الجهود من أجل العمل النبيل ، عمل السلام » [٢] .

كان (كانط) قد يئس من الفكر (الإكليروسى) الصادر عن الكنيسة الكاثوليكية التى رفضت ديانات الأغيار وثقافاتهم ، بل كفرتهم، كما يئس من

---

(١) مجلة النهج ، العدد (٥٣) شتاء ١٩٩٩م ، مقال : فالح عبد الجبار ، ص ٩٢ .

(٢) كانط : مشروع للسلام الدائم، ص ٦٢ ـ ٦٦، ترجمة وتقديم:د . عثمان أمين، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م.

الفكر الإلحادى المادى المضاد الذى ظهر فى القرن الثامن عشر قرن التنوير En-lightenment الذى عمل بإصرار على إزالة الفكر الدينى من أوربا ، ورأى أن العقل العملى يقدر على أن يحل المشكلة بطرح بديل عقلى بأخلاق كونية تعوض انهيار الأخلاق المسيحية التى ضاعت مع انهيار نفوذ الكاثوليكية ، ونشوء نمط عالمى لحياة البشرية يضبط أحوالها ، بشرط أن تخضع له البشرية كلها .

أما (سان سيمون) فكان يرى أن على الأوربيين أن يحدثوا نظاما جديدا بعد انهيار الإكليروس ونظامه العسكرى ، ورأى أن هذا النظام يضمن التقدم المدنى ، وهو ما أطلق عليه: النظام والتقدم Statique et Dynamatique والإفادة من بروز طبقة الصناع، ولأنه كان ميالا للاشتراكية فقد رأى الإفادة من بروز العمال للاتحاد مع الصناعيين فى وحدة تاريخية . فهو يقول : « إن الصناعة وحدة يرتبط جميع أفرادها بالمصالح المشتركة للنتاج وبحاجتهم جميعا إلى الأمن والحرية فى المبادلات، فالمنتجون من كافة الطبقات ومن جميع بلدان العالم أصدقاء بالضرورة، ولا شىء يمكن أن يعترض توحدهم » (١) وتقوم فكرته على :

١ ـ ترسيخ مكانة العلم ودوره فى تحقيق تقدم المجتمع المدنى ، وتنظيم دور المجتمع ، وإدارته عقليا .

٢ ـ الفكرة الأولى بمثابة مقدمة لإنشاء حكومة عالمية (Globe State) تحكم عالم المستقبل .

٣ ـ لا مانع من الاتصال بمفكرى العالم وعلمائه غير الأوربيين (الأفارقة والآسيويين) للمشاركة فى تحقيق عقلانية كونية .

وجاء (أوجست كونت) ، وكان تليمذا (لسان سيمون) فى بداية حياته ، فأخذ منه فكرة النظام والتقدم ، وألف مؤلفيّه المشهورين : الفلسفة الوضعية والسياسة الوضعية ، ومن فلسفة كونت : أن العالم يجب أن يتركَ مراحل التاريخ الأسطورية (الدينية) والميتافيزيقية ، إلى المرحلة الوضعية التى كان يراها حتمية لتقدم البشر ، ولضمان ذلك طالب بتوحيد الأديان فى دين إنسانى لكل البشر ،

---

(١) د . طلعت عيسى : سان سيمون ص ١٥٤ ، والنص لسان سيمون بعنوان : التضامن الدولى بين الصناع ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

وبلغ من حماسه أن أرسل إلى رؤساء العالم الإسلامى (العثمانى آنذاك) والأرثوذكسى (روسيا) يدعوهم إلى الدين الجديد للعالم .

ودعا (ماركس) إلى عالمية اشتراكية (أممية) تعم العالم ، ولكن بطريقة غير طريقة السابقين . كان ماركس يأمل تحقق وحدة عالمية للعمال ـ كل عمال العالم ـ وهى فكره مستوحاة من فكر سان سيمون .

ولا يمكن فصل هذه الأفكار التى مهرت القرن التاسع عشر عن الأفكار فى أطوارها المختلفة فى أوربا منذ الحركة الإنسانية حتى طور العولمة ، مرورا بثورة الاحتجاج الدينى (مارتن لوثر) وعلمنة الحياة الأوربية التى مهد لها مكيافيللى والإنسانيون ، وبلورها (توماس هوبز) و(جون لوك) و(جاليليو) و(فرانسيس بيكون) و(إسحاق نيوتن) ، و(ديكارت) و(ديفيد هيوم) و(فولتير) وكل التنويريين . وهى فى عقل كل هؤلاء تقوم على :

١ ـ أن العقل الإنسانى يوحد بين كل البشر .

٢ ـ أن الإنسان يمر بأطوار ثلاثة : الطور الأسطورى (الدينى) ثم الطور الميتافيزيقى المرتبط بالطور الأول ـ والمتطلع للطور النهائى للبشر (الطور الوضعى) عند (أوجست كونت) بصفة خاصة .

٣ ـ حتمية التطور التاريخى فى وحدة البشر ، فى مجتمع الشغيلة الذى يحقق الفردوس الأرضى (سان سيمون) ثم (كارل ماركس) .

٤ ـ حتمية المسار، كمسار ماء النهر الجارى المتدفق بغير انقطاع ، وهو مسار ارتقائى من البداوة إلى التحضر (ابن خلدون) وهو ليس أساسيا فى مشروع الكونية بالمفهوم الغربى ، ولكن يتفق معها بشكل أو بآخر.

وفى القرن العشرين بعد الحرب العالمية الأولى حققت الأفكار الماركسية انتصارا فى قسم مهم من أوربا (الاتحاد السوفييتى) سنة ١٩١٧م وبعد الحرب العالمية الثانية حققت انتصارا آخر لا يقل أهمية فى آسيا (الصين) سنة ١٩٤٩م ، وأخذ النظام الماركسى يقوم بدور مسيطر يماثل دور النظام الرأسمالى . ويحول العالم إلى بؤر حرب تزكيها المذهبية الرأسمالية الاحتكارية أحيانا ، ورأسمالية الدولة الشمولية أحيانا أخرى فى العالم الشيوعى، ولم تكن هذه القوى الرأسمالية

أو الماركسية متعادلة القوة، أو متكافئة النفوذ، كما كانت متباينة الثقافة، والإمكانات الاقتصادية، والحركية السياسية ، وانتهى الأمر بتحلل المجتمع الصناعى إلى ثلاثة نظم ، ذات توجهات سياسية متضادة هى :

١ ـ الرأسمالية الحرة ، تمجد الفردية . (غرب أوربا وأمريكا الشمالية) .

٢ ـ رأسمالية الدولة (الاتحاد السوفييتى والصين وشرق أوربا) ومن حذا حذوهم فى كوبا وفيتنام وغيرهما .

٣ ـ تعظيم الدولة (هيجل) (هتلر ، موسوليني) تمجيد الدولة القومية العليا .

وكان الشيء وضده كامنًا فى هذه النظم المادية ، وأخذ النظام القومى يدفع الدول القومية إلى نظام قومى أعلى ، ثم لم تعد القوة العسكرية القومية كافية بعد ظهور قوة عسكرية مضادة شيوعية بقيادة الاتحاد السوفييتى ، وبروز حلف وارسو ضد حلف الأطلنطى ، والرأسمالية الحرة طورت نفسها لتكون قادرة على ضرب النظام الاقتصادى الاشتراكى . وفى حلبة هذا الصراع احتاجت كل من القوتين لمنظمات فوق القومية للتدخل فى وقت اللزوم مثل : الأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية ، واليونسكو ، والسوق الأوربية المشتركة وغيرها . وهكذا استمر صراع القوى بين النظامين الرأسمالى والاشتراكى إلى أن سقط النظام الاشتراكى ، وبقيت القوة الواحدة التى رأت أن النظام الرأسمالى هو النظام الذى يجب أن يسود ؛ لأنه الأقوى والأصلح للبقاء (بحسب نظرية دارون) ولأنه يقف عند نهاية التاريخ ، أى لأنه آخر أطوار التاريخ ، كما عبر عنه (فرانسيس فوكوياما) ، وهى فكرة قديمة نادى بها (أوجست كونت) فى القرن التاسع عشر فى الطور الوضعى للبشرية ، الذى يجب أن ينتهى عنده تاريخ الإنسان فى صراع الكينونة والصيرورة .

والنتيجة كما رأى (هوبز) فى القرن السابع عشر فى كتاب التنين leviathan أن حرب الكل ضد الكل لابد أن تفرز نظاما جديدا لصالح الكل بزعمه، وربما قالها (هوبز) ليخضع شعب إنجلترا لسلطة الملك (التنين) ولقد صدق فى قوله : إن صدام الكل ضد الكل يولد نمطا ثالثا لحياة البشر، ويوافقه فى الفكرة نفسها هيجل

فى أن الأطروحة thesis تحمل نقيضها فى أحشائها anti - thesis ويتولد منهما مولودًا ثالثا لا هو الأول ولا هو الثانى ، وهى الفكرة التى حورها (ماركس) وزعم أنه عدلها .

ويضاف إلى ما سبق رأى (كانط) الذى رأى أن العقلانية فى ظل الطبيعة الإنسانية يتولد منها نظام عالمى يشمل البشر جميعا . ومن كل تراكمات الفكر ، والتقدم المدنى والعسكرى ، وتحولات رأس المال فى الغرب تولد نمط العولمة ، ساعد على ذلك موت الضد (الاتحاد السوفييتى) وتحول رأس المال إلى (تنين) أمريكى بوجه خاص قائم على ثقافة البرجماتية البحتة ، التى تنحى من طريقها الدين والأخلاق والقيم؛ لأن الولايات المتحدة فقيرة التاريخ ، ثم إنها لم تصنع لغتها ، ولم تكن دولة قومية فلم لا تبتكر البرجماتية / العولمة ؟ خاصة وقد ملكت قوى مهمة فى مجال الاقتصاد والسلاح المدمر ، ووسائل الاتصال المتقدم .

هكذا مهد هؤلاء الفلاسفة الكونيون [من أوربا] إلى مصطلح العولمة الذى عنى بتوسيع دائرة الصناعة والثقافة والاقتصاد وحركة المال ، وتجاوز الحدود الجغرافية للدول لتشمل العالم كله . أى التحول من المحدود إلى اللامحدود ؛ ليغطى أنحاء الكرة الأرضية مع تشابك كل الأطراف العالميين فى مجموع نشاطات التفاعل الاقتصادى ، وعمليات التبادل التجارى ، وتبادل المعلومات ، والاتصال بكل الثقافات ، والسياسات وانتقال الأفراد والأفكار والأذواق خارج الحدود القومية إلى رحابة العالم .

ويرى دارسو العولمة : أن العولمة ـ لأنها كوكبية المفاهيم ـ أضعفت السياسة القومية وأفقدتها بعض قوتها ؛ « لأن المصالح الاقتصادية المشتركة بين الدول تعمل باستمرار على التجاوز عن الخلافات السياسية التاريخية بينها وحل المشكلات بشكل ودى » (١) .

وفى هذا الرأى تجاوز كبير ، فقد أضعفت العولمة الدول الضعيفة فزادت ضعفا وقوت الدول القوية فازدادت طغيانا ، فقد قامت الدول القوية وفى مقدمتها الولايات المتحدة باسم الديمقراطية الليبرالية، وباسم العولمة وباسم حقوق الإنسان

---

(١) هناء عبيد : العولمة ص ٣٠ ، موسوعة الشباب السياسية رقم ١٣ سنة ٢٠٠١م .

بتعقب سياسات الدول الصغرى داخل حدودها القومية لفرض سياستها على الدول الصغيرة ، فإذا لم تستجب لها لوَّحت لها بعدم احترام حقوق الإنسان بالمفهوم الغربى .أو الاضطهاد الدينى للأقليات ، ويعطى قانون الاضطهاد الدينى الذى أصدره الكونجرس الأمريكى للولايات المتحدة الحق فى أن نفتش عن احترام الأديان ، وحقوق الأقليات فى العالم بحسب رؤيتها الخاصة، وفى الوقت نفسه لا تستطيع دولة فى العالم ، أو أى منظمة دولية ، أن تحد من اعتداء الولايات المتحدة على الشعوب ، أو تلويث البيئة ، أو نشر أسلحة الدمار الشامل ، ومعاقبة الدول التى تعارض سياستها بأسلحتها الفتاكة كما فعلت فى العراق ، وصربيا، وأفغانستان وهكذا فى ظل العولمة ظلت الولايات المتحدة القوة العظمى المنتصرة ترفع الحدود والقيود بين دول العالم ، وتهيئ لنفسها عولمة تسيطر بها على التفاعلات العالمية فى مجالات الاقتصاد والثقافة ، والسياسة والمعلومات والاتصالات ، وتعمل من أجل تنميط العالم بحسب رؤيتها ، ووفق نموذجها الديمقراطى الليبرالى .

(٣)

الثقافة والعولمة

فى قلب حضارة ما لا تنفصل الثقافة عن عالم الأشياء ، ويتزاوج الفكر مع حركة المجتمع داخل الحضارة سرعة وبطءً ، وفى الغالب ما تنصب الحركة الفكرية على قيم التقدم ؛ لأن الفكر والثقافة والتعليم والتربية تعمل من أجل إيجاد نظام يضمن دوام حركة المجتمع واستمرارها فى شكل نظرية ، أو مذهب يحمى الأطر الاقتصادية ، والسياسية والاجتماعية والثقافية التى تمدها بمادة الحركة والتقدم . ولكن قد يشوب كل ذلك رغبة من القوة المحركة لهذا النظام ـ وهى قوة سياسية ـ رغبة حب السيطرة بإدخال جميع المجتمعات المتصلة به فى دورة العوامل نفسها المحركة له رغبة فى تعميم هذا النظام ليكون عالميا ، وقد بدأت هذه الفكرة فى أوربا منذ القرن الثامن عشر ، ثم امتدت إلى كل قارات العالم من آسيا إلى الأمريكتين ، وحتى عندما تقف بعض التيارات الثقافية المضادة فى ثورة وطنية أو قومية أو دينية ، فإن الغلبة تكون للنظام الذى تعضده قوى عسكرية ، وسياسية

واقتصادية تكون أيديولوجية تحميه وتدعمه ، وهذا ما حدث فى مسيرة النظام الرأسمالى وصيرورته ، كما حدث لغيره من النظم .

الثقافة والعلم والقوة الاقتصادية تسير فى خطوط متوازية لخطوط وسائل التقدم والهيمنة ، وقد تدول دول وتبرز أخرى أو تأفل ، وتشرق شمس أخرى ، ولكن تظل الحركة واحدة ، وإن اختلفت صورتها ، وإن انتقل محور العالم ومركز ثقله من مكان إلى مكان آخر فإنه يدور حول محوره الجديد .

وفى الربع الأخير من القرن العشرين صارت الولايات المتحدة هى المحور وثقله ، لكن المحور هذه المرة قبل ضم قوى أخرى تمثل محاور ضميمية ؛ لأن سوق رأس المال فاقت الوجود القومى إلى الوجود اللاقومى (العولمى) وتحول كثير من الأسواق العظمى إلى سوق واحد متفرعة فى أكثر من بلد ، وصار مكان نشاطها أسواق العالم ، ساعد على ذلك تقبل ثقافى غزته المنظومات الإعلامية ، وأجهزة الاتصال المتقدمة . إن العالم الآن صار وجها لوجه أمام توحد مصادر المعلومات وشبكات الاتصال وأدواته ، ولم يعد بمقدور أحد أن يزعم أن هناك قوى تستطيع أن توقف هذه الشبكات أو تتحكم فيها ، وليس بمقدور أحد أن ينسل عنها ، ويسلك طريقا منفردا بعيدا عنها ، العالم كله الآن يخضع لمصادر معلومات واحدة وشبكات اتصال واحدة ، وأنماط نتاج علمى وثقافى وتقنى واحدة ، وقد يحاول مجتمع ما أن يخضع هذه النظم لظروف مجتمعه الخاصة، وموارده الذاتية، ولكنه فى الوقت نفسه لن يقدر على الانسلال من هذا النظام الواحدى .

فى النظام الرأسمالى قبل المعولم كانت النخب الوطنية تستمد قوتها من مشاعر الوطنية أو القومية ، بعكس الحال فى النظام الرأسمالى المعولم فإنه نابع من موارد مادية وثقافية معولمة ، ثم إن الكل داخل النظام المعولم على مستوى دائرى دائم الاتساع يتأثر بكل مؤثرات العولمة المادية والفكرية . كل بقدر اتصاله بها ، وبقدر تأثيرها فيه ، وهى مؤثرات إيجابية وسلبية معا ترتبط بتحقيق الربح الوفير وبالثقافة الرأسمالية والإعلام ، ووسائل الاتصال، ومشكلات البيئة من تلويث وأزمات اقتصادية وأوبئة، وأزمات قيمية وأخلاقية مثل انتشار الجريمة والمخدرات والبطالة ، وشبكات الدعارة الفعلية،وشبكات الدعارة بواسطة التقنية على شبكات الإنترنت ـ فنحن إذن نعيش فى عالم معولم أوْ يراد عولمته فى « إمكانية ثقافية واجتماعية

وسياسية موحدة . . . إن هناك ميلا إلى توحيد الوعى والقيم وطرائق السلوك ، وأنماط النتاج والاستهلاك »[1] أى عولمة كل شيء مادى أو معنوى بالعالم .

إن نخب التعولم تبشر بعالم متعولم يخرج عن شكل العالم المعروف بحدوده الجغرافية فى ظل المشاعر القومية ، وإن ظل هذا التطلع بعيدا عن الواقع ، فأكثر الدول لاتزال تسعى للحفاظ على حدودها الجغرافية ، ولا تزال الولايات المتحدة قائدة التعولم مالكة لمشاعرها القومية ، وتحافظ على روح خاصة بها تطلق عليها الروح الأمريكية ، وهذا التعولم يشير إلى أن دولا كثيرة ، وكلها دول ضعيفة بطبيعة الحال ستعانى من حلم الحفاظ على القومية ، والتهميش فى حركية العولمة التى تعمل لدفع العالم على هواها بالصورة نفسها التى كان النظام الرأسمالى قبل المعولم يؤثر بها فى الشعوب الضعيفة ويهمشها لمصلحته .إن العولمة قد بدت وكأنها حتمية فى صيرورة حركة التاريخ، ودافعا قويا فى تحريك العالم ، وتعبيرا عن قوة الهيمنة التى تملكها الشركات متعدية الجنسيات التى تملك المصانع والتقنية المتقدمة ونتاج المصانع ، ووسائل الإعلام المروجة لها ، ووسائل الاتصال ، والتحكم فى حقول المواد الخام ومصادرها ، وفى الأسواق ، وفى سعر السوق، وفى الوقت نفسه فإن الدول الضعيفة وهى أغلب دول العالم لا تملك تقنيات العولمة وقوتها ، وأن الدول المتحكمة لن تهبهم إياها ، ولن تترك لهم فرصا معرفية توصلهم إلى وسائلها واستخداماتها ، وبذلك تفرض العولمة نظاما لفرض هيمنة لم تشهدها الإنسانية من قبل، أى أن العالم بإزاء صيرورة التحولات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لصالح قوة عظمى مثل الولايات المتحدة التى تعمل بكل طاقاتها لكى تحافظ على تفوقها العالمى فى كل المجالات .

ولكن هل يكفى هذا لإدانة العولمة ؟! لا . بل يجب مواجهة آلياتها ، وإبراز آليات ذاتية تمكن الشعوب من التقدم،وضمان ذلك أن تعى النخب العلمية والثقافية للشعوب قيمة عطائها لشعوبها ، وخطورة الهجرة إلى المجتمعات المتقدمة ، وعلى سبيل المثال هجرة الدكتور عبد الرحمن بدوى (قيمة ثقافية) إلى فرنسا ، وفاروق الباز وأحمد زويل (قيمة علمية) إلى الولايات المتحدة وغير هؤلاء كثر يعدون

(١) برهان غليون : ثقافة العولمة ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٩م ، ص ٢٠ ، ٢١ .

بالآلاف من العلماء الذين ساعدوا فى إثراء المناخ العلمى والفكرى فى أوربا والولايات المتحدة وكندا . إن أمثال هؤلاء يساعدون على زيادة التفوق فى الغرب، وتفاقم التخلف فى العالم العربى ، أى أن هؤلاء يعملون لصالح النظام المعولم وضد شعوبهم .

إذا كانت العولمة تمثل نظاما جديدا من العلاقات المركبة بين الثقافات ، بحسب رأى (صمويل هنتنجتون) فى كتاب (صدام الحضارات) ، إلا أنه شئنا أم أبينا يزيد من نمو الثقافة المهيمنة ، ويضعف من الثقافات الأخرى ، فالولايات المتحدة فى صراع الهيمنة العالمى لن تترك موقعها يضعف ، بل ستهيئ مناخا ثقافيا يجعل نتاج الثقافة الأمريكية يتفوق على منتوجات الثقافات الأخرى، إن لم يهيمن عليها، وعندئذ تتحول العولمة إلى صيرورة أمريكية .

إن عاقلا لا يؤثر انفصام ثقافته عن الثقافات الأخرى إذا تحققت الفائدة منها ، بشرط أن تحتفظ ثقافته بخصوصيتها فلا تذوب فيها ، وإن الثقافة يمكنها ـ فى حق تفاعل إيجابى ـ أن تنشط من قدرات الإبداع فى الميادين العلمية والتقنية ، واللغوية والأدبية والأخلاقية . ولكن الذى يخشى منه أن هيمنة ثقافة ما على ثقافات أخرى يكون ناتجا عن قوة مسيطرة لأصحاب هذه الثقافة ، دون أن يكون لاعتبارات الدين والقيم والأخلاق ـ عند الدول المسيطر عليها ـ أى وزن أو أهمية فى هذه السيطرة ، خاصة إذا كان للثقافة المسيطرة قيم دينية وأخلاقية تضاد قيم الثقافة المسيطرة عليها .

ـ إن لثقافتنا مرجعية دينية : الإسلام ، ولغوية : اللغة العربية ، وعلمية : علوم المسلمين التى أزهرت العالم . ومن ثم فلا يجب أن ننكمش أو ننغلق على أنفسها ، كما لا يجب أن نذوب فى ثقافة العولمة ، بل نفيد منها فى وسائل تنظيم التقنية ، وقيم الإبداع ، واعتبار التقدم العلمى ضرورة ، ولا يعيبنا أن نتمسك بخصوصة تميزنا عن غيرنا ، وليس فى ذلك بدعة ، فكل أصحاب المذاهب والأفكار يدعون جماعاتهم إلى التمسك بالخصوصية ، ويسعون من أجل أن تسود ثقافتهم . إذن فلم لا نسعى لإبراز خصوصيتنا الثقافية ؟ إننا إن لم نفعل لن تكون ثقافتنا إلا صدى لثقافة غيرنا ،ويكون دوراننا فى هامش الفلك .

إن ثقافتنا العربية الإسلامية ذات جذور عميقة تختزن قيما تخصنا ويمكن أن تدفعنا إلى الإبداع والتقدم ، كما أنها تحمينا من الذوبان الثقافى فى ثقافة العولمة . إننا إذا آمنا بأهمية التفاعل الثقافى بين الثقافات ، ومنها ثقافتنا ، وثقافة العولمة ، فإن ذلك يساعد على تحديد موقعنا الثقافى من ثقافات العالم ، التى يمكن الإفادة منها ، ليس من حيث كونها مكتسبا حضاريا كونيا (معولما) يجب تعميمه ، ولكن من حيث إن مهمة التفاعل الثقافى الكونى تمكين الثقافة المحلية الخصوصية من التجدد الإيجابى ، والإخصاب الثقافى ، فضلا عن دفع خطر الاستلاب والارتماء تحت أقدام ثقافة العولمة ، وتلاشى الهوية فى هويات أخرى ، فنكون أمة بلا هوية وبلا شخصانية .

(٤)

انعكاسات العولمة

مع أن العولمة صارت ظاهرة مؤثرة فى العالم ، إلا أن حركتها لم تكتمل بعد، فاكتمالها مرتهن بسيطرتها التامة على الكوكب المعمور، وقد يفاجئنا التاريخ بمذهب جديد يوقف مسيرتها وتقدمها أو يحولها إلى مسار آخر ، قبل أن تحقق صيرورتها النهائية .

والعولمة على أية حال تمثل مرحلة متقدمة من النظام الرأسمالى على صعيد كوكبى يفترض أنه سيستمر ، ويتطور دائما بواسطة وحدات نتاج ضخمة وآليات متعدية للقارات والجنسيات ، ودونما حساب لنظم الدول القومية ، ويمكن تلخيص انعكاسات العولمة على الناس فى بلادنا فيما يلى :

١ ـ تجاوز حدود الدولة القومية فى مجال الاقتصاد وثورة المعلومات ، والطغيان الثقافى ، وما يتبعه من تعملق قوى دولية ، وتقزم قوى دولية أخرى .

٢ ـ إزاحة آليات الاقتصاد القديم التى تحكم حركة رأس المال ، وإعادة صياغة آلياته صياغة جديدة تساير النظام الاقتصادى العولمى ، بدمج الشركات الكبرى ، دونما نظر إلى موقف الدول التى تقع فيها هذه الشركات من العولمة ، لتكوين شركات أكبر ذات قوة مهيمنة تفوق قوة الدولة القومية ذاتها .

٣ ـ فرض آليات الهيمنة على أسواق العالم ، وهو الدور الذى تلعبه الولايات المتحدة بإفساح المجال لشركاتها المتفوقة لإحكام السيطرة على العالم .

٤ ـ تحقيق التفوق التقنى الموصل إلى تحقيق مكاسب ضخمة تتجاوز النتاج ذاته ، وهذا التفوق لا يكون فى مجال الصناعة الآلية الشاملة فحسب ، بل فى مجال تعميم المعلومات والثقافة والأفكار على الكوكب المعمور ؛ لأن توحيد الثقافة وقيم السلوك والتربية والتعليم، ومفهوم السلام العالمى وحقوق الإنسان يفرغ الشعوب من خصوصيتها، ويمكن العولمة منها » (١) .

ومع أن العولمة صارت واقعا فى البلاد التى تجاوزت مرحلة الرأسمالية التقليدية فى أمريكا الشمالية وغرب أوربا ، وبعض دول آسيا كاليابان وسنغافوره ، فإن شعوبا كثيرة لا تزال تقف منها مواقف متباينة يمكن إيجازها فيما يلى :

١ ـ قبول العولمة على أنها حتمية لا مفر منها ، وضرورة لا اختيار للناس فى قبولها أو رفضها . وهذه النظرة من أصحابها ترى أن مواكبة الكونية ضرورية لصيرورة التقدم وخاصة أن تجليات العولمة تؤكد تحقيق تقدم العالم فى مجالات الاقتصاد والاتصال ، والسيطرة على وسائل رأس المال والعلم والثقافة ، وتحقيق حقوق الإنسان ، دونما نظر إلى الاعتقاد الدينى ، والأصل العرقى ، والثقافات العرقية الموروثة .

٢ ـ الأخذ بالحذر منها على أساس أن لها دورا فاعلا فى تقليص دور الدولة، والبنية الأساسية فى التشريعات ، ويكون الأمر أكثر تعقيدا فى حالة ما إذا كانت دولة خاضعة لحكومة تأخذ بنظام الحكم الشمولى ، وتعانى فى الوقت نفسه من التخلف فى مجالات العلم والثقافة ، والفقر فى مجالات التقدم التقنى ، مما يسبب مزيداً من التدنى والتخلف ، فى مقابل التقدم فى مجتمعات قائدة للنظم المعولمة ، لا تلتزم بمدًّ يَد العون للدول الفقيرة.

٣ ـ عدم التعجل بإصدار حكم نهائى على العولمة خاصة أن إصدار الحكم يضاد منطق العقل فى إصدار أحكام غير قابلة للحوار أو الرد .

---

(١) انظر : د. أحمد أبو زيد ، مقال : الثقافة الوطنية بين العولمة والتعددية الثقافية ، مجلة الهلال ، القاهرة ، عدد أغسطس ١٩٩٨م .

(٥)

العولمة والطريق الثالث

قيل : إن أول من أشار إلى انتهاج الطريق الثالث كان البابا بيوس الثانى عشر فى أواخر القرن التاسع عشر بعد ظهور الماركسية وزعمها بأنها ستحقق العدالة الاجتماعية ، عند ذلك دعا البابا بيوس الثانى عشر إلى نهج طريق ثالث يجمع بين مزايا النظامين الرأسمالى والاشتراكى فى حرية الاقتصاد من جهة ، وتحقيق العدالة الاجتماعية من جهة أخرى ، وهو النظام السائد فى الحكم فى أهم دول أوربا الآن: انجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا ، فرؤساء حكومات هذه الدول تم انتخابهم عن جبهات اليسار المعتدل .

الطريق الثالث لم يبدأ من فراغ ، ففى أثناء فترة حكم (ريجان) فى الولايات المتحدة (مارجريت تاتشر) فى إنجلترا بدأ كاتبان أحدهما أمريكى (جالبرت) والثانى (روى شوبيس) يطالبان الحكومات الأوربية بتبنى نظام أطلقوا عليه : الطريق الثالث الذى يجمع بين مزايا الرأسمالية الحرة فى الاقتصاد والسياسة ، وحسنات الاشتراكية فى المطالبة بتحقيق العدالة الاجتماعية ، فيحقق نظام الطريق الثالث المصلحة لكل من أصحاب الأعمال ، والطبقة المتوسطة والدنيا ، لكن المؤكد أن فكرة التحميس لتطبيقها فى إنجلترا كانت من قبل الرئيس (كلينتون) ففى حملته الانتخابية سنة ١٩٩٢م قامت دعايته الانتخابية على وجوب نهج الطريق الثالث. وفى خطاب له أمام النادى الاقتصادى فى (ديترويت) فى فبراير ١٩٩٨م أعلن أنه وجد الطريق الثالث فقال : « إننا نعمل مع رجال الأعمال لاستخدام التكنولوجيا والبحث والتطوير ، وحوافز السوق لمقابلة أهدافنا القومية ، كما نعمل من أجل نمو تشغيل العمالة والرعاية الاجتماعية . وهى فلسفة الطريق الثالث » .

ولقد خطط (كلينتون) لسياسة الطريق الثالث منذ السبعينيات ، فقد كون حركة جديدة داخل الحزب الديمقراطى (حركة الديمقراطيين الجدد) صاغت برنامجا اقتصاديا وسياسيا جديدا يهدف إلى تغيير فى الأوضاع الاقتصادية

والاجتماعية والصحية للفقراء والمحرومين ، وأعضاء الأقليات المضطهدين فى المجتمع الأمريكى » (١) ، وقد تمت صياغة هذا البرنامج بتعاون تم بين خبراء السياسة . ومنظريها ، والسياسيين المحترفين . إلا أنه لم يخرج عن إطار الرأسمالية الليبرالية .

على أنه قبل الاسترسال فى نهج الطريق الثالث يجب الإشارة إلى أن الرأسمالية فى الغرب لها مرجعية مشتركة ، وأهمها : مفهوم الحرية الفردية . وأن حركة الاقتصاد فى الغرب ، وإن احتفظت بسمات آساسية ، تختلف من حقبة لحقبة ، ومن بلد لبلد ، فبريطانيا مثلا تختلف عن بقية أوربا ، وأوربا تختلف عن الولايات المتحدة ، كما أن الرأسمالية بصفة عامة تسير فى اتجاهين : الأول : محافظ ، والثانى (ليبرالى) حر والاتجاهات المحافظة داخل الرأسمالية هى رأس حربة العولمة تطلق العنان لشعار نهاية التاريخ (فوكوياما) والحرية المطلقة للسوق، وينظر المحافظون للحرية فى إطار الاقتصاد ويجعلونها أداة للسوق ، بحيث تصبح السوق التجسيد المؤسس للحرية ، ويرون الاستغناء عن دور الدولة الرقابى والتنظيمى لحركة السوق ، لضمان حرية السوق ، وغلاتهم من معتنقى الداروينية الاجتماعية يرون أن تدخل الدولة لحماية حقوق الفقراء يؤدى إلى إضعاف المجتمع كله ؛ لأنه يقتل قدرات التنافس بين أفراده ، ويلغى إتاحة فرص النجاح والكفاءة، وبالتالى إضعاف القدرة على التنمية الاقتصادية ، كما يضعف قدرة الأقوياء القادرين على تحقيق التقدم الاجتماعى .

أما اتجاه الليبراليين الاقتصاديين الذين مهدوا السبل إلى الطريق الثالث فيرى تدخل الدولة بدور رقابى تنظيمى لتحقيق العدالة الاجتماعية ، ومساعدة الفقراء بضمان الحد الأدنى الاجتماعى حتى لا تفقد الحرية السياسية مضمونها ، كما يرى تدخل الدولة لتنظيم النشاط الاقتصادى ، ومعالجة الاختلالات الناتجة عن آليات السوق . ويوجه الليبراليون انتقاداتهم للرأسماليين المحافظين الذين يربطون رؤيتهم للحرية بالحتمية الاقتصادية، التى لا تختلف عن رؤية الماركسيين للحتمية التاريخية (٢) .

---

(١) السيد يس : الطريق الثالث ، ص ٧٨ ، ٧٩

(٢) انظر مقال : د. وحيد عبد المجيد : الطريق الثالث يؤسس مبدأ الحرية العادلة ، الأهرام ملحق الجمعة ٢٨/ ٤ / ٢٠٠٠م .

إن فلسفة الطريق الثالث كانت أكثر تجسيدا فى أوربا خاصة إنجلترا منذ بداية حكم (تونى بلير) حيث كان الطريق مهيئًا لانتقال سياسة الطريق الثالث إلى إنجلترا ، لإيجاد نوع من التوازن يتلاءم مع أوضاع إنجلترا الاقتصادية ، والتقارب بين سياسة حزب المحافظين الذى يسعى لإرضاء كبار أصحاب رؤوس الأموال ، وسياسة حزب العمال الذى يعلن حمايته للطبقة المتوسطة والدنيا فى إنجلترا . وكان الظرف ملائما عندما تقدم (تونى بلير) لزعامة حزب العمل فى انتخابات سنة ١٩٩٧م فقد ضاقت إنجلترا بسياسة حزب المحافظين التى غلبت مصالح أصحاب رأس المال ، على الاحتياجات الاجتماعية لأصحاب الدخول الصغيرة .

لم يكن الأمر مقصورًا على إنجلترا فقد سرت ألمانيا (شرودر) ، وفرنسا (جوسبان) وإيطاليا (داليما) فى الاتجاه نفسه ، ولكن سياسة الطريق الثالث تعد ـ مع ذلك ـ حركة سياسية اقتصادية نشطة أكثر منها أيديولوجية فكرية أو اجتماعية أى حركة تصحيحية فى مسيرة الرأسمالية .

لكن ماذا فعل (بلير) باعتباره رائد مثال سياسة الطريق الثالث فى الغرب ؟

١ ـ قدم للعمال رأس المال الاجتماعى .

٢ ـ والرأسمالية التشاركية ، أى مشاركة العمال فى الملكية والإدارة .

٣ ـ ولأصحاب رأس المال ـ تحرير الاقتصاد ، واللاعودة للتأميم .

٤ ـ لا ضرائب كبيرة ، وتعزيز القدرة التنافسية للاقتصاد الإنجليزى .

وقرَّب (بلير) بذلك بين مصالح أصحاب العمل ورأس المال من جهة ، ومصالح العمال من جهة أخرى . ولقد وجد (بلير) رئيس حزب العمال ذى الاتجاه اليسارى ظهور طبقة جديدة من العمال ، تنتمى إلى الطبقة الوسطى أكثر من الطبقة العاملة ، وكان لزاما عليه أن يغير لهجة الخطاب بطرح فكرة الرأسمالية التشاركية ، كما كان عليه أن يطمئن رجال الأعمال الكبار ، فأضفى مضمونا اجتماعيا جديدا .

وفى ألمانيا حدث ما هو أكثر جرأة ، فبعد نجاح الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى الانتخابات التشريعية بعد ١٦ سنة من حكم اليمين بزعامة (كول) حاول

رئيس الحزب (جيرهارد شرودر) أن يقترب من اليمين ، لكن أمين الحزب (أوسكار لافونتين) وهو يسارى تقليدى ، كاد أن يُفشل خطط (شرودر) وكاد يحدث الصدام بين أفكاره ، وبين طموحات أقطاب الصناعة ، وأصحاب الشركات الألمانية الكبرى ، لكن (شرودر) سار فى الطريق الثالث إلى ما أسماه بـ (الوسط الجديد) .

كانت أفكار (لافونتين) وإصراره على تنفيذها من خلال مشروع الإصلاح الاقتصادى للحزب بفرض ضرائب باهظة جديدة على الصناعة والتجارة ، قد استثارت غضب أقطاب الصناعة الألمانية ، وأصحاب رؤوس الأموال والشركات الكبرى لدرجة أنهم هددوا بنقل مقار أعمالهم خارج ألمانيا إلى بلاد ذات ضرائب منخفضة ، وأيدى عاملة رخيصة ، الأمر الذى يؤدى بدوره إلى إضعاف اقتصاد ألمانيا ، وعدم توفير فرص عمل جديدة وإيجاد بطالة . ولكن بمرونة فائقة استطاع المستشار (شرودر) إعادة هيكلة الاقتصاد، وتخفيض الضرائب ، وتطمين الشركات الكبرى بضمان تعزيز قدرتها على المنافسة التجارية فى السوق العالمية ، وزيادة مرونة سوق العمل ، وزيادة الصادرات التى تعتمد عليها الشركات الألمانية بالدرجة الأولى .

ومن أجل تحقيق مسيرة الطريق الثالث فى ألمانيا ، استقال (لافونتين) دونما إثارة لأية ضجة سياسية فى ١١/ ٣/ ١٩٩٩م فى الوقت الذى كان الاقتصاد الألمانى العظيم يشارك فى لعبة العولمة ، فى الصدارة منها إذ التفت الشركات الألمانية حول شركات عالمية كبرى وقامت بشرائها بما قيمته ٥٢ مليار دولار (١) . مما يؤكد أن الطريق الثالث ليس طريقا مضادا للعولمة ، بقدر ما يمثل التقارب بين تيارات الاقتصاد المتباينة لتتواءم مع حركة العولمة .

بسياسة الطريق الثالث استطاع كل من: (بلير) فى إنجلترا و (شرودر) فى ألمانيا التباعد عن السياسات اليسارية لحزبيهما والتعايش مع العولمة ، والتغاضى عن أدبيات الاشتراكية ، وإضفاء مضمون اجتماعى جديد لفلسفة الطريق الثالث ، كطريق يجمع بين حرية الحركة البناءة للاقتصاد، والمحافظة على إطار للعدل

(١) صحيفة الأهرام فى ٢٢ / ٣ / ١٩٩٩ م .

الاجتماعى يحيط بالمجتمع فى ظل تعايش بينهما .

ويبدو أن أوربا (أعضاء الاتحاد الأوربى) قد ارتضت السير فى الطريق الثالث، فمن بين الدول الخمسة عشر الأعضاء فى الاتحاد توجد ١٣ منها تحكمها حكومات تميل إلى الاشتراكية ، وهذا ما يثير جدلا ، فكيف توفق حكومات اشتراكية بين سياستها التقليدية والعولمة؟ ويرد بعض المعلقين على هذا السؤال فتبرز حقيقتان :

الحقيقة الأولى : أن الطريق الثالث نتاج للتطورات الرأسمالية والتحولات الاجتماعية فى الغرب ، بعد أن عجز اليسار التقليدى عن استيعابها ، خاصة بعد ظهور الطبقة الوسطى الجديدة فى مواجهة العولمة .

أما الحقيقة الثانية : أن الطريق الثالث وسيلة ذرائعية لمواجهة العولمة ، به تكيف الرأسمالية نفسها [1] . أى أن الطريق الثالث تجميل اجتماعى برجماتى للعولمة لكى تتقبلها الشعوب .

ولكن هل للدولة أن تتدخل ، وإذا كان لها حق التدخل ففى أى المجالات على التحديد ؟ هناك أنواع من الخدمات لا يمكن خصخصتها مثل: التربية والتعليم والصحة ، والسياسة الخارجية والدفاع ، وفى هذه الميادين يمكن أن تحتفظ الحكومة بحقها فى الإشراف العام وبالملكية العامة وإشراف الدولة على التمويل . ولكن فى مجالات كالنقل العام يترك لشركات خاصة متحررة اقتصاديا ، تملك قراراتها الاستثمارية أن تسيرها ، بحيث تخضع فى الوقت نفسه للقرارات التنظيمية للدولة ، وفى هذه الحالة يمكن أن تقدم خدمات أكثر فعالية ، وأتم جودة من تلك التى يقدمها القطاع العام . ولقد اقترح أحد الباحثين فى إنجلترا خصخصة خطوط مترو لندن ـ كل خط على حدة ، على أن يُحتفظ بخط واحد على الأقل تحت إشراف الحكومة حتى تستطيع أن تتعرف مباشرة على اقتصادات التشغيل ، وعلى الفعاليات المتعلقة بالجوانب العملية . . . على أن تركز الدولة فى تدخلها على بث الحركة (الديناميكية) فى الاقتصاد فى سياق من العدالة الاجتماعية للمواطنين من الطبقة الوسطى والطبقة الدنيا ورعايتهم ، فى ضوء احترام كل الأطراف للمسؤولية المدنية » [2] .

---

(١) صحيفة الأهرام فى ٢٢ / ٣ / ١٩٩٩ م .

(٢) السيد يس : العولمة والطريق الثالث ـ النهج ، شتاء ١٩٩٩م ، ص ٧٨ .

وينشد الطريق الثالث ـ كما يعبر أصحابه ـ إعلاء الهدف الديمقراطى بابتكار وسائل جديدة فى الحكم ، وبصياغة جديدة للعلاقات المدنية بين الدولة وأسواق المال والصناعة والتجارة ورعاية متميزة للمواطنين ، فكأن سياسة الطريق الثالث تزعم إعادة تكوين المجتمع المدنى فى نسق يعمق الديمقراطية ، بإبداع جديد لديمقراطية تشاركية يكون دور الجماهير بارزا فيها باختيار ممثليه فى اللجان التشريعية، التى تحقق أحلامهم بتوسيع دائرة التمثيل النيابى وتوسيع دائرة التشاور بين المواطنين والمنظمات الاجتماعية من جهة ، ونوابهم الذين يمنحون الحق فى اقتراحات مشاريع القوانين الدستورية .

هذا ما تنطق به كتابات الطريق الثالث، ولكن لا تزال الأساليب الديمقراطية التقليدية سائدة ، أما الديمقراطية التى تتخيلها سياسات الطريق الثالث فلم تظهر فى الواقع ؛ لأن تطبيقها بعيد المنال فى إطار مجتمعات شديدة التعقيد، متراكمة التراكيب، ولهذا يمكن القول: إن الطريق الثالث ، لا يعدو أن يكون تجريبا سياسيا فى ظل لعبة العولمة .

الفصل الثانى

من ثقافة العولمة

من ثقافة العولمة

قد يقصد بثقافة العولمة : الإطار المعرفى الذى يجعل النظام الرأسمالى مقبولا من سائر الشعوب ، ولا يكون فى هذه الحالة فى صورة ظاهرة تتمثل فى إخضاع عقل هذه الشعوب لتقبل النظام الرأسمالى فحسب ، بل إعلانا للتكييف من قبل مفكرين استراتيجيين مخططين لوضع دعامات فكر بعينه ييسر تقبل فكرة الانخراط فى حركة الرأسمال وسيرورته كما يحلو للغرب أن يسيره ، وقبول الخصخصة Privatization والتجاوب مع آليات سوق رأس المال ، وكل شروط منظمة التجارة العالمية Wto وصندوق النقد الدولى، والبنك الدولى وسائر هذه المنظمات. ثم لا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، فلا بد من قبول التغريب Westernization وهو ما درجت الاستراتيجية الأمريكية على تسميته : السلام الأمريكى Pax American وإضافة إلى ذلك فيما يخص العالم العربى قبول السلام العبرى Pax Hebrical باعتباره قرين أصغر للسلام الأمريكى، وتبريرهم لكل هذه الفروض ، ضرورة اللحاق بالتقدم ، وتحقيق السلام العالمى ، وحقوق الإنسان . لم يعد الإنسان فى ظل هذه المفاهيم مسؤولا عن صنع تاريخه ، بل مضطرًا للتكيف مع الطوابع الاجتماعية والثقافية ، والإقرار بالواقع القائم على مفهوم الحرية الفردية كما تصورها الرأسمالية الغربية أو تشكلها .

الكلام فى ثقافة العولمة متشعب ، ومن الصعب حصره أو الإلمام به ، ولكن يمكن القول : إن الإطار الفكرى أو الثقافى لأفكار دعم الرأسمالية يعمل بدأب على إقناع الشعوب بموافقته للعقل ؛ لأنه يحقق رغبات الأفراد بحرية مطلقة ، وإذا اعتبرنا أن هذه الأفكار تقف على قاعدة أساسية تمثل نظرية خاصة بالمجتمع الرأسمالى ،فإن هذه النظرية « تزعم أن الرأسمالية مشروعية أزلية ، بحيث صارت نظاما يمثل (نهاية التاريخ) [1] . كما أطلق عليه (فرانسيس فوكوياما) ، لا يقتصر

---

(١) سمير أمين : بحث مناخ العصر رؤية نقدية ، ص ٢١ ضمن كتاب العولمة والتحولات المجتمعية فى الوطن العربى ، نشر مركز البحوث ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ١٩٩٩ م .

على قاعدته الاقتصادية ، بل ينحو إلى إيجاد نظرية متكاملة ، وإن كان الاقتصاد قاعدتها ، فإن أركانها تقوم على تحقيق رغبات أفراد المجتمع، كما تفرض أنماطا اجتماعية وسياسية وثقافية، وأنماطًا معيشية تمتزج بالقاعدة وتتفاعل معها لتصنع نمطا رأسماليا معولمًا ، يخبئ فى بطنه رغبة كامنة تظهر وقت الحاجة ، عندما يشعر أصحاب النظرية الرأسمالية بخطر يتهددها،وعند ذلك تكشر الرأسمالية عن أنيابها، وتكشف مخالبها كما حدث فى حرب الخليج ، ومحاصرة شعوب العالم الثالث واتخاذ قرارات تعسفية إزاء رفع دول الخليج لأسعار البترول وفى فرض الخطر النووى على الدول الإسلامية وتهديدها بشتى العقوبات . وهكذا فإن الرأسمالية تفرض نفسها على الشعوب بما يتلاءم مع مصالحها ، ويقف سياسيون محترفون ، ومثقفون استراتيجيون وراء فرضها على العالم وفى مقدمة هؤلاء (فرانسيس فوكوياما) Francis Fukuyama كتاب نهاية التاريخ The End of history and The last Man و(صمويل هنتنجتون) بكتاب: صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى The clash of Civilizations and the Remaking of World Order وبول كيندى بنظرية الهيمنة والدولة المحورية Pivotal State وهى أفكار رئيسية تعضد نظرية العولمة الأمريكية ، وربما تعضدها أعمال أخرى لمثقفين استراتيجيين من النوع نفسه ، إلا أن هذه الأعمال تقوم بدور المحاور الأساسية ، فإذا كان ثمة أفكار أخرى فهى تدور فى فلكها .

إن ثقافة العولمة ثقافة أمريكية بالدرجة الأولى . والثقافة الأمريكية ثقافة برجماتية أداتية عملياتية ، سواء فى إطارها العرفى العام أو فى جزئياتها داخل الإطار المعرفى العام، ترمى إلى تفعيل البعد النفسى للفرد فيقبل كل متواضعاتها، وإن أثر ذلك سلبا فى البنية الاجتماعية الموضوعية .

إن هذه الثقافة تخدم ثقافة السوق الاستهلاكية طبقا للصورة المهيأة للعالم من المنظور البرجماتى، ومن ثم فهى تهيئ الفرد نفسيا وسلوكيا ليكون خاضعا لآلياتها، مستجيبا لمتطلباتها ، دونما تفكير فى الاعتراض أو التعديل .

ومخططو هذه الثقافة فى مجالاتها التسويقية لا يعنيهم احترام البعد الأخلاقى فى الإنسان، بقدر ما يهمهم نجاح خططهم فى تحويل كل المجتمعات إلى مجتمعات مستعدة لقبول هذه الثقافة وتسويقها حتى ولو سحقتهم آليات السوق الجهنمية ،

فهم يكيفون الفرد [مفرد أفراد] لآلياتهم المعرفية فيعيش فى حلم الخلاص الفردى، دونما إحساس بما يمكن أن يتعرض له الأفراد [جمع فرد] من سحق السوق المعولمة الوحشية لهم ، فهذه الثقافة الأداتية تجعلهم يعيشون فى حلم الخلاص الفردى الذى يحقق للإنسان ذاتيته نفسيا وسلوكيا ، ويعيّشه فى وهم الصعود الثقافى باعتناق ثقافة الديمقراطية الحرة بمفاهيمها التى تُقصى التراث الدينى والثقافى للفرد إقصاءً يطمسه فى مشاعر الوهم الذاتى كما تجعله فى الوقت نفسه يعيش فى وهم الصعود الاجتماعى الاستهلاكى ، وينتهى به الحال إلى تمزيق العلاقات الإنسانية التراحمية ، لتحل محلها العلاقات التعاقدية النفعية .

ولا يجب أن ننسى مهمة الفلسفة الداروينية وأثرها فى الفلسفة البرجماتية الأداتية، فهى تقوم بدور فعال فى إحياء هذه الأفكار وتطويرها بحسب البيئات المختلفة لضمان استمرارها ، وفى الوقت نفسه تعمل بدأب لهدم الأفكار التى تعمد إلى فضح الأفكار الرأسمالية أو تعريتها .

حتى الفنون الجميلة تخضع للمنطق نفسه فى ثقافة الديمقراطية الليبرالية . فإن الأدب والفن يجب أن يكرسا رؤيتهما للعالم بتطويع الإنسان نفسيا لمواكبة موكب الخلاص النفسى المتخيل فى ثقافة الديمقراطية المعولمة يقول (فوكوياما) بصراحة: «إن تقاليدنا النفعية فى الولايات المتحدة الأمريكية تجعل من الصعب حتى على الفنون الجميلة أن تصبح شكلية محضة ؛ ولهذا يجب أن يسعى الفنانون إلى إقناع أنفسهم بأن عليهم مسؤولية تجاه المجتمع ، بالإضافة إلى التزامهم بالقيم الجمالية » (١) .

(١) فرانسيس فوكوياما : نهاية التاريخ وخاتم البشر ص ٢٧٩ ، ترجمة د . حسين أحمد أمين ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٣م .

(١)

فرانسيس فوكوياما ونهاية التاريخ

لعل فوكوياما أراد أن يوجه أنظار مواطنى العالم إلى ما تصوره حقيقة واقعية عالم ما بعد الحداثة الذى تسيطر عليه (الفزيوكيميا) .

فرانسيس فوكوياما ليس صاحب نبوءة بقدر ما هو صاحب بصيرة برجماتية لما انتهى إليه فكر العالم وثقافته فى الغرب ، خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية . التى تقود طبقة جديدة من صانعى العلم والثقافة الفاعلة الذين يريدون تخليق عالم بكل محتوياته من البشر ، ومن المخلوقات الأخرى الحيوانية والصناعية بحسب قدراتهم العلمية والثقافية والاقتصادية . صحيح إنهم يبالغون فى سلوكهم الأنانى الممتلئ بالغرور ، إلا أنهم لا يقبلون أن تقف قوة ما فى العالم دون توسعهم الاقتصادى والثقافى .

وفى مقدمة مخططهم :حجب بصر الناس وعقولهم عن الماضى الدينى، والثقافى؛ لأنه لم يعد ملائما ـ بزعمهم ـ أن يتمسك الناس بضوابط حياتهم القديمة؛ لأن الضوابط القديمة مثل : الدين والأخلاق وثقافة الماضى ، وتقاليده الاجتماعية لم تعد متلائمة لفكرة (نهاية التاريخ وخاتم البشر) .

إن قواعد التفكير الحديثة فى الغرب تزلزل ثوابته القديمة .

إن ثقافة : (الفيمتوثانية) ، والاستنساخ ، وحرب الجينات تنذر بنهاية الأسرة كبنيان راسخ ، مع نهاية التاريخ .

ربما يكون للعامل النفسى لدى الشعوب ، قوة تأثير فى ذلك ، فعالم بلا أرومة ، يعيش فوق أرض لم يكن يملكها منذ بضعة قرون لا يعنيه أن يشارك الشعوب العريقة فى إنشاد نشيد الأعراق وعظمة الأصول فصاح صيحة مدوية : يجب أن يتوقف التاريخ ، وأن يصمت منشدو نشيد الأعراق ؛ لكى يبدأ تاريخ جديد يمثل مُثلا عليا جديدة لا قيمة فيها ولا ثمن للدماء القديمة ، ولا للأعراق

التى كانت تجرى فيها من آلاف السنين ، فلم يعد هناك وقت للتغنى بالدماء النقية والأصول العريقة والوراثة ؛ ليبدأ العالم إنشاد أغنية جديدة يتغنى فيها بعظمة الكائن الجديد ، مهما كانت خطورته على مستقبل الإنسانية ، ومهما كانت الرؤى والتساؤلات .

إن (فرانسيس فوكوياما) واحد من أكبر الداعين للرؤى الجديدة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ورؤاه لا تقف عند نهاية الأيديولوجيات القديمة بقدر ما تقصد فتح أبواب المستقبل لعصر الثقافة الحيوية التى تغير كل شىء فى الإنسان بدءًا من صفاته الحيوية وما يترتب عليها من تحولات فى طريقة التفكير والسلوك . ومن هنا يعرف الناس كل ما يدور فى فكر (فوكوياما) الذى اشتهر بنظرية (نهاية التاريخ وخاتم البشر) مع أن له أفكارا أخرى أشد خطورة،فى إرادة التحول فى الجنس البشرى [الذكورى والأنوثى].

لقد عزا (فوكوياما) نهاية التاريخ فى السياسة والاقتصاد إلى سقوط جميع النظريات باستثناء الرأسمالية الفردية المتجهة نحو العولمة ، فهو يضع نهاية أخرى للتاريخ أشد قتامة لوضعية الجنس البشرى ذاته داخل مفهوم الغرب للحرية الفردية.

(فرانسيس فوكوياما) أمريكى من أصل يابانى ، وأحد منظرى العولمة الأقوياء مهد لها بكتابه (نهاية التاريخ) ١٩٨٩م فقد رأى حتمية انهيار الشيوعية بالاتحاد السوفييتى ، أكبر القوى المناهضة للولايات المتحدة الأمريكية فى العالم منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ م حتى نهاية العقد التاسع من القرن العشرين ، وبالتالى انهيار النظام الشيوعى فى العالم بدءًا من شرق أوربا ، وهذا الانهيار بمثابة انتصار حاسم تحققه الرأسمالية الغربية ،وهذا بنظر (فوكوياما) لا يعنى مجرد انتصار قوة على قوة مضادة ، بقدر ما هو انتصار لنظام حسن على نظام سيئ ، فضلا عن أن هذا النظام الحسن (الديمقراطية الليبرالية) يعمل من أجل إنعاش البشرية ـ فى تصوره ـ وإنهاء الحرب الباردة بين القوتين الأعظم فى العالم ، ويدلل (فوكوياما) على سمو النظام الغربى بنمطه العام الفائق فى مجال التقنيات ، وجميع المؤسسات الاقتصادية والمالية والتجارية والثقافية والاستهلاكية . أى جميع

المؤسسات التى تحقق الرفاهية فى ظل النظام الديمقراطى على النمط الأمريكى ، الذى أثبت تفوقا على كل النظم والمجتمعات ـ برأى (فوكوياما) . الذى رأى أن التحديث ، وسيادة الديمقراطية كنظام سياسى ، يحقق النزعة الفردية الإبداعية والتجانس فى القيم الأخلاقية .

الديمقراطية فى تصور (فوكوياما) ليست مجرد نظرية لنظام حكم فى بلد من بلدان العالم ، بل نظام ترغب الولايات المتحدة فى تطبيقه فى العالم ؛ لأن الأمر فى تصور الفكر الشعبى الأمريكى قد تجاوز التصورات الفكرية إلى ضرورة الإجماع فى جميع أنحاء العالم حول شرعية الديمقراطية الرأسمالية ، وهو ما عبر عنه (فوكوياما) فى قوله: « إن الديمقراطية الليبرالية تشكل نقطة النهاية فى التطور الأيديولوجى للإنسانية ، والصورة النهائية لنظام الحكم البشرى ، وبالتالى فهى تمثل (نهاية التاريخ) » (١) .

والتاريخ فى مفهوم (فوكوياما) ليس فى وقوع الأحداث وتتابعها عبر القرون، ولكنه عملية متلاحمة ومتطورة ومتفاعلة من تجارب الشعوب فى كل العصور كما تصوره (توماس هوبز) وكما تبلور عند (كارل ماركس) و(نتشه) وغيرهم من المفكرين والفلاسفة الأوربيين فى وصفهم لمختلف أشكال الحكومات :الدينية والإقطاعية والملكية وانتهاءً بالديمقراطية ، والرأسمالية القائمة على التكنولوجيا . التى انتهى عندها التاريخ ، عند النقطة التى يجب أن يتجه إليها البشر لسببين :

الأول : يتصل بالاقتصاد .

والثانى : يتصل بما يسمى الصراع من أجل نيل التقدير والاحترام (٢) .

إن هذه الرؤية منعكسة عن الرؤية الواقعية فى الفلسفة الأمريكية ورؤيتها للعالم ، لأن النظام السياسى الأمريكى ، وكذا التقدم الصناعى ينتج عن إشباع الرغبات الشخصية فى الحرية ، وضمان حقوق الملكية ، وتحقيق حلم الرفاهية وإشباع القوة الشهوانية،والاعتراف بحق الفرد فى ممارسة النشاط الاقتصادى الحر، على أساس من الملكية الخاصة،وقوانين السوق الرأسمالية أى اقتصاد السوق الحر .

---

(١) فرانسيس فوكوياما : نهاية التاريخ وخاتم البشر ص ٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٩ .

ويؤكد (فوكوياما) على أن الليبرالية والديمقراطية، وإن كانتا متلازمتين فإنهما مفهومان مستقلان ويمكن إجمال حقوق الفرد في الحرية (الليبرالية) فى ثلاثة حقوق رئيسة :

١ ـ الحقوق المدنية ، بمعنى تحرير المواطن وممتلكاته من سيطرة الحكومة .

٢ ـ حق المواطن فى الاعتقاد ، وممارسة العبادة أو تركها .

٣ ـ تحرير المواطن من سيطرة الحكومة عليه ،فى الأمور التى لا تؤثر فى المجتمع .

أما الديمقراطية : فتحقق للمواطن أن يكون له نصيب فى السلطة السياسية [وهو حق ليبرالى أيضا] يجعل (الليبرالية) وثيقة الصلة (بالديمقراطية) .

من هنا يرى (فوكوياما) أن تفوق النظام المؤسس على الطريقة (الديمقراطية) الأمريكية، ينهى تاريخ الأيديولوجيات الأخرى، بل يحدد (نهاية التاريخ) ويضعه أمام هيمنة النظام الديمقراطى الرأسمالى بنمطه الأمريكى على أساس أنه أحق بالهيمنة على العالم ، ويؤكد بذلك أن العولمة بحسب (فوكوياما) ثورة رأسمالية عالمية ، وإن كانت ذات جذور أمريكية ، ستحقق للمجتمع البشرى ثورة فى التقدم العلمى والرفاهية الاجتماعية ، وخاصة أن الولايات المتحدة قائدة هذا النظام قد ملكت ناصية العلم ، وطرق الاتصال التى قلّصت المسافات بين الدول ، مما جعل العولمة قادرة على تجسيد وحدة العالم جغرافيا وثقافيا واقتصاديا (١) .

إن فكر (فوكوياما) بمثابة خطوة متقدمة فى مسيرة الولايات المتحدة فى القرن العشرين ، القرن الذى تحدد فى عقديه الأخيرين مقصود العولمة ، خاصة منذ أن نادى الرئيس بوش فى يناير سنة ١٩٩١م بالنظام العالمى الجديد تقوده الولايات المتحدة الأمريكية، ويمكنها من امتلاك إمكانات معرفية ونظما فائقة للتنمية ، ونظم تجارة تعتمد على قواعد ونظم اتصال إليكترونية .

إن النظام العالمى الجديد ـ الذى نادى به الرئيس الأمريكى (جورج بوش) ، وأكمل مسيرته الرئيس (بيل كلينتون) والرئيس (جورج بوش) الابن ـ هدف

---

(١) انظر : فوكوياما : نهاية التاريخ ص ٥٤ ، ٥٥ .

أمريكى للسيطرة على العالم ، تمثل العولمة ميادينه التطبيقية ، ويساند الولايات المتحدة ويعضدها فيه مؤسسات كونية عظمى مثل : الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن ، والبنك الدولى ، ومنظمة التجارة الدولية ، وصندوق النقد الدولى ، وفوق كل هذه المنظمات حلف الناتو (Nato) .

وهذا النظام العالمى الجديد يعيد للأذهان صورة النظام العالمى القديم الذى كان يهيمن على العالم فى زمن الإمبراطورية الرومانية فى التاريخ القديم، ويكاد يماثله، فكما كان النظام فى الإمبراطورية الرومانية يقوم على القانون الرومانى وحده ، فإن النظام الجديد يقوم على مفاهيم الديمقراطية الليبرالية ، وحقوق الإنسان فى المفهوم الغربى، دون الالتفات لمضامين هذه المفاهيم نفسها فى الثقافات الأخرى [مثل الثقافة الإسلامية] .

ويقوم النظام العالمى الجديد على وحدات ونظم مثل :

١ ـ الوحدة الوطنية ، لكل دولة على حدة .

٢ ـ التكتلات الإقليمية مثل : الوحدة الأوربية ، ووحدة دول الآسيان .

٣ ـ العالم وحركة انتقال الأموال ، والاستثمارات المستقلة .

٤ ـ الشركات الكونية متعدية الجنسيات ، ومتعدية الحدود .

وفى الوقت الذى تخضع فيه الوحدة الأولى والوحدة الثانية ، للمساءلة من الدولة المحلية، أو الاتحاد، فإن الثالثة والرابعة فوق أية مساءلة من المجتمع المحلى، أو الدولى .

ومن هنا تفرز العولمة نظامًا عالميا غير عادل ، وغير متوازن ، يدفع المجتمعات لرفض متطلعات العولمة ، ونتائجها ، والتمسك بشكل المجتمع ما قبل الصناعى الحداثى .

لم يكن (فوكوياما) أول مفكر غربى يردد مصطلح (نهاية التاريخ) فلقد ترددت الفكرة فى الغرب فى القرن الثامن عشر عندما اقترح (كانط) فكرة (نهاية التاريخ سنة ١٧٨٤م) فى مقال بعنوان : محاولة كتابة تاريخ عالمى من وجهة نظر عالمية ، وضع فيها كل الأسس التى قامت عليها جميع المحاولات لكتابة تاريخ

عالمى . وتقوم الفكرة على أساس حركة منتظمة ومتطورة فى تاريخ العالم على أساس تراكمى ، أى أن كل جيل يستطيع أن يضيف إلى البناء الذى أنجزته الأجيال السابقة إضافات جديدة ، ولكن (كانط) اشترط أن يكون لهذا البناء نهاية ، أى يصل البناء إلى نقطة نهاية ، عندما تتحقق الحرية الإنسانية ، ويسود المجتمع حكم القانون والدستور الدينى الذى يحقق العدالة بصورة يمكن أن تعمم على العالم .

وقدَّم (هيجل) الفكرة نفسها فرأى أن التاريخ سار فى مسار دائم من الصراعات فى مراحله السياسية والثقافية المختلفة ، وكان الإنسان يتوصل فى كل مرحلة إلى التخلص من بعض هذه التناقضات فيرقى بمرحلته عن المرحلة التى سبقتها ، وبذلك كانت كل مرحلة تاريخية أرقى من سابقتها ؛ لأنها أقل منها متناقضات (جدلية هيجل). ورأى (هيجل) فى جدليته هذه أن لمسار التاريخ رغم وجود المتناقضات نهاية تحدث عندما يتحقق الوعى بالحرية فى صورة مؤسسات سياسية ، واجتماعية وثقافية فى ظل دولة ديمقراطية .

وجاء (كارل ماركس) فأخذ جدلية (هيجل) ولـم يلتزم بمضمونها ، ورأى مثـل (هيجل) أن للتاريخ نهاية ولكنها تأتى عندما ينتصر الشغيلة فى العالم ، فتتحقق مدينتهم الفاضلة ، وفردوسهم الأرضى .

وفى القرن العشرين نهض فريق من علماء الاجتماع معظمهم من الأمريكيين لكتابة آخر تاريخ عالمى (بعد الحرب العالمية الثانية) تحت مسمى نظرية التحديث ، ذهبوا إلى أن التطور الصناعى نمط متناسق النمو ، يؤدى فى النهاية إلى ظهور بنى اجتماعية وسياسية متشابهة فى مختلف الدول والحضارات ، ورأت هذه النظرية أن التاريخ غائى، وأن الديمقراطية الليبرالية فى الدول الصناعية المتقدمة هى غايته النهائية (١) .

ومع أن هذه النظرية تتسم بالعنصرية ، فهم يرون أن انهيار كل الأنظمة السياسية مثل : الشمولية والفاشية والنازية حتمى ، وبقاء الديمقراطية حتمى ، بل دليل على رقيها ومنطقيتها ، ومن ثم يجب على التاريخ العالمى أن يقف عندها .

---

(١) فوكوياما : نهاية التاريخ ص ٧٥ .

وهذا الرأى الآخير فصَّله (فوكوياما) فى كتابه (نهاية التاريخ) ورأى أن نهضة المجتمعات الديقراطية لن تتحقق الإ بالتصنيع المتقدم ؛ لأن التقدم الصناعى أعظم موصل للديمقراطية الليبرالية ، كما أن الديمقراطية وحدها هى القادرة على التوفيق بين المصالح الاقتصادية المعقدة وطبيعة الاقتصاد الحديث القائم على التصنع الحديث الذى يقوم على أيدى عاملين مثقفين من الطبقة الوسطى ، تلك الطبقة القادرة على المشاركة فى البناء السياسى الديمقراطى ، والمشاركة فى الحياة السياسية القائمة على المساواة فى الحقوق السياسية ، فضلا عن أن التصنيع يساعد على ارتفاع مستوى العاملين من هذه الطبقة اجتماعيا ، بارتفاع أجورهم بسبب ارتقاء أدائهم فى المصانع ، الأمر الذى يحقق لهم مشاركة فعلية فى الحياة السياسية على قدم المساواة مع الطبقة التى تملك أعلى الدخول فى المجتمع نفسه .

إن (فوكوياما) يدلل على أن التصنيع المتقدم عامل فاعل فى تقدم البحث العلمى ، بل لا يتوقف التقدم على إنجازات البحث العلمى الإيجابية ، بل يساعد على تقدم مجتمع ونظام سياسى مفتوحين للتحاور الحر ، والمشاركة الحرة ؛ ذلك لأن الأسلوب الديمقراطى الليبرالى الرأسمالى القائم على التصنيع المتقدم ، يمثل أنجح الطرق وأقصرها للوصول إلى نهاية التاريخ .

وهذا النظام الذى سيفرض نفسه على أسواق العالم الاقتصادية والتجارية والثقافية والسياسية ، قادر بطريقة (داروينية) فى تصور (فوكوياما) على إفناء النظم الأخرى فهو يقول : « علينا أن نقبل حكم السوق على تاريخ العالم ، فالمجتمعات يفند كل منها الآخر فى هذا الحوار حتى ينتصر واحد منها على الجميع فيبقى ويفنون. فإذا وصل نظام إلى الديمقراطية الليبرالية ؛ لأنها الأصلح والأفضل والغاية النهائية ، حكمنا بنهاية التاريخ ؛ لأن العالم الديمقراطى الليبرالى الحديث خال من التناقضات » (١) .

العالم الإسلامى ونهاية التاريخ فى عقل (فوكوياما) :

يرى (فوكوياما) أن ثمة اتفاقا عاما بين كل شعوب العالم على قبول الديمقراطية الليبرالية على أساس أنها أكثر صور الحكم عقلانية ، إلا فى العالم

---

(١) فوكوياما : نهاية التاريخ ص ١٣٠ ، ١٣٢ .

الإسلامى [1] .

فالإسلام بزعم (فوكوياما) يعد أكبر عقبة أمام الديمقراطية الليبرالية فى أن تعم العالم ، أو تحكم العالم ؛ لأن فى المسلمين نزعة عرقية ووطنية مبالغا فيها ، كما أن الدين الإسلامى - بزعم (فوكوياما) - ضد التسامح والمساواة ، ولهذا يرى (فوكوياما) أن تركيا هى الدولة الوحيدة فى العالم الإسلامى المعاصر التى قبلت الديمقراطية الليبرالية ؛ لأنها طرحت التراث الإسلامى ، واختارت أن تقيم مجتمعا علمانيا مع بداية القرن العشرين » [2] . فى الوقت نفسه غرقت دول إسلامية أخرى فى فكر قومى علمانى مستورد من أوربا (مصر - عبد الناصر) الذى تحطم مشروعه العلمانى عقب هزيمة سنة ١٩٦٧م . وبعث كل من سوريا والعراق .

لكن (فوكوياما) لا يتجاهل البرجماتية الأمريكية وهو يتحدث عن نهاية التاريخ فى أثناء حديثه عن الحرب ، فهو يراها فى غاية الأهمية ، بل « العملة الحقيقية فى مجال العلاقات الدولية » وهذه القاعدة الواقعية ، تحتم اختيار الأصدقاء والأعداء بصفة أساسية فى ضوء مدى قوتهم ، لا فى ضوء الأيديولوجيا » [3] . وهذا الإقرار الأخير من (فوكوياما) الذى لا يخفى تطلعات الولايات المتحدة البرجماتية (الواقعية النفعية) يدلل على مدى احتواء الديمقراطية الليبرالية على صور الشر ، وأنها رغم مزاعمها لن تتوانى فى فرض نظامها بالقوة إذا حانت الفرصة لذلك ، يؤكد ذلك قوله : « سيتكون للديمقراطية مصلحة فى حماية نفسها من الأخطار الخارجية ، وفى نشر قضية الديمقراطية فى الأقطار التى لا توجد فيها نظم ديمقراطية ، وستطبق الوسائل الواقعية فى تعاملها مع الدول غير الديمقراطية ، وسيظل استخدام القوة الحكم النهائى فى العلاقات بينها » [4] .

ويرى (فوكوياما) فى آخر كتاب (نهاية التاريخ) أنه عندما تعمم الديمقراطية الليبرالية بشكلها الأمريكى سيعم السلام ، ولعله السلام الأمريكى بالذات (Pax American) فى تصور (فوكوياما) . وهذا يعنى نهاية الحروب ، فمادام الناس اتفقوا على غاية الديمقراطية الليبرالية - بزعم (فوكوياما) - تتحقق نهاية التاريخ ،

---

(١) فوكوياما : نهاية التاريخ ص ١٨٩ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٠ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

حيث يعم الوفاق ويشبع الناس ، بفضل النشاط الاقتصادى الرأسمالى الحر ، وتكون « حياة خاتم البشر ، حياة الأمن والوفرة الماديّين » (١) .

أما فى العالم الإسلامى ، فلا توجد قابلية للنظام الديمقراطى الليبرالى - برأى (فوكوياما) - لأن الإسلام يقف عقبة كبيرة فى وجه تطبيق الديمقراطية (٢) بوضع ضوابط شرعية على ممارسة الحرية الفردية .

ولكن فوكوياما .يؤكد وجوب أن تكون الديمقراطية أمريكية فى العالم الإسلامى ، ويزعم أن الديمقراطية الشعبية التى هيأها الإسلاميون فى مجتمعاتهم، ليست ديمقراطية ، ولكنها وصول للحكم بطرق أصولية .

الديمقراطية الأمريكية ديمقراطية أداتية مثل كل التقاليد النفعية فى الثقافة الأمريكية، فهى تضع مسؤولية النخبة تجاه المجتمع التسويقى ، وكل الأشياء حتى الإبداعية الفنية يجب أن تخضع لهذه الرؤية الثقافية لكى تكون نافعة ، لخلق دور فعال يستسلم للواقع المصرفى الأداتى الدارونى الذى تبشر به الولايات المتحدة الأمريكية ، وتعمل من أجل تطبيقه فى العالم ، وإن خالف موروث الشعوب الأخرى الدينى والثقافى .

(٢)

هل تتفق غريزة العنف عند الرجال مع العولمة ؟

سؤال طرحه (فوكوياما) مقرونا بسؤال مناقض آخر: ماذا لو حكمت النساء العالم ؟ أيمكن أن يتحقق السلام والرفاهية إذا حكمن العالم ؟

قدّم (فوكوياما) هذه الأسئلة دون أن ينتظر الإجابة عنها ، ولكنه طالب العالم بالسعى من أجل تحقيقها ، أنه يسعى إلى طرح فكرة أن يسود السلام العالم فى ظل العولمة ، ويعنى بالتحديد سيادة السلام الأمريكى .

ومع أن (فوكوياما) يرى أن غريزة العنف سائدة بين البشر ، وأنها تحركهم إيجابا وسلبا ، فإنه يرى أن إرادة التغيير من العنف إلى السلام ميسورة بتدريب

(١) فوكوياما : نهاية التاريخ ص ٢٧١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٢ .

البشر ذكورا وإناثا على إرادة التسامح والحياة فى هدوء . عند ذلك يمكن أن تسود السكينة حياة البشر، وإن إمكانية حدوث ذلك تكمن فى المساواة الكاملة بين الذكور والإناث فى : الثقافة والتعليم والتربية ، وعندئذ لا تكون هناك ثقافة وتربية وتعليم أبوية ، وأخرى أمومية ، ولكن ثقافة واحدة بوسائل واحدة ، تكون نتيجتها واحدة ، وأثرها فى الجنسين واحدا .

يبدأ (فوكوياما) قبل طرح أفكاره بعرض أفكار الآخرين حول التربية،وكيف آن هذه النظم التربوية والثقافية حتمت وجود فروق خطيرة بين مجتمعات الذكور ومجتمعات الإناث ، ليس فى مجتمعات البشر وحدها ، ولكنها ظاهرة موجودة لدى كل أنواع الثدييات .

ويعلن (فوكوياما) مقولة أن الرجل ذكر، وهو لهذا السبب ميال للعنف بغريزته ، ومادام الرجل [الذكر] سيستمر حاكما على المجتمع البشرى فسيظل العنف قاسما مشتركا بين المجتمعات البشرية ، ولهذا يقدم (فوكوياما) اقتراحا لحل هذه المشكلة : أن تحكم النساء العالم . مثلما حدث فى الهند (أنديرا غاندى) وفى باكستان (بنازير بوتو) وفى بنجلاديش (خالدة وحسينة) وفى إنجلتر (مارجريت تاتشر) .

ومع أن حكم النساء لهذه الدول الكبرى لم يحل مشكلاتها ولم تحدث تغييراً فى مجتمعاتها من العنف إلى السلام ، فإن (فوكوياما) يعرض فكرته مقارنا الإنسان بحيوان الشمبانزى . فقد لفت نظر (فوكوياما) ما حدث من إحدى قبائل الشمبانزى فى حديقة حيوان (بيرجر) فى (أرنهيم بهولندا) والمثال الذى طرحه يقول : « إن حيوان الشمبانزى يعيش فى مجتمعات تشبه مجتمعات الإنسان، ومن ثم فإن ذكوره تحترف القوة فى بعض الأحيان [أحيان القوة] والتزلف والنفاق فى أحيان أخرى [أحيان الضعف] للوصول إلى أهدافها ، وقد تستخدمهما معا إذا اقتضى الحال ذلك ، فى الوقت الذى تميل نساء الشمبانزى إلى المسالمة. وهذه الصفات نفسها موجودة عند ذكور البشر وإناثهم، وتحدد سلوك كل من النوعين إزاء بنى جنسه. ويمكن إجمال آراء (فوكوياما) فيما يلى :

١ ـ إن ذكور الشمبانزى ميالون إلى قتل بنى جنسهم ، مثل ذكور البشر ، مع

أن هذا نادرا ما يحدث فى ممالك الحيوان الأخرى .

وهذا الرأى نتج عن إيمان (فوكوياما) بنظرية النشوء والارتقاء لـ (تشارلز دارون) التى تقول بأن حيوان الشمبانزى أقرب الأنواع فى سلسلة التطور الحيوى من الإنسان . ورأى (فوكوياما) هذا لا يقتصر على مسألة الميل الغريزى إلى القتل ـ فقط ـ عند الإنسان والشمبانزى ، ولكن فى كل أنواع العنف .

٢ ـ أن ذكور الشمبانزى يكتشفون بغريزتهم أهمية الأحلاف القتالية ، فهم مثل الإنسان كائنات اجتماعية مشغولة بكيفية الوصول إلى الأهداف، ولو بطرق غير شرعية، أو عن طريق التحالفات المريبة ، وهذا لا يحدث من إناث الشمبانزى المسالمة بطبيعتها مثل النساء .

٣ ـ الشمبانزى نسيج وحده فى ممالك الحيوان ، يشبه الإنسان فى المعيشة فى مجتمعات أبوية يترابط فيها الذكور ويتكاتفون لصنع القوة التى تمكنهم من السيطرة على مستعمراتهم ، ولو بإقامة غارات قتالية ، وله توجهات ذرائعية مثل ذكور البشر فى الانتقال من ممارسة السياسة إلى إعلان القتال ، وأن هذا الترابط فى عالم الذكور ترابط (جينى) وراثى وهذا يؤكد أن مجتمع الذكور سيظل مجتمعًا دمويًا على مدى الأجيال التى يكون التدبير فيه بيد الذكور .

٤ ـ إن البشر يمتلكون اللغة والعقل والقانون والثقافة والقيم الأخلاقية، وفى عصر الصيد كان الإنسان تحركه الهمجية النبيلة ـ كما قال (جان جاك روسو) ـ لأن الناس كانوا يصيدون الحيوان لأكله ولبس جلوده ، ثم هم مسالمون بعد ذلك.

ويستبين من ذلك أن نزعة الشر عند الإنسان سببها أطماع الحضارة وتلونات الثقافة. لكن مع هذا فإن العنف بكل أشكاله الحادث فى التاريخ البشرى نفذه الرجال . أما المجتمعات البشرية التى خضعت للنظام الذى تسيَّدت فيه النساء على الرجال كانت مجتمعات مسالمة . فالعنف إذن ـ بزعم (فوكوياما) ـ ظاهرة ملتصقة بالرجال دون النساء ، والعلاقات الدولية والحروب التى تنشأ نتيجة الفكر الواقعى، تنتج عن وجهات نظر قائمة على الجنس الذكورى، ولذلك كما يقول (فوكوياما) : « إن عالمًا تحكمه النساء سيطبق قواعد مختلفة ، وإن باتجاه عالم كهذا تتحرك فيه جميع المجتمعات الصناعية أو الغربية فعندما تتبوأ النساء السلطة فى هذه الدول

ستغدو أقل عدوانية ، ورغبة فى المقامرة والمنافسة والعنف » [1] .

٦ ـ تكمن المشكلة فى رأى دعاة حقوق المرأة فى أن نزعات العنف وحب السيطرة، وتملك المناصب العالية نتاج التربية الأبوية والثقافة الذكورية بعد أن تأصلت فى جرثومة تكوين الإنسان ، مما جعل أمر تغييرها أو تبديلها من الأمور الصعبة ، إن لم تكن مستحيلة .

ويرى (دور كايم) عالم الاجتماع الشهير : « أن الحقائق الاجتماعية لا تفسر إلا تبعا لحقائق اجتماعية تنشأ فى المجتمع ، فمثلا إذا أحب الصبية الصغار التظاهر بإطلاق النار على بعضهم البعض بخلاف البنات الصغيرات ، فإن ذلك يعود إلى أنهم تربوا منذ سن مبكرة على التصرف بهذا الشكل .

ومن هذا الخيط يمسك (فوكوياما) بإمكانية التقريب بين كل السلالات ، فكما أن ميل الذكور إلى العنف راجع إلى تنشئة اجتماعية لا إلى طبيعة حيوية (بيولوجية) يمكن تعديل الفوارق بين السلالات البشرية .

وينتقد (فوكوياما) سوء فهم بعض الدارونيين [مع أنه لا يوجد برجماتى أداتى غير داروني] خاصة الاجتماعيين منهم (هربرت سبنسر) أو العنصريين (مارسين جرانت) اللذين عاشا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فقد استخدما نظرية الانتخاب الطبيعى لتفسير كل شيء وتبريره ، بدءاً من تقسيم المجتمع إلى طبقات، وصولا إلى هيمنة الأوربيين البيض على معظم أنحاء العالم. إن الفروق البيئية بين المجموعات البشرية يمكن أن تقف عند عتبات الثقافة بدلاً من الطبيعة .

و(فوكوياما) هنا أيضا ذرائعى أداتى ، فهو يريد أن يقنع قارئه أن سبب الفروق بين البشر الثقافات وتأثيرها فيهم « وعلى خلاف الداروينية الزائفة التى راجت أفكارها فى بداية هذا القرن يقول (فوكوياما) : لا ينظر أغلبية البيولوجيين المعاصرين إلى العرق وفق تصنيفات معينة ، وفى هذا المنطلق أشار عدد لا يحصى من المؤلفين إلى حقيقة أن العرق ومواصفاته يكون إلى حد بعيد ثمرة أفكار

---

(١) فوكوياما ـ بحث : عندما يحكم النساء ترجمة : ميسون جحا ، جريدة الشعب فى ٣٠ / ٤ / ١٩٩٩م عن مجلة شؤون خارجية .

اجتماعية موجهة ؛ نظرًا لأن جميع الأعراق تستطيع التزاوج فيما بينها ، وأن الحدود التى تفصلها عن بعضها البعض غالبا ما تكون غامضة » (١) .

٧ ـ ولكن هل معنى هذا أنه يجوز لنا أن نفترض أن الإنسان يولد وعقله خال تماما من الفكر والثقافة ، ثم تملؤه الثقافة والخبرة كما يزعم (جون لوك) فى كتاب : (مقال فى العقل الإنسانى) .

لقد أدت كشوف متأخرة فى القرن العشرين ،أى بعد (جون لوك) بأكثر من ثلاثة قرون أن الدماغ ليس مجرد وعاء معد لملئه بمحتوى ثقافى ، بل إنه عضو فائق التحول ، أهلت مكوناته من قبل الولادة لملاءمة احتياجات الإنسان فى الحياة الاجتماعية ، مما يؤكد أن الإنسان معد بحكم خلقه للتصرف بشكل متوقع .

ومع سوء الفهم لدى الأوربيين الناتج عن إيمانهم بنظرية (دارون) وتأثيراتها فى المجال الاجتماعى ، فقد أثبت علماء الأجناس أن الاعتقاد بتفوق جنس بشرى على جنس آخر مجرد خرافة ، وأن التقسيمات التى أصدرها الرجل الأبيض للأرومات والأعراق الأخرى مثل : الجنس الأصفر والأسود والقوقازى ما هى إلا من سفاهات الرجل الأبيض ، وأن نظرية التفوق العنصرى للجنس الأبيض أصبحت عديمة القيمة ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية يعيش أناس من أجناس شتى وأعراق شتى ذابت الفوارق فيما بينهم بمجرد أن عاشوا فى بيئة واحدة ذات مناخ ثقافى واحد ، وتغذوا بطريقة واحدة ، ونالوا تربية واحدة . والذين اشتركوا فى ذلك من أجيال عدة صاروا متقاربين فى الطول ، وحجم الجمجمة ، وطريقة السلوك والتفكير ، مع أنهم ينتمون إلى أعراق شتى وأرومات متباينة ذات أصول مختلفة ، وصفات بدنية وعقلية متباينة .

وحتى الذين وفدوا إليهم من عقود قليلة ، ارتقوا إلى مصاف النخبة ذات الأصول الأوربية الشمالية ـ مثل فاروق الباز عالم الجيولوجيا ، وأحمد زويل عالم الكيميا الفيزيائية ـ وهما من أصول إفريقية .

لا يمكن التسليم بكل ما جاءت به نظرية دارون فى أصل الأنواع والنشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعى والبقاء للأقوى والأصلح ، خاصة فى جانبها

---

(١) فوكوياما : عندما يحكم النساء العالم .

العنصرى الذى يؤكد تفوق الرجل الأبيض ، وحتمية سيادته للعالم ، لأنه الأرقى والأصلح، فأين كانت هذه النظرية عندما سار الإنسان فى حضارات قديمة، لم يكن من بينها حضارة الرجل الأبيض مثل حضارة ما بين الرافدين، والحضارة الفرعونية، والصينية، والهندية، والفارسية، ثم الحضارة الإسلامية تاج الحضارات كلها التى ضمت أجناسًا شتى وأعراقًا شتى ، وثقافات متباينة صهرت فى حضارة الإسلام وثقافته ، وقدمت إنجازات علمية فائقة .

ولكن بعيدا عن نظرية (دارون) وكل النظريات الحيوية الأخرى يتأكد وجود فوارق بين الذكور والإناث ولو كان الجنسان يعيشان فى بيئة واحدة ، وفى ظل ظروف واحدة. وهذه الفوارق خلقها الله تعالى فى جرثومة الوراثة لكل جنس وتتوارث معه بحسب نوع الفرد الذكورى أو الأنثوى ، وليست ناتجة عن تأثير الثقافة ، وإن كان تأثير الثقافة المكتسب لا يمكن تجاهله أيضا فى تعديل قوة هذه الفوارق، أو التأثير الإيجابى أو السلبى فيها مثل ما حدث من تأثير استخدام نظرية (دارون) فى مجال البحوث الاجتماعية فى إبراز مقولة تفوق الجنس الأبيض على سائر الأجناس .

وقديما قال ابن خلدون بهذه الفكرة ، ولكن بضوابط فى التفكير ؛ لأن الإسلام ضم أجناسًا شتى وصهرها فى بوتقة واحدة ، ولم يقل بأن الجنس كان العامل المؤثر الأساسى فى هذا التفوق . فقد رأى ابن خلدون احتمالية بعض التأثيرات بفعل اختلاف البيئة من بداوة وتحضر ، وعلم وجهل ، ونظام التغذية بحيث لو انتقل الإنسان من بيئة إلى بيئة أخرى ظهر أثر البيئة الجديدة فى البدن وفى طريقة التفكير ، ولون البشرة بعد أجيال عدة . ولكن يظل الذكور فى كل هذه البيئات والمجتمعات يحملون خصائص غير تلك التى يحملها إناث المجتمع نفسه والبيئة نفسها . وهذا لا يمنع من وجود حالات استثنائية مكتسبة لا موروثة ، وهى حالات نادرة فقديما حكمت حتشبسوت الفرعونية ، وقادت الجيوش ، وحكمت بلقيس ملكة سبأ وقادت . وفى العصر الحديث مارجريت تاتشر رئيس حكومة بريطانيا التى أعلنت الحرب على العراق وشاركت قوات جيشها فى حرب الخليج سنة ١٩٩١ م .

٨ ـ فى أيامنا هذه تؤكد الدراسات النفسية الميدانية أن هناك فروقا بين الجنسين فى مقدمتها آن الأطفال الذكور أحرص على تأكيد الذات من الإناث اللاتى فى مثل عمرهن، وأنهم آكثر عدوانية فى سلوكهم وأفعالهم وأقوالهم منهن . ويمكن أن يؤخذ المثال من حادثة مدرسة (كلومباين) فى (كلورادو) في يوم الثلاثاء ٢٠ من أبريل سنة ١٩٩٩م إذ حمل طالبان بالمدرسة أسلحة نارية وأخذا فى قتل كل من قابلهم من تلاميذ المدرسة ومنهم أصدقاؤهم ، وبعد أن قتلا ١٥ تلميذا ، وأصابا أضعاف هذا العدد قاما بالانتحار ، ثم اكتشف المسؤولون بالمدرسة أنهما كانا يحملان قنابل ومواد متفجرة ، وأنهما كانا يعدان لما هو أشنع مما قاما به . وهذا أمر غير مخالف لطبيعة التربية فى المجتمع الأمريكى ، فى ظل ثقافة تحرض على العنف ، وتقوى فى الذكور الميل إلى تأكيد الذات ، وتضخيم القوة ، والقيادة والدفاع عن الأرض .

المجتمعات فى الغرب ـ خاصة فى الولايات المتحدة ـ تعمل على دفع الإناث إلى ممارسة العنف ، ففى مجال الرياضة ولجت النساء ميادين الرياضة العنيفة التى كانت مقصورة على الرجال مثل : المصارعة بكل أنواعها ، والجودو ، وحمل الأثقال ، والملاكمة ، وكرة القدم، كما تشارك النساء فى الحروب فى جيوش أوربا والولايات المتحدة الأمريكية . ومع أن الإناث أثبتن أنهن يستطعن المنافسة ، غير أنه لم يحدث حتى الآن أن قامت مباراة فى المصارعة أو الملاكمة أو حمل الأثقال بين ذكر وأنثى ، كما لم تقد امرأة الرجال فى الحروب الكبرى ، ولم يعرف التاريخ إلا حالتين لحتشبسوت الفرعونية، وبلقيس السبئية ، ولا نظن أن العالم سيرى ذلك مستقبلا ؛ لأن فطرة الخلق تؤكد دوام وجود الفوارق المتأصلة فى الجرثومة الوراثية لكل من الذكر والأنثى .

إن تقارير العلماء تؤكد أن صفات الهوية اللاصقة بالرجال : الحرب والمنافسة والبطش ، أما تلك اللاصقة بالنساء فهى الميل إلى السلام والتعاون ، الرجال محاربون أقوياء ، والنساء ريحانات جميلة تسعى إلى السلام .

لقد ثبت وجود نساء شاركن برغبتهن فى الحروب ، ورجال دعوا إلى السلام ونساء دفعن أولادهن الذكور وأزواجهن بحماس شديد إلى الحرب ، ونساء شاركن

فى تعذيب الأسرى حتى الموت ، غير أن غالبية الرجال فى هذه المجتمعات هم الذين قاموا بالأعمال العدوانية ، مما يؤكد أن غالبية النساء أكثر ميلا فطريا إلى التعاون ، وأكثر قابلية للمصالحة السلمية بين الناس .

لكن أنصار حقوق المرأة يرون أن الذكور والإناث متماثلون نفسيا ، وأن الفروق النوعية لا تزيد على مجرد توهم ناتج عن أفكار اجتماعية قديمة وصلت من طريق وسائل الثقافة الذكورية التى سادت فى كل العصور السابقة . ولكن ثقافة ما بعد الحداثة يمكن أن تمهد لتقارب نفسى وعصبى إيجابى بين الذكور والإناث ، وجعلهما معا يسعون نحو السلام؛ لأن الآباء سيكفون عن زرع أسباب العنف فى نفوس أبنائهم حتى يأتى جيل قد نقى من كل غل لبنى الإنسان . جيل متعولم جنسيا ، يتلاءم مع كل شروط العولمة .

ويقول (فوكوياما) : « إن أساس السياسات الدولية فى نظر الداعين للمساواة بين الجنسين يبدو صحيحا على افتراض أن الميول العدوانية عند الرجال يجب أن تضبط وتراقب عبر ضبطها بواسطة مجموعة من الأعراف والقوانين والعقود وما شابهها ، يضاف إليه الحاجة إلى إدخال المزيد من النساء فى عالم السياسات الدولية مثل تنصيبهن رئيسات ، ومسؤولات فى السلطة وجنديات وناخبات ، إذ من خلال المشاركة الكاملة فى السياسات العالمية تستطيع النساء حماية مصالحهن ، وإجراء تحول فى التوجهات الذكورية » (١) .

ويحاول (فوكوياما) تزكية وجهة النظر هذه ، بعرض استبانة لوجهة نظر الرأى العام بالولايات المتحدة فى التدخل العسكرى الأمريكى فى الحروب العالمية حيث كانت الأمريكيات دائما أقل تأييدا لدخول الولايات المتحدة فى الحروب فى فيتنام وكوريا والعراق . وبينما كان الرجال الأمريكيون يحبذون أن تظل بلادهم متفوقة عسكريا على مستوى العالم ، رأى أكثر من نصف نساء الولايات المتحدة عكس ذلك . وهذا ما يراه (فوكوياما) دليلا على ميل النساء إلى الإقرار بأن القوة ليست الوسيلة المشروعة إلى حل مشكلات العالم ونزاعاته .

٩ ـ إن سياسة السلام الديمقراطى ، وتأنيث السياسات ، نشأ فى السياسات

---

(١) فوكوياما : بحث : عندما يحكم النساء العالم ، الشعب فى ١٤ / ٥ / ١٩٩٩ م .

الأمريكية منذ فترة ، ثم تبلور فى أثناء حكم (كلينتون) بإشاعة فكرة ضرورة قيام ديمقراطيات لا تميل إلى الحرب ، وتحترم أحكام القانون ، وحقوق الإنسان ، وحرية التجارة ؛ لأن ديمقراطية كبرى كديمقراطية الولايات المتحدة تستطيع أن تصل إلى أهدافها فى العالم بطريقة أخرى غير الطرق القديمة التى كانت تعتمد على القوة، وأدوات الحرب ، إنها أصبحت قادرة بواسطة اقتصادها وتجارتها وشركاتها العملاقة أن تصل إلى أقصى وطن فى العالم فيستقبلها أبناؤه بالورود والترحاب . والمسألة عند (فوكوياما) أو غيره من المفكرين المخططين فى السياسة الأمريكية لا تعدو إيجاد تبريرات هذا النوع من التسلط الجديد . مثل التظاهر بالدعوة إلى السلام بتأنيث الحكومات الديمقراطية ، أو على الأقل دعوتها إلى أن تضم أعضاء من النساء أكثر من غيرها من الحكومات غير الديمقراطية . وأن تضم عاملات أكثر مما هو موجود فى الأنظمة المستبدة ، وأن يُعترف للنساء بحقهن الانتخابى والنمثيل النيابى ، والمشاركة فى القاعدة الأساسية للوظائف وصنع القرار السياسى .

وإذا كان هذا قد حدث كما يقول (فوكوياما) بصورة مسبوقة فى الديمقراطيات الغربية ، خاصة الولايات المتحدة ، فإنه سيمتد إلى العالم ، ويمهد لحدوث تحول فى العلاقات الدولية ليحقق السلام ورفاهية العالم لتساير العولمة .

ويرى (فوكوياما) أن زرع هذه المفاهيم فى التربية ليس من الصعوبة بحال إذا كف العالم عن توجيه الأدوار للجنسين بمعنى أن لكل جنس دورا يناط به . ولهذا يرى أن من الضرورى فى هذه الحالة قتل فكرة أن الأدوار المناطة بالجنسين متأصلة فى الجرثومة الوراثية .

لكن (فوكوياما) يأسف لأن زرع أفكار أنثوية فى نفوس الشباب لن يحقق نجاحا كبيرا؛ لأن العالم الوسيع سيبقى مسكونا بشخصيات مثل:(أبوتو) الإفريقى و(سلوبودان ميلوسيفتش) الصربى ، ثم لا ينسى أن يوجه سهاما طائشة إلى العالم الإسلامى ، فيزعم أن المستقبل فى هذا العالم لن يكون مضيئا لأن حكاما متهورين يتحكمون فى أكبر احتياطيات النفط ، ويملكون أسلحة كيماوية وبيولوجية ونووية وهكذا قرر (فوكوياما) أن مشكلات العالم ستكون من جهة الشرق الإسلامى وكأن الغرب لا يتحكم فى أسواق العالم ولا يحتكر الصناعات ذات

التقنية المتقدمة ، ولا يحتفظ لنفسه بأدق أسرار التقدم العلمى ، ويحجبه عمن سواه. أو أنه لا يحتفظ فى مخازنه النووية برؤوس نووية يمكنها تدمير العالم فى دقائق . يتغابى (فوكوياما) عن كل هذا ثم يشى بحكام متهورين يتحكمون فى أكبر احتياطيات النفط .

١٠ ـ ثم لا يخفى (فوكوياما) تفاؤله بقيم المجتمع الغربى ـ ففى القرن الحادى والعشرين فى تصوره سيزداد سن النساء فى الدول الديمقراطية ، ويصير عدد العجائز كبيرًا مما سيحدث تطورًا مفيدا فى سياسة التأنيث فى الدول الديمقراطية يدفع مجتمعاتهن للسير فى وفاق ديمقراطى ، وبحلول منتصف القرن الحادى والعشرين ستكون أوربا مؤلفة من دول ديمقراطية قوية وغنية ، حيث تلعب النساء أدوارًا قيادية مهمة ، وستكون الولايات المتحدة حافلة بالمزيد من الزعيمات إلى جانب عدد إضافى من الشباب .

أما الجزء الأفقر فى العالم المتمثل فى شعوب إفريقيا وآسيا باستثناء اليابان [الديمقراطية] فسيرفض سياسة التأنيث لأسباب بزعم (فوكوياما) مثل :

١ ـ وأد الأجنة الإناث والإبقاء على الذكور .

٢ ـ وبوأد الأجنة الإناث يكثر الذكور ويسيطرون على المجتمع ليكون عالما غير مألوف .

ولهذا يزعم أنه إذا استطاع البشر التخلى عن طبيعتهم الذكورية بصفة نهائية ، فإن الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية يمكن أن توجه للتخفيف من آثار الغرائز الأساسية للإنسان . . وإن حلول الليبرالية الديمقراطية والرأسمالية الحديثة لا يقضى على هذه الرغبة فحسب ، بل يفتح عددا أكبر من القنوات السلمية لإرضائها . و« إن الديمقراطية الحرة ، واقتصاديات السوق تنجح عند التطبيق ؛ لأنها لا تحاول تغييب الطبيعة البشرية مثلما تفعل الاشتراكية وغيرها من الأنظمة ، والقوانين والأعراف والقيم الخيرة » (١) .

ولكن هل يستطيع (فوكوياما) أن يعولم حقيقة الذكورة والأنوثة ؟

---

(١) ارجع إلى (فوكوياما) : عندما تحكم النساء ، الشعب فى ٣٠ / ٤ / ١٩٩٩م ، ١٤ / ٥ / ١٩٩٩م .

مع أن (فوكوياما) يعرض آراء (البيولوجيين) الأحيائيين باحترام زائد ، إلا أنه يناور من أجل إخضاعها لمقولة مؤداها أن الفوارق بين الذكر والأنثى تمت تاريخيا بتأثير عوامل الثقافة التى انحازت للذكور فى الماضى ، ولكى يثبت أن الحاضر لا يتحيز لجنس دون جنس ، يعطى لكل من الذكور والإناث هواء واحدا للتنفس وللحياة ، ويعطى الغذاء نفسه والتعليم والتربية وحرية الاختيار .

ولكن برز نساء أقوى إرادة ، وأكثر حزما ، بل أكثر عنفا من الرجال وبدأ الناس يشاهدون نسبة كبيرة بين المجرمين من النساء ، ولم يعد العمل يحتاج إلى قوة عضلات الرجال كما كان فى الماضى بعد التقدم العلمى المذهل ، وهذا يعنى أن القوة البدنية إن لم تزد عند النساء لتعادل قوة الرجال ، فإن القوة البدنية لدى الرجال ستهبط لتعادل قوة النساء ، مما يجعل الفروق بين الجنسين غير ذات أهمية إن لم تتقارب .

(فوكوياما) يريد جنسا من البشر لا هو بالرجال كما نعرفهم ، ولا هو بالنساء كما نعهدهم ، جنسًا يتواءم مع ثقافة العولمة والنظام الديمقراطى الليبرالى واقتصاد السوق . ذلك هو الأهم ، وهى وسائط يمكنها أن تشكل سلوك إنسان العولمة ، بالتغلب على الفروض التى ترى أن الفروق بين الجنسين كامنة فى الجرثومة الوراثية لكل من الذكر والأنثى ، وهى فروض تميل لصالح الذكور فى توزيع الصفات . إنه يمهد لكى تصعد النساء النابغات إلى القمة، ويتقد من الرجال فى القيادة والحكم وإثراء النظام الديمقراطى الليبرالى لكى يسود السلام ـ السلام الأمريكى .

١١ ـ يحاول (فوكوياما) طمس حقيقة وجود فروق بين الذكور والإناث لأسباب سياسية برجماتية لا صلة لها بالعلم ، لكن الله تعالى الذى فطر الذكر والأنثى جعل فى كل منهما فروقا تميز كل جنس، ورأى العلماء أنها فى الدماغ. وهذا الرأى يهدم فكرة (فوكوياما) فى إمكانية أن يتبادل الجنسين الأدوار ، بعمليات من التكيف الاجتماعى وبوسائط ثقافية ، وعن طريق التربية والتعلم .

ويرجع العلماء ميل الذكور إلى العنف والقوة إلى هرمونات ذكورية يخلقها الخالق عز شأنه فيه فى مراحل تكوين الدماغ ، وإذا ظهرت حالة استثنائية لأنثى تميل إلى العنف واستخدام القوة يكون مرجعه إلى أنها فى مرحلة نشأتها فى رحم الأم تعرضت بطريقة غير طبيعية لهرمون ذكورى ، فى وقت تكون الدماغ فى رحم

الأم . وقد يحدث العكس لذكر فى رحم أمه فيكون أكثر ميلا إلى الهدوء والتأمل مثل أغلب الإناث . ولهذا جعل الله تعالى لكل جنس وظائف يتفوق بها على الجنس الآخر . ووظيفة الأمومة ليست أدنى مقاما أو أهمية من الأعمال التى يقدمها الرجال . والوالدية الفطرية مقصورة على الوالدات لا على الآباء لأنها تكوين فطرى فى دماغ الأنثى .

وفى تجربة (الكيبوتز) الإسرائيلية، وهى مستوطنات خاضعة للهندسة الاجتماعية، يجلب إليها الأطفال ذكورا وإناثا فى سن واحدة ، ويلبسون الثياب على نمط واحد ، ويقصون شعورهم بطريقة واحدة ، ويأكلون الطعام والشراب نفسه ، ويتعلمون فى حجرة دراسية واحدة ، ولا يتم مخاطبتهم أو إسماعهم معلومات أو نصائح بحسب الجنس (الذكورى أو الأنثوى) ولكن على اعتبار أنهم جنس واحد ، وبعد أن استمر الحال هكذا أربعة أجيال من المحيدين جنسيا ، اكتشف المخططون لهذه العملية أن كل جنس تمسك بأدواره الجنسية العادية وأن هناك منظومة قيم ذكورية ، ومنظومة قيم أنثوية منبثقة من دماغ كل منهما بحكم تكوينه الفطرى ، أضف إلى ذلك الهرمونات الخاصة بكل جنس منهما ، تفرز الأدوار والفروق بين كل من الجنسين .

وإعادة بناء الذكور والإناث على أسس من الهندسة الاجتماعية وعن طريق التكيف مع بعض العادات ، والتثقيف والتربية يمثل جهدا وضعيا لا يقدر على تغيير نظم الأدمغة كما خلقها الله تعالى متمايزة فى كل من الذكور والإناث .

(٣)

يفترض فوكوياما عالما معولما بحسب الهوى الأمريكى ، ولكن بالرغم من افتراضاته فسيظل الذكور يحملون جرثومة الوراثة التى تحمل صفات ذكورية، وستظل النساء تحمل جرثومتهن بصفاتهن الأنثوية .

والدول الغربية وفى مقدمتها الولايات المتحدة التى تتغنى بحقوق المرأة لا تساوى بين المرأة والرجل فى أكثر المناصب العليا والأعمال الاستثنائية ، بسبب هذه الفروق الأساسية . وبعض الشعوب تقدم بعض النساء لمناصب عليا لتبدو متوائمة

مع تفكيرها . والولايات المتحدة لم تهتم بتصعيد كثير من النساء للمناصب المهمة ، وأول امرأة تصل إلى منصب وزير فى الإدارة الأمريكية فى تاريخها كله (مادلين أولبرايت) فى الولاية الثانية للرئيس بيل كلينتون [١٩٩٧ - ٢٠٠٠م] . بل إن الولايات المتحدة نفسها لا تسوى بين مواطنيها بسبب انحدارهم من أعراق وأرومات مختلفة ، فالمواطن الأسود والملون أدنى من الأبيض ولا يتمتع بنفس الحقوق التى يتمتع بها . كما أن البيض أنفسهم لا يتمتعون بنفس الامتيازات فيما بينهم ، فالأمريكيون من أصول مكسيكية وإيطالية وإسبانية لا يتبوؤون فى الغالب المراكز العليا التى يتبوأها من انحدروا من شمال غرب أوربا . وهى عنصرية أشبه بعنصرية الاشكناز من اليهود إزاء السفارديم .

وتوصى الحكومات الغربية بقيادة الولايات المتحدة إلى الحكومات الموالية لها من الدول الآخذة فى النمو بإعطاء امتيازات لعدد من النساء للمشاركة فى التمثيل الوزارى أو النيابى أو المناصب العامة العليا . ولو لم تكن المرأة كفؤا لذلك ، تعويضا عن عدم قدرة المرأة على الولوج مثل الرجل فى معترك الحياة بممارسة الحقوق السياسية ، ودخول الانتخابات والنجاح فيها والتمثيل النيابى والارتقاء إلى المراتب العليا بقرار رسمى ذكورى، وهذا خطأ كبير ؛ لأن النساء وإن كن يعانين من تمييز المجتمع للرجل عليهن بسبب الثقافة الذكورية ، فلا يجب أن يحققن امتيازات بقرار سلطوى، خاصة إذا كانت كفاءتهن الشخصية لا ترقى بهن إلى المناصب العليا ؛ لأنهن بأداء غير متميز سيهبطن بمستوى الأداء العام فى المجتمع .

إن فطرة الخلق اقتضت أن يكون التمايز الذكورى موجودا ، مع أن هذا التمايز لا ينقص النساء إمكاناتهن ، إلا أن تستطيع امرأة أن تحقق من الكفاءة الاستثنائية ما تحقق به مكانة رفيعة ترتقى بها إلى أرقى المناصب وأعلاها ، عند ذلك سيفتح لها المجتمع ذراعيه ليجنى ثمرة تفوقها . أما توزيع المناصب العليا على النساء بالتسوية بالرجال بدون أسبابه ومؤهلاته من قبلهن ، فلن يؤدى إلى التقدم، الذى تقتضيه الفطرة . وإن كل الثقافات والحضارات وفى مقدمتها الحضارة الأمريكية التى ترفع هذا الشعار ، لم تطبق ذلك . إن الولايات المتحدة لم تصل إلى أن تجعل نظام الحكم فيها : دورة لامرأة وأخرى لرجل على التوالى ، وأن تجعل التمثيل النيابى فى مجلسيها مناصفة ، وكذلك التمثيل الوزارى .

المسألة ليس كما افترض فوكوياما الذى يتوهم أنه لا فرق فى الجرثومة الوراثية لدى المرأة والرجل ، وأن الفروق الموجودة بين ميل الذكر للعنف ، والأنثى إلى السلام ناشئ عن التربية والثقافة ، فرية من صنع تفكير فوكوياما لا تستوى مع الحقيقة .

صمويل هنتنجتون وصدام الحضارات
The clash of civilizations and The Remaking of world order by Samuel Huntington

(١)

يقول إدوارد سعيد : « إن هنتنجتون خبير فى علم تدبير الأزمات ، ومن ثم فإن أطروحته ـ فى صدام الحضارات ـ ليست إلا إحدى التداعيات التى تعيشها الإدارة العسكرية الأمريكية » . ومن ثم فإن كتاب صدام الحضارت لصمويل هنتنجتون ليس إلا صرخة أمريكية تهدف إلى إفزاع العالم،وتزييف صورة الحضارات غير الغربية وتشويهها. وتطبيع وعى الإنسان فى كل مكان من العالم على تقبل فكرة تمايز الحضارة الأمريكية ، وترسيخ فكرة محتواها ، وأن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تضيف إلى الحضارات السابقة كما حضاريا جديدا ذا خصائص أمريكية لها فعاليات التنظير والتنبؤ بمستقبل أفضل للأمم .

صمويل هنتنجتون بهذا الكتاب يهيئ العالم ليشغله بفكرة أنه لا فائدة من الصدام مع الولايات المتحدة على أساس أنها نهاية الحضارات التى يجب أن ينتهى عندها التاريخ تدعيما لرأى صنوه الأمريكى (فوكوياما) الذى مهد له بكتاب (نهاية التاريخ) أى حتمية أن يتوقف التاريخ عند أمركة العالم، بل أكثر من ذلك، أن يقبل العالم أن تقوم الإدارة الأمريكية بتحريك العالم فى مجالات : السياسة والثقافة والاقتصاد والإعلام .

بداية ينسب صمويل هنتنجتون التاريخ الإنسانى للشعوب إلى ثمانى حضارات رئيسة هى : الصينية (الكونفوشية) والهندية (الهندوسية) واليابانبة (البوذية) والإسلامية (الإسلام) والأرثوذكسية (روسيا وشرق أوربا) والغربية (الكاثوليكية البروتستانتية) والإفريقية (إفريقيا السوداء) واللاتينية (أمريكا الجنوبية) .

ويؤكد (هنتنجتون) على أن الدين قاعدة أى حضارة من هذه الحضارات سواء كان الدين سماويا (الإسلام ـ المسيحية) أو وضعيا (الكونفوشية ـ البوذية) أى أن الاعتقاد الدينى مؤسس الحضارات والباعث على الصدام فيما بينها ، ومن هذا المفهوم ينطلق (هنتنجتون) ليبث فكره بترسيخ مقولة فحواها أنه بقدر وعى أهل كل حضارة من الحضارات لمعتقدهم الدينى ، ونعصبهم له يكون تهيئهم للصدام الحضارى : وبالتالى فإنه يحاول أن يبرهن على أن المسلمين فى العالم هم أكثر أصحاب الديانات تعصبا لدينهم ، ومن ثم فإنهم أكثرهم استعداداً للصدام . ولهذا يقول للعالم كله فى خطاب تحذيرى : « إن الإسلام وعى دون تماسك » [١] وإنه إذا تماسك مع هذا الوعى سيكون خطرا على العالم. إنه بهذه العبارة يحذر العالم من تماسك المسلمين، فهم أوعى أصحاب الديانات لدينهم، ولا يحول بينهم وبين الصدام إلا التفكك والضعف، وفى الوقت نفسه يحذر الإدارة الأمريكية قائلا: ويل للعالم إذا تماسك المسلمون وصاروا قوة .

(هنتنجتون) ليس إلا صوتا من الأصوات المعبرة عن تداعيات الفكر الأمريكى تجاه العالم الإسلامى مثل (فوكوياما) و(بول كيندى) وغيرهما . وأفكار هؤلاء تتساوق مع أفكار الإدارة الأمريكية وتواكبها. ولقد سبق الرئيس الأمريكى (ريجان) فطالب بتطوير العسكرية الأمريكية ، بحيث تسيطر على البر والبحر والجو (حرب الكواكب) ثم جاء بعده الرئيس (بوش الأب) وطالب بضرورة إقامة نظام عالمى جديد ، وبلور (فوكوياما) هذه الأفكار فى كتاب (نهاية التاريخ) وهنتنجتون فى كتاب (صدام الحضارات) .

لقد تواكبت أفكار الرئيس (بوش) (النظام العالمى الجديد) وفكرة (فوكوياما) (نهاية التاريخ) صيف ١٩٨٩م مع فكرة (صمويل هنتنجتون) (صدام الحضارات) ١٩٩٣م .

طرح هنتنجتون نظرية فى صيف ١٩٩٣م على شكل مقال طويل نشر فى دورية أمريكية مشهورة ـ الشؤون الخارجية Foriegn Affairs قبل أن يعيد صياغتها فى كتاب: صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمى سنة ١٩٩٦م .

---

(١) هنتنجتون: صدام الحضارات ص ٢٨٤، ترجمة: طلعت الشايب، الطبعة الثانية دار سطور سنة ١٩٩٩م .

كان الطرح الأول فى مقال طويل شغل الناس فى العالم كله خاصة فى الغرب، وآثار تساؤلاتهم ، وكانت السنوات الثلاث كافية لكى يفيد هنتنجتون من الآراء الصادرة من كبار المفكرين فى الولايات المتحدة، ومن لف لفيفهم من سياسة الغرب، ومفكريهم، وعلى هذا الأساس تطور المقال إلى كتاب مهم خطير .

كتاب صدام الحضارات يمثل حلقة من حلقات متراكمة من الفكر الغربى داخل العقل الغربى بدأ من نظريات العقد الاجتماعى ، التى واكبت ازدهار البرجوازية والدولة القومية ، وفكرة المجتمع المدنى ـ ونظرية التطور بشقيها الحيوى والاجتماعى ـ والنظرية الوضعية ، والماركسية .

الفكرة التى يقدمها هنتنجتون ويحذر منها : حتمية صدام الحضارات ، على أساس عقدى ثقافى ؛ لأنه صدام خطر ـ برأيه ـ على السلام العالمى . إنه يمثل تهديدا يخرج من بطون اختلاف الثقافات المنبثقة من الأديان؛ من كيانات ثقافية متضادة . ويرى أن خلاص البشرية يحتم نظاما عالميا ، هذا من خارج الفكر ، أما باطنه ففيه العذاب ؛ لأن النظام العالمى المتمثل فى حضارة الغرب التى تقودها الولايات المتحدة المنبثقة تحديدا من الكاثوليكية والبروتستانتية تصادم الحضارة الإسلامية .

ومن البداية لا يجب أن ينخدع أحد بمقولات هنتنجتون التى هى مقولات الغرب ، فالمسألة ليست مسألة مبنية على عقيدة وثقافة بقدر ما هى مصالح مادية بحتة وللناس فى الحربين العالمية الأولى والثانية مثال: فقد تحالفت ألمانيا الكاثوليكية مع الأتراك المسلمين، وحاربت بنى جلدتها من الأوربيين الأنجلوساكسون البروتستانت وفى الحرب العالمية الثانية تحالفت إيطاليا الكاثوليكية مع ألمانيا ضد فرنسا ، وتحالفت إنجلترا والولايات المتحدة البروتستانيتين مع فرنسا الكاثوليكية وروسيا الماركسية ، ضد ألمانيا ذات الأغلبية الكاثوليكية .

يضاف إلى ما سبق سياسة الغرب الذى يتشدق دائما بأنه مهد الليبرالية والحرية الفردية وحرية الرأى والتملك ، حيال شعوب العالم الثالث ، فالغرب يتسلط عليه لنهب ثرواته ؛ والتحكم فى اقتصاده ، وقتل حرية الرأى فيه ، وإمداد حكامه بخبراء إحداث الأزمات السياسية والاقتصادية ، وبخبراء قمع الإنسان وتكميم الأفواه .

إن (هنتنجتون) أحد أدوات النظام الأمريكى (البرجماتى) لا يعنيه من أمر سياسة العالم إلا بقدر ما تحققه أفكاره من ثمار مادية للإدارة الأمريكية ، واحتكاراتها الرأسمالية فى العالم ، ولكن (هنتنجتون) مع كل هذا يحاول تغليف نظرية الهيمنة الأمريكية على العالم بغطاء إنسانى أمريكى وهمى .

ومن أول صفحات كتاب هنتنجتون إلى آخر صفحة فيه يتهم الإسلام بالتعصب ويربط بين الإسلام والتعصب من الصفحات الأولى فى فصل : (الحقبة الجديدة فى السياسة العالمية) التى تبدأ بانهيار العالم الشيوعى (الاتحاد السوفييتى) وظهور الوعى الإسلامى ، إنه يربط بينهما فى قرن واحد . إنه يربط بين اختفاء تمثال (لينين) رمزا لزوال الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ، وتجمع ألفى مسلم فى سراييفو عاصمة البوسنة يلوحون بعلم المملكة العربية السعودية وتركيا المسلمتين . إنهم « يعلنون عن توحدهم مع كل المسلمين ، ويقولون للعالم من هم أصدقاؤهم الحقيقيون ، وأصدقاؤهم غير الحقيقيين » (١) . وكأن (هنتنجتون) أراد أن يقول للغرب زالت الشيوعية عدوة الغرب الصغرى، وولد عدو (الوعى الإسلامى) أكبر خطورة لأنه لا يعتد بالتقاسيم الجغرافية، ولأنه منتشر بكل قارات العالم ، بل إنه فى قلب كل الحضارات المتباينة . لقد بدأ عقد التسعينيات من القرن العشرين ليظهر الأعداء الحقيقيون ، إنهم المسلمون و« إن لم نكره ما ليس نحن ، فلن يمكننا أن نحب ما هو نحن » (٢) « وإن أخطر العداوات المحتملة تحدث عبر خطوط التقسيم بين حضارات العالم الرئيسة ، والإسلام موجود مع كل خطوط التقسيم فى القارات كلها » (٣) .

إن خطورة الإسلام بزعم (هنتنجتون) تكمن فى وعى المسلمين للإسلام وحبهم له، وفى فقر المسلمين ، وخصوبتهم الإنجابية التى تدفعهم حتما إلى الصدام مع جيرانهم فى خطوط التقسيم الحضارى .

وإذا كانت الصين تسبب خطورة على الغرب بقيادة الولايات المتحدة ، فإنها خطورة مقدور عليها ؛ لأنها تتمثل فقط فى تطوير وسائل الثروة ، ووضع أساس قوة سياسية وعسكرية والتمسك بقيم ثقافية خاصة (كونفوشية) ورفض القيم

(١ ـ ٣) هنتنجتون : صدام الحضارات ص ٣٦ ، ٣٧ .

الثقافية الغربية التى تحاول الولايات المتحدة فرضها على العالم . بعكس خطورة الإسلام التى تتمثل فى الوعى بالإسلام ، والصحوة الإسلامية وتمسك المسلمين بثوابته؛ لأنها أشياء تحدث فروقا ثقافية قوية ذات تأثير قوى فى رفض كل أساليب الغرب ونظمه السياسية والثقافية والاقتصادية ، وتهديد الحضارة الغربية التى قامت على أساس الديمقراطية .

من هنا يطرح (هنتنجتون) خيار الثقافة الأمريكية : لماذا ـ بعد نهاية الحرب الباردة ـ لا يكون هناك عالم واحد منسجم وخاصة أن نموذج هذا العالم متمثل فى أطروحة فرانسيس فوكوياما (نهاية التاريخ) بما هو نقطة النهاية للتطور الأيديولوجى للبشرية وتعميم الليبرالية الديمقراطية الغربية على مستوى العالم كشكل نهائى للحكومة الإنسانية.

إنها دعوة صريحة من كل من (فوكوياما) و (هنتنجتون) لتجميع كل الشعوب تحت لواء النظام الأمريكى .

ويقسِّم (هنتنجتون) العالم إلى الغرب والآخرين ، أى حضارة واحدة ذات ثقافة مخصوصة (كاثوليكية بروتستانتية) فى مواجهة كل الحضارات الأخرى : الإسلام والكونفوشية والبوذية والأرثوذكسية ، وكلها حضارات تستطيع الحضارة الغربية التعايش معها إلا حضارة الإسلام ؛ لأنها بزعم (هنتنجتون) تقسِّم العالم إلى « دار الإسلام ودار الحرب » (١) .

ويدلل (هنتنجتون) على قوله بأن: « دين الإسلام يضم مجتمعات شتى من أجناس متباينة يوحد بينهم الإسلام ، وهم ينظرون إلى غيرهم على أنهم أصحاب حضارة مضادة ، ومن ثم فهم لن يقبلوا الدعوة الأمريكية إلى الانضمام للحضارة التى تمثلها البلدان (الكاثوليكية البروتستانتية) التى تقودها الولايات المتحدة منذ منتصف القرن العشرين وهى حضارة مستقرة بزعم (هنتنجتون) تميل بُوصْلتها نحو العالمية ؛ لأنها غير مستعدة لصدام بسبب الثقافة الدينية ، ساعد على ذلك أن الغرب لم ينتج دينا، فالمسيحية من نتاج الحضارة الشرقية من فلسطين فى قلب العالم الإسلامى ، الأمر الذى من أجله يرى مفكرو الغرب ومؤرخوه ضرورة إنهاء

---

(١) هنتنجتون : صدام الحضارات ص ٥٣ .

الأيديولوجيات التى طبعت الحضارة الغربية فى وقت ما بصنع التزام دينى ، فمنذ القرن السابع عشر يعمل الفكر الغربى من أجل فصل بين الدين والدولة ، والبحث عن عمل عقلى مشترك ينهى الصراعات الثقافية بالعالم بإحلال ثقافة كبرى مشتركة لكل الشعوب ، يكون أُسُّها المثال الحضارى الغربى . والقانون الغربى . يقول هنتنجُتون دون مواربة: « فى القرن العشرين الحضارة تغنى الحِضارة الغربية، والقانون الدولى يعنى القانون الغربى ، والنظام الدولى هو النظام الغربى للدول المتحضرة . هذا النظام العالمى = الغربى ، تطوّر حدث فى السياسة الكونية منذ سنة ١٥٠٠ م فى الحركة الإنسانية وعصر النهضة ، قام هذا التطور بتأثير تجانس ثقافى فى اللغة والقانون والدين والممارسات الإدارية والزراعية » وفى نهاية القرن العشرين خرج الغرب كحضارة عالمية .

ويتجاهل (هنتنجتون) الصدامات التى حدثت فى المجتمع الغربى نفسه من حروب دينية كتلك التى حدثت بين الكاثوليك والبروتستانت بعد حركة انشقاق (مارتن لوثر) عن الكاثوليكية) فى القرن السادس عشر والحروب الأيديولوجية مثل التى أثارتها الفاشية والنازية والشيوعية وغيرها .

ولكن (هنتنجتون) يعلن عن سمات الحضارة الغربية « إنها حضارة أو ثقافة (دافوس) ثقافة المنتدى الاقتصادى العالمى World Economic Forum، ثقافة الذين يتحكمون بالفعل فى كل المؤسسات الدولية ، وفى حكومات العالم ، وفى معظم مقدرات العالم الاقتصادية والعسكرية » (١) إنهم صفوة رجال البنوك العالمية وممثلى الحكومات التى تملك مقدرات العالم ، ويحملون درجات علمية فى العلوم الطبيعية والاجتماعية والإدارية والقانون ، يتعاملون مع الكلمات والأرقام لحساب حكومات أو هيئات ذات اهتمامات دولية وسيعة . ومع ذلك فهم لم يحققوا نجاحا نهائيا ، فهم جعلوا الشباب فى العالم الإسلامى يأكلون أطعمة ماكدونالد ويشربون الكوكاكولا ويستمعون إلى موسيقى الروك والبوب والراب ، ويرتدون الجينز ، ولكن ليس معنى هذا أنهم تقبلوا الثقافة الغربية . فكل ذلك يضيع « بين نوبات ركوعه باتجاه مكة » (٢) إنه بالرغم من توجه الغرب إلى الحضارة العالمية الفاعلة ،

---

(١) هنتنجتون : صدام الحضارات ص ٩٥ . (٢) المرجع السابق ص ٩٦ .

فإن ذلك لم يحل دون شهود العالم لانبعاث صحوة إسلامية، مما أدى إلى « تقوية الاختلافات بين الأديان » (١) والمسلمون زاد عددهم بدرجة كبيرة ، وعلى المدى الطويل سينتصر محمد ﷺ (٢) ومسلمو العالم سيستمرون فى الزيادة الكبيرة التى تصل إلى ٣٠ ٪ من سكان العالم عام ٢٠٠٠م ، وهو ما يهدم افتراض نهاية التاريخ عند الديمقراطية الأمريكية . وإن انهيار الشيوعية لن يوقف سعى المسلمين لإحياء الوعى الإسلامى . إن الانقسام البشرى القائم على الدين والثقافة سيظل قائمًا وسيفرخ صدامات حضارية، خاصة من جانب المسلمين .

إن الله تغلغل فى قلوب المسلمين ـ هكذا قال (هنتنجتون) ـ ولهذا السبب فإن الحضارة الإسلامية ستظل الأكثر تقبلا للصدام مع الحضارات الأخرى ، بعكس الحضارة الغربية التى تقوم على :

١ ـ الفصل بين السلطة الكنسية والسلطة المدنية ، وهذا الفصل يمثل قاعدة تطور الحرية فى الحضارة الغربية .

٢ ـ حكم القانون وترسيخه، ووضع الأساس القانونى لحماية حقوق الإنسان.

٣ ـ التعددية الاجتماعية ، ومنها تنشأ جماعات مستقلة لا تعتمد على سلطة الدم أو الزواج .

٤ ـ الهيئات النيابية التى توفر وسيلة المشاركة السياسية الوسيعة التى لا توجد فى الحضارات الأخرى .

٥ ـ الفردانية ، وحق الفرد فى الحضارة الغربية ، وتراث الحقوق والحريات الفردية فى المجتمع المدنى الغربى .

٦ ـ التحديث دعامة التقدم .

وعلى غير الغربيين بزعم صمويل هنتنجتون لكى يقوموا بالتحديث ، أن تتخلى مجتمعاتهم عن لغاتها التاريخية ، وتتبنى الإنجليزية كلغة قومية . . . وأن تترك القيم الدينية، والافتراضات الأخلاقية؛ لأنها معادية لقيم التحديث وممارسات التصنيع ، وعندما يتقبل المسلمون بصفة خاصة المثال الغربى صراحة ، سيكونون

(١) صدام الحضارات ص ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ .

فى وضع يمكنهم من استخدام التقنية ، ومن ثم أن يتقدموا [1] .

إن فى هذا التصور مغالطات كبرى ، فالإسلام لم ينغلق يوما على نفسه وقد أخذ من كل الثقافات منذ القرن السابع حتى الآن ،ولكنه يصيغ ما يأخذ ويخصبه بما يتواءم معه . والانفتاح على كل الثقافات أصل فى التشريع الإسلامى وفى الأثر الشريف: (اطلبوا العلم ولو فى الصين) ، (واطلبوا العلم من المهد إلى اللحد) .

إن (صمويل هنتنجتون) لا يكف عن تحذيره للغرب من خطورة صحوة العالم الإسلامى، ومع أنه يؤكد أن الغرب لا يزال يمثل أكبر قوة فى العالم ، وأنه مازال مؤهلا لقيادة العالم والتحكم فيه بإمكاناته التى «تسيطر على أسواق العالم الرئيسة، وتمارس قيادة معنوية كبيرة داخل مجتمعات كثيرة ، قادرة على التدخل العسكرى الوسيع، وتتحكم فى الطرق البحرية وتقود البحث العلمى والتطوير التقنى وتسيطر على صناعة الفضاء ووسائل الاتصال العالمية ، وصناعة الأسلحة ذات التقنيات العالية فإن هناك قوة آخذة فى النمو ، فى العالم الإسلامى .

هذه إحدى صورتى الغرب ، أما الصورة الأخرى فهى صورة حضارة تنهار ، وهذا الانهيار الذى يتصوره (هنتنجتون) يتمثل فى انكماش الغرب كقوة إمبريالية توسعية ، ويلخص حالة الانحسار هذه ، فى مقابلة المد الإسلامى فى الفقرة التالية : « فى قمة التوسع الغربى سنة ١٩٢٠م كان الغرب يحكم ٢٥,٥ مليون ميلا مربعا ، أى نصف الكرة الأرضية تقريبا ، وفى سنة ١٩٩٣م أصبحت الحكومات الغربية لا تحكم أحدا سوى الغربيين.

« ومن حيث عدد السكان فإن الغرب فى سنة ١٩٩٣م يحتل المركز الرابع بعد الحضارات الصينية والإسلامية والهندية . الغربيون إذن يمثلون أقلية فى سكان العالم ، وهى تتناقص باضطراد [2] .

أما المسلمون فيمثلون أكبر زيادة عددية ، مما يجعلهم فى الترتيب الأول من سكان العالم بعد فترة وجيزة،وهذا بدوره يحفزهم للصدام الحضارى . وعند ذلك فإن « عصر السيادة الغربية سوف يؤذن بالزوال » [3] مما يقوى عمليات التأصيل

(١ ، ٢) انظر : صدام الحضارات ص ١٣٧ ـ ١٣٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥٠ .

الكونية ، وصحوة أهل الثقافات الأخرى فى جميع المجالات : الثقافية والعسكرية والاقتصادية ، وسوف يعزون ذلك التقدم إلى ثقافاتهم الخاصة ، وسيعلنون أنهم حققوا نجاحهم بسبب نبذهم الغرب والتمرد عليه .

إن الصحوة الإسلامية على سبيل المثال ترفع شعار أسلمة القضايا الرئيسة فى المجتمع الإسلامى ، ومجتمع شرق آسيا بدأ هو الآخر يرفع شعار الكونفوشية . والآسيويون عموما يتحدثون عن أسينة بلادهم . ويلخص (هنتنجتون) هذا التحول فى هذه المجتمعات بالعبارة الآتية : « تتجلى عملية التأصيل الكونية هذه بشكل واضح فى الإحياء الدينى الذى يحدث فى أجزاء كثيرة من العالم . خاصة ذلك الانبعاث فى الدول الإسلامية والآسيوية الناجم عن نشاطها الثقافى ونموها السكانى » (١) .

والذى يؤرق (هنتنجتون) أن الصحوة الدينية فى العالم الإسلامى لا تقتصر على الأصوليين ، بل تتجلى فى الحياة اليومية للناس ، وخطط الحكومات فى المجتمعات الإسلامية ، فالدين يحدد هويتهم وإحساسهم بالحياة.

كما أن الصحوة الكونفوشية تتخذ شكل توكيد القيم الآسيوية، المعادل لتوكيد القيم الدينية عند المسلمين. ولقد برز ذلك بصورة قوية بعد انهيار الشيوعية، فقد نظر الناس إليها على أنها ليست سوى الإله العلمانى الذى اعترف بفشله ، ولأنهم غير مقتنعين بإله الغرب فقد توجهوا بعواطفهم نحو الإله الحق . فلا الشيوعية ولا الرأسمالية ، استطاعت تحريك المجتمع الإسلامى إلى الأمام فعادوا إلى الدين (الإسلام) ؛ لأنه المحرك إلى التقدم . وهم لا يمانعون من استخدام وسائل الاتصال الحديثة والتقنية بل هم حريصون على ذلك . خاصة الشباب .

إن صحوة العالم الإسلامى أقوى مظاهر معاداة التغريب ، هى إعلان استقلال ثقافى ضد الغرب وعبر عنها (هنتنجتون) فقال إنه : « إعلان كله كبرياء يقول : سنكون حديثين ، ولكننا لن نكون أنتم » (٢) .

إنها « عودة إلى الأصول وإحياء الدين ، والتوكيد الثقافى وتحدى الغرب

---

(١) صدام الحضارات ص ١٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٨ .

جاءت من الإسلام فى الربع الأخير من القرن العشرين » (١) .

يرقب (هنتنجتون) الصحوة الإسلامية ، ذات الحركة الدائبة المتقدمة إلى الأمام ويرى التحدى الإسلامى لكل آت من الغرب. وهو لا يقصد العلم الغربى؛ لأن رفض الغرب بكل قيمه الثقافية والاجتماعية ؛ لا يضاده قبول العلم . والذى يزيد الأمر تعقيدا فى عقل (هنتنجتون) أن رفض العالم الإسلامى لقيم الغرب يضاده تأكيد على الذات الإسلامية النابع من التعبئة الاجتماعية والنمو السكانى للمسلمين ، مما يؤثر سلبا بزعمه فى عدم استقرار السياسة العالمية فى القرن الحادى والعشرين . وقد يكون التأكيد نفسه من جانب أكبر قوة آسيوية من الصين الكونفوشية ، بعد انهيار الاتحاد السوفييتى فقد اختارت الصين الميل نحو الرأسمالية والمشاركة فى الاقتصاد العالمى ، مع الالتزام بالثقافة الكونفوشية ، وصيانة الثقافة الصينية من المفاهيم الغربية المستوردة .

ولكن (هنتنجتون) لا يرى خطورة على الغرب فى توحد الصين بمفاهيم كونفشيوس وتنظيمها وقوتها الاقتصادية ، كتلك الخطورة الكامنة فى الإسلام وفى شعار : الإسلام هو الحل ؛ لأن المسلمين كما يرى (هنتنجتون) : « يتوجهون نحو الإسلام كمصدر للهوية والاستقرار والشرعية والقوة والأمل » (٢) والذى يؤرقه أن الدين يتحرك حركة دائبة تقدمية يزكى المشاعر الوطنية بين الشباب الذين يمثل الطلاب عنصرهم الرئيس ويقودهم المثقفون الذين يتبعون أسلوبا راقيا متطوراً فى مخاطبة المرأة .

إن ضعف الحركات اليسارية وفقدانها مصداقيتها حفزت جيل الشباب إلى الإيمان بمبادئ الصحوة الإسلامية ، كما أن جماعات الديمقراطية الليبرالية أثبتت فشلها لارتباطها المتجذر بثقافة الغرب . لكن الغريب فى أمر (هنتنجتون) أنه لم يفهم أن قوة الصحوة الإسلامية كامن فى ارتباطها بالمسجد ، وبأنها تعبير وطنى بالدرجة الأولى يذود عن الوطن بل يرى أن خطورة الصحوة فيما يدعمها من الزيادة السكانية فى الدول الإسلامية ، إنه يتوقع أن يزيد عدد المسلمين فى العالم على ٣٠٪ من سكان العالم سنة ٢٠٢٥م ولأن الكثرة السكانية تحتاج إلى موارد

(١) صدام الحضارات ص ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٠.

أكثر ، فإن النمو السكانى للمسلمين بزعمه « يكون عاملا مساعدا فى إشعال الصراعات على حدود العالم الإسلامى بين المسلمين والشعوب الأخرى » (١) .

ويزعم (هنتنجتون) أن إيقاف زحف الخطر الإسلامى لن يكون إلا بإعادة التشكيل الثقافى للسياسة الكونية . وإقامة أحلاف حضارية تصد الصدام الإسلامى المرتقب عند خطوط التقسيم الحضارى مثل حلف أرثوذكسى لمقاومة زحف الإسلام على البلقان وعلى روسيا الأرثوذكسية أن تساعد الصرب الأرثوذكس ، وتساعد ألمانيا الكروات الكاثوليك . ضد مسلمى البوسنة ومسلمى ألبانيا .

وهذه مجرد أمثلة لصدام الإسلام عند الحدود الجغرافية ، وإلا فهناك الصراع الهندوسى الإسلامى فى الهند وباكستان وبنجلاديش وكشمير ، والإسلامى اليهودى فى فلسطين .

ولا يكتفى (هنتنجتون) بإقامة هذه الأحلاف لضرب الإسلام ، بل طالب الغرب بأن يعلق علاقاته مع الدول الإسلامية على مدى تمسكها بالإسلام أو ابتعادها عنه ويضرب الأمثلة بـ : إيران أيام الشاه رضا بهلوى والآن ، وتركيا أيام اتاتورك والآن .

وهذا الأسلوب فى التعامل يطبقه الغرب بالفعل ، وقد علق عليه الرئيس التركى الراحل (أوزال) سنة ١٩٩٢ م بقوله : سجل تركيا بالنسبة لحقوق الإنسان ملفق لتبرير عدم قبول طلب انضمامها إلى الاتحاد الأوربى ، إن السبب الرئيس لعدم انضمامنا هو أننا مسلمون وهم مسيحيون ، ولكنهم لا يقولون ذلك ؛ والمسؤولون الأوربيون بدورهم يتفقون على أن الاتحاد عبارة عن نادٍ مسيحى . وتركيا مسلمة جدا ، فقيرة جدا ، مكتظه جدا بالسكان ، فظة جدا ، مختلفة ثقافيا جدا ، وهى جدا فى كل شىء فى مرآة الغرب (٢) .

ويرى (هنتنجتون) أن تثبيت المد الإسلامى عند نقطة وقوفه الآن ممكنة ؛ لأنه فى عالمنا المعاصر لكل حضارة دولة مركز ما عدا الحضارة الإسلامية فليس لها دولة مركز تقودها . ويفصّل (هنتنجتون) الحضارات ودول مركزها على الوجه التالى:

---

(١) صدام الحضارات ص ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٨ .

الكاثوليكية ـ البروتستانتية ، والأرثوذكسية ، والإسلام ، والكونفوشية ، والبوذية ، والهندوسية .

أهم دولة مركز : الولايات المتحدة وهى دولة المركز لأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، وفرنسا وألمانيا دولتا مركز فى أوربا، وروسيا دولة مركز لأوربا الأرثوذكسية . والصين دولة مركز لكل بلاد الكونفوشية . والهند دولة مركز فى القارة الهندية . واليابان دولة مركز للبلاد البوذية .

الإسلام يمثل الحضارة الوحيدة التى تفتقد لدولة المركز ، ولولا وحدة الثقافة والدين لما كان للمسلمين الآن سلطة مجمعة تجمعهم . وقد حدث هذا التفكك فى العالم الإسلامى بفعل متعمد من الغرب ، فقد قضى على الإمبراطورية العثمانية ، والإمبراطورية الإسلامية المغولية بالهند ، ومن ثم لم يعد للدول الإسلامية دولة مركز ترأس دول الحضارة الإسلامية ، وتكون كلمتها مقبولة داخل العالم الإسلامى ، ولها كلمة مسموعة خارجه. وإن غياب دولة مركز إسلامية عامل محفز للصراعات الداخلية، وعامل ضعف فى السياسة الخارجية ، وإن أكبر الدول الإسلامية عربية وغير عربية: إندونيسيا وإيران وباكستان وتركيا ومصر والسعودية. وكل منها غير قادرة على أن تمثل دور دولة المركز فى الحضارة الإسلامية إما لأنها بعيدة عن المركز مثل إندونيسيا أو لأنها فقيرة وتابعة للغرب مثل باكستان وتركيا ومصر ، أو أن عدد سكانها قليل مثل السعودية، أو أنها من المسلمين الشيعة الذين يمثلون ١٠٪ من مجموع مسلمى العالم مثل (إيران) .

ومع تفاقم مشكلات العالم الإسلامى وتفككه فإنه فى رأى (هنتنجتون) يواصل تهديده للحضارة الغربية الكاثوليكية البروتستانتية بالهجرة المستمرة إلى الغرب . ويرى أن هذه الهجرة ستصيب مجتمع الغرب بالتصدع ، وتجعله يضم مجتمعين منفصلين ؛ لأن الإسلام يختلف عن الكاثوليكية والبروتستانتية . والذى يؤرق (هنتنجتون) من وجود المسلمين بالغرب ، أن رغبة المسلمين غير واضحة فى استيعاب حضارة الكاثوليك والبروتستانت . ولهذا يعتقد أن المسلمين يمثلون المشكلة العاجلة للغرب . وإن ذلك من شأنه إضعاف ميزان القوى المتغير بين الحضارات الأخرى ، وحقوق الإنسان ، والتنمية ونشر الثقافة الاجتماعية الغربية وغيرها من المثل العليا فى الغرب . ولهذا ينصح الغرب فى سياسته مع العالم

الإسلامى « أن يستخدم موارده الاقتصادية ببراعة بأسلوب الجزرة والعصا فى التعامل مع المجتمعات الأخرى » (١) .

لقد انتهى مصطلح الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالى والشيوعى ، وفى بداية التسعينيات من القرن العشرين ، أى عقب انهيار الاتحاد السوفييتى وتوديع الشيوعية يعود مصطلح الحرب الباردة للظهور ، ولكن هذه المرة بين الغرب والمسلمين ، ويرى غالبية من علماء الغرب فى تخصصات مختلفة : « حربا حضارية باردة تنمو مرة أخرى بين الإسلام والغرب » (٢) ويرون أن هذه الحرب حتمية ، كما يرون أن ثمة حروبا أخرى يكون الإسلام القاسم المشترك الأعظم فيها . إنها « صراعات خطوط التقسيم المتفشية بين المسلمين وغير المسلمين فى آسيا الهند وباكستان ، وفى داخل الهند : المسلمون والهندوس . وفى الأرخبيل الإندونيسى بين المسلمين والكاثوليك، وفى الفلبين وتايلاند وبورما . وفى إفريقيا تعايش قلق بين المسلمين وغير المسلمين. وفى أوربا تعايش قلق بين المسلمين والكاثوليك والبروتستانت فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، فى يوغسلافيا بين المسلمين البوسنيين والألبان والصرب الأرثوذكس وهو ما أطلق عليه (هنتنجتون) صراعات خطوط التقسيم فى قوله : « إن صراعات خطوط التقسيم متفشية بصفة خاصة بين المسلمين وغير المسلمين » (٣) وأن الإسلام هو المحرك لهذا الصدام .

ومع أن الصين تمثل القوة المناوئة للغرب بعد الإسلام ، فإن الصدام المسلح بين الصين والغرب ليس مؤكدا . ولكن الإسلام بزعم هنتنجتون « هو القوة المحركة للصدام ، بل المصدر المستمر لحروب كثيرة » (٤) . الصراع موجود منذ أربعة عشر قرنا فى العلاقات بين الإسلام والمسيحية ، وكان صراعا عاصفا دائما لا يقارن به صراع القرن العشرين بين الديمقراطية الليبرالية (الغرب بقيادة الولايات المتحدة) والماركسية اللينينية (الاتحاد السوفيتى) فهذا الصراع الأخير لم يكن سوى قضية سطحية وزائلة إذا ما قورن بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحية » (٥) . ويستشهد بكلام ينقله عن المستشرق برنارد لويس: لمدة ألف سنة كانت أوربا تحت تهديد مستمر من الإسلام . الإسلام هو الحضارة الوحيدة التى

---

(١) صدام الحضارات ص ٣٣٥ .

(٢ ـ ٥) صدام الحضارات ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ .

جعلت بقاء الغرب موضع شك ، وقد فعل ذلك مرتين على الأقل ؛ لأن مفهوم المسلمين للإسلام أسلوبا للحياة يربط الدين بالسياسة ويحفزهم للصدام .

ويفترض هنتنجتون إما أن يكون الإسلام مسيحية جديدة، وإما أن يكون عدوا لها . ولكنه يعود فيؤكد استحالة الوئام بين الديانتين؛ لأن هناك عوامل تزيد من درجة الصراع بين الإسلام والمسيحية ، وكلها أسباب نابعة فى رأيه من الإسلام لا من الغرب المسيحى وتتلخص فيما يلى بزعمه :

أولا : النمو السكانى للمسلمين خاصة من الشباب الساخطين الذين أصبحوا مجندين للقضايا الإسلامية ، ويشكلون ضغطا على المجتمعات المجاورة ، ويهاجرون إلى الغرب .

ثانيا : أعطت الصحوة الإسلامية ثقة متجددة للمسلمين فى قدرة حضارتهم وقيمهم المتميزة . وفى تفوق حضارتهم على الحضارات الأخرى .

ثالثا : سقوط الشيوعية قضى على عدو مشترك للمسلمين وللغرب،وترك كلا منهما لكى يصبح الخطر المتصور على الآخر (١) .

رابعا : استياء المسلمين من جهود الغرب المستمرة لتعميم قيمه ومؤسساته من أجل الحفاظ على تفوقه العسكرى والاقتصادى ،والتدخل فى الصراعات فى العالم الإسلامى ويؤكد (هنتنجتون) إنه فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين انهار التسامح بين الإسلام والغرب ، وإن الصراع يتجدد باستمرار طالما تطرح القضايا الأساسية للقوة والثقافة وتطور القيم العلمانية مقابل القيم الدينية . والاستياء من السيطرة الغربية على بنية مجتمعات العالم الإسلامى ، وشعور المسلمين بالمرارة عند مقارنة واقعهم بمنجزات حضارة الغرب ؛ ولأن الإسلام لن يتخلى عن ثقافته الدينية والأخلاقية ولن يقبل العلمانية ، فإن المواجهة القادمة لتهديد الحضارة الغربية تأتى تحديدا بزعم (صمويل هنتنجتون) من الإسلام؛ لأن العداء فى تصوره عداء الإسلام لا عداء إسلاميين « المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية ، بل الإسلام ذاته فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته ، وهاجسه ضآلة قوته . وفى المقابل حضارة الغرب ، حضارة

---

(١) صدام الحضارات ص ٣٤٢ .

مختلفة شعوبها مقتنعة بعالميتها، ويرون أن قوتهم المتفوقة تفرض عليهم التزاما بنشر هذه الثقافة فى العالم . هذه هى المكونات الأساسية التى تغذى الصدام بين الإسلام والغرب (١) .

وهنا يلتقى (هنتنجتون) مع (فرانسيس فوكوياما) فقد قال (فوكوياما) : إن التاريخ ينتهى عند تعميم الديمقراطية ـ المثال الأمريكى ـ ويؤيده (هنتنجتون) فيقول : إن التاريخ فى العادة ينتهى عند ازدهار حضارة ما ، هكذا كان شعور البريطانيين فى نهاية القرن التاسع عشر فى أوج الازدهار البريطانى حيث كانوا يرون أن التاريخ بالنسبة لهم قد انتهى ، وكان لديهم من الأسباب ما يكفى ليجعلهم يهنؤون بعضهم على الحال الدائمة من السعادة العظيمة التى خلعتها عليهم نهاية التاريخ (٢) إن حضارة الغرب (النموذج الأمريكى) تأثيرها طاغ على كل الحضارات ؛ لأنها حققت عالمية التحديث والثروة والحداثة، إنها نهاية التاريخ الحقيقى الذى لا يعقبه انهيار ، كما رأى (فرانسيس فوكوياما) وتمنى (صمويل هنتنجتون) . ولهذا فإن هذا الأخير يحذر أصحاب هذه الحضارة من الإسلام ، ففى الإسلام فقط ـ بزعمه ـ مكمن الخطورة على حضارة الغرب وعلى نهاية التاريخ . ومن ثم يهيب بالغرب أن يتنبه ويعمل من أجل إعادة نفوذه المتدهور فى الشؤون العالمية ويعيد تأكيد وضعه قائدا حضاريا تتبعه الحضارات الأخرى وتقلده ، خاصة أن الحضارة الغربية لاتزال قادرة على ذلك ، ولديها فائض قوى فى مجالات التقنية والمال والاقتصاد والسياسة والتفوق فى علوم الاجتماع والتربية وقادرة على أن تستخدم الفائض الحضارى فى صنع أساليب حضارية جديدة ، بشرط أن تحتفظ بأسرار ما تملك لنفسها ولا تفرط فيه لغيرها .

ومع أن (هنتنجتون) يرى أن حضارة الغرب قادرة على الانتصار على أى تحدٍ خارجى ، فإنه يحذر الغرب من مشكلات الانهيار الأخلاقى والتفكك الاجتماعى الذى برز على السطح فى تعاظم الجريمة وأعمال العنف وتعاطى المخدرات والتفكك الأسرى ، والأمهات الصغيرات غير المتزوجات ، وضعف أخلاقيات العمل ، وموت روح الجماعة بالانغماس فى الفردية ، والانتحار الثقافى

---

(١) صدام الحضارات ص ٣٥٢.

(٢) المرجع السابق ص ٤٨٧ .

بعدم الالتزام بالنشاط الفكرى ، وتدنى مستويات التحصيل الدراسى . إن الغرب باختصار يعانى من ضعف الصحة النفسية ، الذى يقابله التفوق الأخلاقى عند المسلمين ، يضاف إلى ما سبق ضعف المسيحية المكون الرئيس للحضارة الغربية ؛ لأن ضعفها يضعف من شأن حضارتها ، فنسبة الذين يعلنون إيمانهم بالدين المسيحى قليلة (١) . ولذلك فإن الغرب يفتقر إلى قلب ثقافى (دينى) .

إن (هنتنجتون) يطالب الولايات المتحدة وأوربا بتجديد حياة أخلاقية مسيحية عندها تولد حضارة جديدة ذات ثراء اقتصادى ونفوذ سياسى وتكامل ذى مغزى فى عيون الحضارات الأخرى التى يجب عليها أن تعتنق قيم الغرب وثقافته التى تجسد أرقى فكر واستنارة وعقلانية وحداثة وتحضرا (٢) .

أليس هذا المنطق مثيرا للدهشة : أن تطالب الولايات المتحدة وأوربا بالعودة إلى المسيحية ، ولا يكف عن الطعن فى دين الإسلام . « الذى يراه خطراً على الغرب كما يراه خطرا على إسرائيل الصورة المصغرة للولايات المتحدة » (٣) . ومن ثم فإن (هنتنجتون) يدعو إلى أن تتساند الولايات المتحدة مع أوربا فى الصدام الكونى القادم ؛ لأن حضارات العالم بكل منجزاتها فى الدين والأدب والفن والفلسفة والعلم والتكنولوجيا والأخلاق سوف تتساند ؛ ولأن الضمان الأكيد ضد صدام ينتهى بحرب عالمية، هو نظام عالمى يقوم على تساند الحضارات » (٤) فى ظل الحضارة الأمريكية .

إن (هنتنجتون) مثل كل مفكرى الغرب يريد أن ينهى خصوصية الأديان والثقافات من أجل إحياء ثقافة واحدة من صنع الغرب وحده بقيادة الولايات المتحدة ، إنه يريد أن يغتسل الغرب ويتطهر من أدناس ماضيه العدوانى منذ أيام الرومان حتى عصر الاستعمار والفاشية والنازية والشيوعية والفوضوية ، يريد أن يطهره من خبائث ماضيه ولكن لا يدرى أنه يغتسل من خبائث ليعد نفسه لخبائث أخرى بإنشاء ديمقراطية ذات ضعف أخلاقى عابرة للقوميات والثقافات والأديان من أجل خدمة الرأسمالية متعدية الجنسيات بشرط واحد ، أن يظل التفوق للحضارة

(١) صدام الحضارات ص ٤٩٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٠١ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٠٩ .
(٤) المرجع السابق ص ٥٢١

التى تقودها الولايات المتحدة فى السوق الكونى المنشود .

أما الموقف المضاد للإسلام بصفة خاصة ، باعتباره حركة مناقضة لما يدعو إليه الغرب من أهمية الاهتمام بالمجتمع المدنى فى سياق ممتزج من الميول التقليدية والميول الإباحية، فإن الغرب لا ينظر إليها على أنها إشكالية آنية، فمنذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وحتى الآن يعمد العالم الغربى إلى احتواء العالم الإسلامى ، وجعله ركنا فى مجتمع كلى ذى نزعة غربية ، ولهذا زاد العمل من أجل احتواء العالم الإسلامى بعد انتهاء الحرب الباردة بمعناها التقليدى بين الرأسمالية والشيوعية ، وهذا جعل العالم الإسلامى يبالغ فى تخوفه من نوايا الغرب بقيادة الولايات المتحدة ، ويزيد من قدر التعقد السياسى فى العالم الإسلامى، مما أظهره فى نظر الغرب وعقله بالحركة المضادة للعولمة الرافضة لخطاب ما بعد الحداثة . وفعل (رولاند روبرتسون) وهو مفكر اجتماعي غربى مشارك فى وضع الاستراتيجية الأمريكية مثل (فوكوياما) و(هنتنجتون) يصور الصورة التى يتصورها الغرب لموقف الإسلام من العولمة باعتبارها عملية كوننة الخصوصية أو عولمتها فيقول : « ويمكن فى هذا الوقت النظر إلى مقاومة العولمة تلك التى يعتبرها البعض مضمنة فى الجانب الأكثر راديكالية من الحركة الإسلامية العامة ، بوصفها معارضة ليس لاعتبار العالم واحدا متجانسا فحسب . وإنما أيضا بشكل وطيد لمفهوم العالم كسلسلة من طرق الحياة أو كياناتها الثقافية » (١) .

إن للغرب طرقًا فى التعامل مع الإسلام وثقافته وكلها طرق مضللة ، وتتمحور هذه الطرق فى :

١ ـ تقييمات ثقافية فى تحليل أفكار الحركات التى تجعل مرجعيتها أصول الإسلام دون الاعتبار بالمستجدات .

٢ ـ تفسير غربى مبنى على قواعد علم الاستشراق فى تحليل تراث الإسلام . وهو تفسير يعجز عن سبر أعماق التراث الإسلامى .

٣ ـ النظر إلى ثقافة الإسلام على أنها ثقافة الآخر الضد .

---

(١) رولاند روبرتسون : العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة ص ٢٢١ . ترجمة : أحمد محمود ونورا امين ، مراجعة د . محمد مصطفى دياب ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومى للترجمة رقم ٧٨ .

ويأتى الخطأ فى كل هذه الحالات نتيجة وضع فروض من خارج نطاق الإسلام من خلال تجاوز الوعى بحقيقة الإسلام ذاته ، واعتبار المجتمع المدنى الغربى مدينة فاضلة يجب أن تدخلها كل الشعوب فى إطار مشروع ثقافى غربى دونما اعتبار لأية ثقافة أخرى.

إن أحدا لا ينكر أن المفاهيم الثقافية العالمية أصبحت متداخلة أو على الأقل متماسة، ولكن ستبقى الهويات الثقافية الخصوصية متجذرة ، ولو كان ذلك فى نظام عالمى . ويمكن للثقافات المتعددة أن تتعاون من أجل سعادة البشرية ، مع الاحتفاظ بهويتها فى الجوانب شديدة الخصوصية . لكن الغرب بقيادة الولايات المتحدة يرى أن دخول العالم فى نظام متعولم أصبح حتميا . فهل تقبل الصين الفردية الغربية وتحلها محل الجماعية الكونفوشية. وهل ستقبل حضارات كالبوذية، والهندوسية والكونفوشية، وهم أكثر من نصف العالم الذوبان فى الثقافة الأمريكية ، وهل ستقبل المرأة فى العالم الإسلامى التكريس لتجارب النساء فى الغرب ـ مثلا ؟

يرى (صمويل هنتنجتون) أن الصراع الثقافى حتمى ، وسيكون بين حضارة العولمة ، وحضارات غير أوربية تستند إلى ثقافة رافضة لقيم العولمة ، ويدلل على صحة نظريته بالصراع الثقافى الدينى بين التخوم الإسلامية وغير الإسلامية . ففى أوربا يوجد صدام بين تركيا واليونان ، والبوسنيين والصرب ، والألبان فى كوسوفا والصرب . والبلغار المسلمين والبلغار الأرثوذكس ـ والأذربيجان المسلمين والأرمن الأرثوذكس . والمسلمين الشيشان والروس الأرثوذكس . وفى آسيا بين المسلمين والهندوس فى الهند ، وفى كشمير ـ وبين المسلمين واللادينيين فى الصين ، وبين المسلمين والكاثوليك فى الفلبين ، وفى أماكن متفرقة أخرى فى آسيا : المسلمون والكاثوليك فى إندونسيا . وفى إفريقيا بين المسلمين وغير المسلمين فى السودان وليبريا والسنغال وليبيا وتشاد ، ونيجيريا والقرن الإفريقى .

ويرى (هنتنجتون) أن هذه الأماكن تمثل أهم بؤر الصدام الحضارى فى العالم، بين الخطوط الفاصلة بين الإسلام وجيرانه ، ولا تقترب أية حضارة أخرى تحفزا للصدام من الحضارة الإسلامية إلا الحضارة الكونفوشية . دليل ذلك أن للصين نزاعات حدودية مع جيرانها وأهمهم الهند، والبوذيين فى التبت ، وضد الأقلية

التركية المسلمة فى تركستان. (التى تطلق عليه إقليم سينكيانج) . ولأن الإسلام والكونفوشية غير قادرين على اللحاق بالحضارة الغربية ، لأسباب مهمة يأتى فى مقدمتها تضاد الانتماء الثقافى . فسيقوم تعاون بزعم (هنتنجتون) بين الإسلام والكونفوشية من أجل تحدٍ مشترك للمصالح الغربية وقيمه الثقافية وقوته العسكرية والاقتصادية . هكذا يقولُ (هنتنجتون) وسيكون الطابع الثقافى المحرك الأساسى للصدام .

ولا يخشى (هنتنجتون) من قيام صدام داخل الحضارة الغربية ، وإن نشأ فسيكون محدودًا ؛ لأن الغرب بتوحده الثقافى يستطيع أن ينسق فيما بينه لتوحيد قوته العسكرية وحماية مصالحه الاقتصادية فى ظل النظام الديمقراطى .

المنظرون الغربيون فى خوف دائم من بعث إسلامى ، حتى ولو كان الإسلام لا يمثل أكثر من كونه رقعة جغرافية تطمع فيها القوى الخارجية . ويبرر (أرنولد توينبى) المؤرخ الإنجليزى الشهير هذا الخوف ومبعثه بانتصار الإسلام على المسيحية فى جميع الصدامات التى قامت بينهما . ففى الإسلام قوة جاذبة ، جذبت إليه شعوبا بأكملها بغير صدام عسكرى فى القرنين الخامس عشر ، والسادس عشر فى وقت كانت بلاد المسلمين ضعيفة عسكريا واقتصاديا ولكن جاذبية الإسلام كانت تنتصر على المسيحية (١) .

فكرة الصدام لم يبتكرها هنتنجتون ولم تنشأ من عدم ، إنها موجودة فى عقل الغرب ووجدانه ويحركها منظرو الغرب من حين لآخر . ولكن ما الذى يخيف الغرب فى عصر العولمة من الإسلام ؟ الحضارة الغربية تحركها المصلحة أولا وأخيرا، وليس للدين سحر فيها كمؤثر فعال وفى ذات الوقت، فإن الإسلام أسس على ثوابت عقدية ، ومن شرط إسلام المسلم أن يتمسك بها ، ثم له أن يتحرك خارج هذه الثوابت فيشبع مقاصده الدنيوية بحسب قاعدة المصلحة المرسلة ، وهى وإن كانت دنيوية فإنها غير متناقضة مع الضوابط الشرعية . وهذا ما يؤرق منظرى الثقافة الغربية ذات الطابع العلمانى البحت .

---

(١) انظر : أرنولد توينبى : تاريخ البشرية ٢ / ٨٣ ، ١٥٦ ، ١٨٣ . ترجمة : نقولا زيادة ، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٨م .

هذه القوة الكامنة فى الإسلام التى تحفزه لحراسة ثقافته وحضارته وصيانتها ، تؤرق منظرى الغرب ومنهم (هنتنجتون) بالإضافة إلى جاذبية الإسلام التى نبه إليها (أرنولد توينبى Arnold Toynbee) بقدر أكبر من خوفهم من الصين التى تمثل الآن أكبر منافس للولايات المتحدة أكبر قوة فى الغرب - فى مجال الاقتصاد والنفوذ السياسى على جزء كبير من العالم . وفى مجال تطوير الأسلحة النووية والكيماوية وغيرها .

ولهذا يقدم (هنتنجتون) بصفته - أحد المشاركين فى تخطيط معالم السياسة الأمريكية الخارجية ومتغيرات البنية الأمنية والمصالح القومية الأمريكية - توصيات إلى إدارة الولايات المتحدة والدول الأوربية ، من أجل الحفاظ على الحضارة الغربية تتلخص فى الآتى » [١] .

١ - تأسيس نماذج أكثر فاعلية بين الولايات المتحدة وأوربا سياسيا واقتصاديا وعسكريا، وتنسيق سياساتهم حتى لا تستغل دول من حضارات أخرى الخلافات بينهم .

٢ - ضم الدول الغربية فى وسط أوربا مثل دول البلطيق وسلوفينيا وكرواتيا للاتحاد الأوربى ولحلف شمال الأطلسى .

٣ - تشجيع تقريب دول أمريكا اللاتينية والدخول فى تحالف بينها وبين الغرب.

٤ - تحجيم تطور القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية لدى العالم الإسلامى والصين .

٥ - وقف ابتعاد اليابان عن الغرب وتقاربها مع الصين .

٦ - قبول روسيا باعتبارها مركزًا للديانة الأرثوذكسية ودولة إقليمية رئيسة فى المنطقة لها مصالح فى تأمين حدودها الجنوبية مع الإسلام .

٧ - الحفاظ على التقدم التقنى والتفوق العسكرى الغربى على الحضارات

---

(١) د . الطيب زين الدين : بحث ص ١٠ ضمن كتاب : العولمة والتحولات المجتمعية فى الوطن العربى ، مرجع سابق .

الأخرى.

٨ ـ استغلال الخلافات والنزاعات بين الدول الإسلامية والكونفوشية.

٩ ـ مساندة الجماعات المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية فى الحضارات الأخرى.

وهذه التوصيات لا صلة لها بالصدام الحضارى، أو الثقافات المناهضة لثقافة الغرب،بل هى توصيات لصيقة بالأهداف السياسية والاقتصادية والعسكرية الغربية.

لقد لاقت أفكار صدام الحضارات معارضة ؛ لأنها نتجت عن ردود أفعال حيال مواقف نمطية لصورة المسلم فى وسائل الإعلام الغربى ، وبسبب كتابات استشراقية من أمثال (برنارد لويس) . ومواقف إسلامية رافضة للثقافة الغربية ، جعلت منظرو السياسة الغربية ينظرون إلى الإسلام على أنه الخطر القادم لتهديد حضارة الغرب ومصادمتها . ومواقف الغرب من المسلمين فى كل مناطق خطوط التقسيم تؤكد وقوف الغرب بقيادة الولايات المتحدة ضد مصالح المسلمين .

وهل يقبل عاقل فكرة تحالف إسلامى كونفوشى (صينى) والصين تستعبد مسلمين من أصل تركى فى الإقليم الذى ضمته الصين تحت اسم (سينكيانج) . هذا بالإضافة إلى أن الكونفوشيين أنفسهم الآن لا تربطهم أحلاف بالصين . ولا حتى علاقات مودة . (الصين / فيتنام على سبيل المثال) أما التعاون الصينى أو الكورى مع بعض الدول العربية ، فلا يزيد على كونه تعاونا يتمثل فقط فى بيع الأسلحة إلى بعض الدول الإسلامية كالعراق وليبيا وإيران ، فهى علاقات تحركها المصالح الاقتصادية المجردة، لا المذهبية .

ومن الغربيين الذين رأوا فى أفكار كتاب (صدام الحضارات) مجانبة للواقع (حايمى دى أوخيدو) سفير إسبانيا فى واشنطن . فقد رأى أن (هنتنجتون) مؤلف الكتاب ينتمى إلى الولايات المتحدة التى لا تملك تراثا حضاريا ، ولم يكن لها فى الماضى علاقة باتصال الحضارات وتقاربها ولذلك فإن الولايات المتحدة عندما ألقت بنفسها فى حرب الخليج لم تدرك حقيقة العالم الإسلامى وثقافته، ولا الأثر النفسى الذى تركته مواقف الولايات المتحدة فى العراق ، فى كل بلاد المنطقة ، فالبلاد العربية الإسلامية كالسعودية ومصر على سبيل المثال لن تقبل باجتياح

العراق للكويت ولكنها فى الوقت نفسه تكرهان أن تجيع الولايات المتحدة شعب العراق وتذله .

لقد قام (هنتنجتون) بمستخلصات رآها قطعية الدلالة على تبيين حقيقة الحضارات التى افترض أنها ستتصادم بصورة حتمية مع حضارة الغرب دونما فهم لطبيعة هذه الحضارات الثقافية ، ودونما امتلاك لمعايير يستند عليها ، ومن ثم فإن ما قدمه من فكر ينقصه الفهم العميق لحضارات الغير ، ومن ثم فإن أطروحته برأى (أوخيدو) تمثل خداعا فكريا ؛ لأن خطابه انطلق من مركزية أوربية تطمع فى أن تكون كونية، ومن هنا افترض حدوث هذا الصدام من جانب الحضارات المضادة خاصة الحضارة الإسلامية متحالفة مع الحضارة الكونفوشية . ثم ألا يمكن توجيه السؤال التالى : ألا يوجد من الخلاف الثقافى بين الحضارة الإسلامية السماوية وبين الحضارة الكونفوشية اللادينية أكبر من ذلك الخلاف الموجود بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية (ديانة الغرب) إن ما يشهده العالم الآن ليس إلا استمرارا للتقريب الثقافى بالمفهوم الغربى للعالم كله ، الأمر الذى ترفضه الدول الإسلامية وغيرها من الأمم الآسيوية، إن ما يحدث اليوم بحسب رأى (أوخيدو) : « تواصل عملية التغريب الثقافى للعالم بأسره ، وإن المختصين يرون فى كل من النزعة الكونفوشية والإسلام ردتى فعل على التحول الثقافى الجارى، فهاتان النزعتان ليستا تعبيرًا عن رغبة فى تأكيد خصوصية ثقافة ما ، وإنما ردتا فعل مضادتان للحداثة »[1] كل منهما على حدة وبطريقتها الخاصة .

إن التوتر الحادث من الأبعاد الثقافية العالمية المتباينة لا يمكن تجاهله ، ولكن الصدام الذى يتخيله الغرب لا يمكن أن يقوم على أسس افتراضية ، وإنما على أسس تحددها مصالح الشعوب فى المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية .

لقد حاول (هنتنجتون) أن يفترض تحليلا للواقع السائد فى العالم بعد تفكك الاتحاد السوفييتى وتحرر كثير من الدول من سيطرة التبعية للثقافة الماركسية التى فُرضت عليها لمدة أكثر من نصف قرن ، فضلا عن تعاظم الأنماط والنظم الجديدة فى مجالات الاقتصاد والاتصال وحاجة الولايات المتحدة الأمريكية إلى عولمة كل

---

(١) مجلة النهج ، العدد ٤٠ ، ص ٢٠٥ .

الأنماط الثقافية فى نمط كونى واحد . يضاف إلى ما سبق حالة القلق التى تعانى منها الولايات المتحدة بسبب التغيرات التى حدثت فى جغرافية الدول بعد تفكك الاتحاد السوفييتى ، وما صحبه من تغيرات فى القوى العسكرية والاقتصادية . فقد ظلت الولايات المتحدة تبنى استراتيجيتها وتسلح قواتها العسكرية بأنظمة تضمن لها التفوق القارى ، وإذا بها تواجه بعض النزاعات التى لا تحتاج إلى هذا النوع من التسليح ، فضلا عن ظهور تفوق نووى فى بلاد خارجة عن دائرة الصراع القديم، هذا التفوق كونفوشى (الصين وكوريا الشمالية) وهندى هندوكى (الهند) وإسلامى (باكستان وإيران) كما أن هذه الدول نفسها تمتلك السلاح البيولوجى الكيماوى . ولها قدرة فائقة على صنع الصواريخ حاملة الرؤوس النووية ، كما أن هناك قوى اقتصادية (بوذية) فى اليابان يمكن أن تنافس القوى الاقتصادية الغربية . فهى قوة اقتصادية مصاحبة لتقدم تقنى ، ويمكن قول الشىء نفسه فى تطلعات مسلمى إيران وماليزيا وسنغافورة وإندونيسيا الاقتصادية والتقنية .

هذا ما أرَّق الولايات المتحدة ويؤرقها ، وهى الدولة التى لم تحس بأن لها قومية يوما ما ، ومن ثم فلم تعد الدولة الأمة ، كما كان يصنع الفخر القومى صنيعه بدول أوربا فى القرن التاسع عشر . ولأن فكرة الدولة الأمة لم تعد كافية لإيجاد الأمان السياسى والاقتصادى كان على الغرب بقيادة الولايات المتحدة أن يبحث عن صيغ جديدة مثل الوحدة الأوربية ، ووحدة أمريكا الشمالية ووحدة أمريكا الجنوبية. وهى تكوينات طبيعية لعالم ما بعد الحداثة . أو ما بعد الصناعى. حتى أتت الولايات المتحدة بآخر أفكار الغرب ، بفكرة الكونية التى تضم كل الوحدات : الآسيوية والأوربية والأمريكية ـ وربما الإفريقية أيضا ، فى وعاء أمريكى.

لكن الذى لم يعمل (هنتنجتون) حسابه فى أطروحته يتمثل فى طرح السؤال التالى:ما موقف الدول المنتجة للمحاصيل الزراعية فى إفريقيا وآسيا وأستراليا من حلبة الصراع الحضارى ؟ إن هذه البلاد التى تعتمد على نتاجها الزراعى بالدرجة الأولى فى حاجة إلى تنظيمات وطنية تحميها من ترويع النظام الرأسمالى ما بعد الصناعى لها والتحكم فيها وفى أسعار منتجاتها ولكن النظام الكونى يرغب فى إزاحة النزعات القومية لضمان مزيد من الاستغلال لخامات الشعوب الفقيرة .

ومزيد من السيطرة على أسواق بلادهم ذات الكثافة العددية . وليتخيل العالم أن الخامات الإفريقية ، والطاقة النفطية العربية يحوزها الغرب ويعيد تصنيعها وتسويقها فى دول آسيوية كالصين والهند وإندونيسيا (وهم نصف سكان العالم تقريبا) ثم يعيد تسويقها ويجنى الأرباح اللامحدودة .

إن العالم يمكن أن يفيد من ديمقراطية الغرب فى المساواة فى الحقوق المدنية وأمام القانون ، وحرية المال بشرط أن يحترم الغرب ثقافة الآخرين ومعتقداتهم ، وأن يترك العالم يختار من العولمة ما يصلح له من الأخذ بوسائل العلم الحديث والاتصال أما عولمة الهيمنة فلن يقبلها أحد كذلك فلن تقبل عولمة « الأبناء غير الشرعيين التى زادت فى الولايات المتحدة ثلاثة أضعاف ما كانت عليه منذ عشرين سنة » [١] . ومع ذلك فإن تبادل المصالح بين الحضارات يجسد الجانب الأخلاقى فيها ، ويجعل كل حضارة تفيد من الحضارة الأخرى بقدر ما تفيد منها ؛ لأن مسيرة الحضارات تسير كالنهر الجارى بلا توقف ، وإن حدثت تحولات لروافده ، وعند ذلك يطمئن (هنتنجتون) على أمان الولايات المتحدة ، دون أن يخشى من خرابها ، وليطمئن (هنتنجتون) على أن الغرب إذا فقد الهيمنة غير الأخلاقية على شعوب من حضارات أخرى سيكسب أخلاقيا فى مجالات ترسيخ نمط التقدم العلمى ووسائل الاتصال النافعة لكل البشر والنظم السياسية ذات المثل العليا [٢] .

لكن الظروف تخلق حالات فى أحيان كثيرة تتنافر مع تفكير منظرى السياسات العظمى . وعلى سبيل المثال فإن (فرانسيس فوكوياما) الذى رأى حتمية توقف التاريخ عند النظام الأمريكى ، يفزع من الانهيار العظيم الذى أتى على قواعد المجتمع الغربى وقيمه وأعرافه. والذى أرّقه أن هذا الانهيار نتج عن التقدم العظيم الذى حققه المجتمع ذاته ، وهو ما حذر منه (هنتنجتون) من أن العالم الإسلامى لا يزال يمسك بقيم أخلاقية عظيمة فى مقابل التفكك والانهيار الأخلاقى الحادث فى المجتمع الغربى المتمثل فى ارتفاع معدلات الجريمة وتراجع عدد السكان لانخفاض معدلات الإنجاب بسبب عدم التمسك بتكوين أسر شرعية ، واختفاء الثقة بين الناس .

---

(١) بنيامين سبوك: فن الحياة مع المراهق ترجمة: منير عامر، ص ١٠١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م .

(٢) انظر: بحث: أطروحة صدام الحضارات، ماهر الشريف. النهج السورية، العدد ٤٠، ص ١٩٤ وما بعدها.

يرى (فوكوياما) أن هذا الانهيار طبيعى ؛ لأنه نتج عن انتقال المجتمع من اقتصاد صناعى إلى اقتصاد قائم على المعلومات ، وهو ما حدث فى أوربا والولايات المتحدة . والسبب الرئيس فى ذلك هو الثقافة السائدة فى المجتمع بفعل الثورة التكنولوجية ومنتجاتها مثل وسائل تحديد النسل ، وممارسة الجنس دون قلق من الإنجاب ، وتقنين الإجهاض وزيادة القدرة على الحد من النسل . كل ذلك ضرب نظام الأسرة فى مقتل ، بعكس المجتمعات الشرقية ، والإسلامية بصفة خاصة التى تجعل للمرأة مكانة رفيعة فى الأسرة والمجتمع .

وإذا كان وضع المجتمع الذى يسيطر عليه التحلل من الأخلاق ، ينتهى إلى الانهيار فإن على هذا المجتمع أن يسعى لإيجاد قواعد أخلاقية لتحل محل الأخلاق التى قضى عليها عصر المعلومات خاصة أن الإنسان ـ برأى (فوكوياما) ـ فى المجتمعات الغربية قادر على التنظيم الذاتى ، وعلى إعادة تشكيل نظام اجتماعى جديد . على أن يبدأ هذا النظام من الناس أنفسهم فلا يفرض عليهم ، فهو يعتمد على رغبة الناس فى إعادة بناء رأس مال اجتماعى ، بديلا عن النظام الاجتماعى الذى دمرته ثورة التكنولوجيا . يقوم على قبول المسؤولية عن الأسرة والأطفال وأهمية الزواج والتخلى عن الرغبات الشخصية المدمرة لكيان الأسرة . ويتفاءل (فوكوياما) فيرى أن الشباب فى مجتمعات الغرب يمكنهم ذلك ولو لم يقم على أسس دينية ؛ لأنهم ليسوا كائنات بلا موارد أخلاقية فطرية (١) . ولكن هيهات أن يصدق زعمه .

---

(١) انظر : عامر سلطان ، عرض كتاب : الانهيار العظيم لفوكوياما ، صحيفة الأهرام فى ١٤ مارس ٢٠٠٠م.

أمريكا والدول المحورية

U.S.A and the pivotal States

هذا عنوان كتاب يكمل رؤى وطموحات (فوكوياما) و(هنتنجتون) ويصور الرؤية الأمنية للولايات المتحدة فى العالم - خاصة العالم العربى - الإسلامى . ألفه المؤرخون الأمريكيون : بول كيندى paul kenncdy وروبرت شاس Robert Chase وإميلى هل Emily Hill وهى الرؤبة الاستراتيجية كما يريدها البيت الأبيض ، ووزارة الدفاع الأمريكية قدم هؤلاء المؤرخون السياسيون رؤاهم فرأوا أن هناك تسع دول استراتيجية مهمة لأمن الولايات المتحدة ، وأن الهيمنة عليها مسألة بغاية الأهمية وهذه الدول هى : مصر وإندونيسيا والهند وباكستان وتركيا والجزائر ، والبرازيل والمكسيك وجنوب إفريقيا.

وقدمت الإدارة الأمريكية أطروحات هذا الكتاب لخبراء أمريكيين متخصصين فى شؤون هذه الدول فوافقوا عليها وأكدوا أن مصر وتركيا وباكستان وإندونيسيا والمكسيك، دول فى غاية الأهمية الاستراتيجية لأمن الولايات المتحدة ، وتأتى البرازيل والهند بعدها فى الأهمية ، وأن الجزائر وجنوب إفريقيا أقل أهمية ، ولكنهم أضافوا المملكة العربية السعودية والأرض الفلسطينية .

ويلاحظ أن عدد هذه الدول إحدى عشرة دولة منها تسع دول فى الاختيار الأول بالإضافة إلى دولتين فى الاختيار الثانى . وأن سبع دول منها دول إسلامية وإسلامية عربية، هى مصر وتركيا وباكستان (ومعها أفغانستان فهى بوابتها) وإندونيسيا والجزائر ، والمملكة العربية السعودية وفلسطين . كما يلاحظ أن الهند فى قلب العالم الإسلامى، وبها مسلمون يمثلون أكبر أقلية فى العالم (٢٠٠ مليون نسمة) وأن جنوب إفريقيا دولة ليست بعيدة جغرافيا عن العالم الإسلامى . ولم يخرج عن العالم الإسلامى من الدول المحورية المختارة إلا البرازيل والمكسيك، وهما جارتان للولايات المتحدة التى ترتبط معهما بمصالح .

إذن فالعالم الإسلامى يمثل بؤرة اهتمام الولايات المتحدة فى عصر العولمة ، كما كان يمثل بؤرة اهتمام الإمبراطوريات الإميريالية منذ أواخر القرن الثامن عشر . وليس هذا الأمر بمستغرب فقد رأى أرنولد توينبى Arnold Toynbee فى ستينيات القرن العشرين أن العالم الإسلامى يمثل الموقع الجغرافى الأعظم فى العالم، وأنه الممر الجوى والبحرى الذى يربط شرق العالم وغربه وشماله وجنوبه، كما أنه يحتوى على أعظم وسائل الطاقة فى باطنه وأعظم أنواع الغذاء على سطح أرضه ، وبه من البحار والأنهار ذات الثروات الحيوانية ما يجعله أعظم أمة فى العالم وأقواها لو اتحدت كلمتها . من هنا كان العالم الإسلامى مهما لكل القوى فى العالم، فسعت فرنسا للسيطرة عليه سنة ١٧٩٨م، وسعت إنجلترا سنة ١٨٨٢ ، وحاولت روسيا البلشفية منذ نكبة فلسطين سنة ١٩٤٨م أن تقطف بعض ثماره إلى أن انهار الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٩٠ م.

ويرى المعلقون السياسيون والعسكريون ـ بعد انهيار الاتحاد السوفييتى ـ وسقوط الشيوعية ، وهيمنة الولايات المتحدة على السياسة الدولية الأهمية الجغرافية السياسية للعالم الإسلامى للولايات المتحدة الأمريكية،بعد انفرادها بالنفوذ والقوة والأيديولوجيا، وهو ما عبر عنه (فوكوياما) . نهاية التاريخ ، أى نهاية أيديولوجيات ما بعد العصر الصناعى ، وسيادة ثقافة عصر تكنولوجيا المعلومات الذى تقدمت به الولايات المتحدة على سائر دول العالم ، وممارستها لسياسة الالتفاف والهيمنة التى نتج عنها أفكار كثيرة مثلت فى مجموعها ثقافة العولمة ، منها على سبيل المثال :

١ ـ نهاية التاريخ لفوكوياما .

٢ ـ صدام الحضارات لهنتنجتون .

٣ ـ عن العرب وبقية العالم لمحبوباتى .

٤ ـ الفوضى المقبلة لكوبلان .

٥ ـ مناطق السلام ومناطق التحول لسنجر وبلادفسكى .

٦ ـ حروب الموجات الأولى والثانية والثالثة لتوفلر .

٧ ـ الدول المحورية لبول كيندى وشاس وهيل .

٨ ـ الانهيار العظيم لفوكوياما .

٩ ـ تحول السلطة لتوفلر .

وهناك كتب أخرى كثيرة ، تعبر عن ثقافة العولمة .

ويعمل منظرو الاستراتيجية الأمريكية مع خبراء الأمن القومى فى الإدارة الأمريكية على إيجاد تبريرات الثقافة الاستراتيجية الأمريكية،ومن بين هؤلاء خبيرا الأمن القومى: (دونالد دانييل) و(أندرو روس) اللذان تلقفا كتاب : الدول المحورية ليؤكدا للإدارة الأمريكية أهمية العمل بفكر (بول كيندى) وزميليه ؛ لأنه يساعد على استقرار العالم، ولأن الولايات المتحدة هى الكاسب الوحيد من استقراره . ومن ثم فيجب الحفاظ على صداقة هذه الدول المحورية، وذلك يحتاج إلى سياسيين من الطراز الأول لإيجاد الصورة المثلى التى تظل بها الولايات المتحدة تتمتع بصفة أعز الأصدقاء لهذه الدول .

ولكن هؤلاء المنظرين لسعادة الولايات المتحدة يحذرون من أن يقصر الساسة الأمريكيون كل اهتمامهم على المشكلات التى تواجه الولايات المتحدة . كلما استجد نزاع فى منطقة من العالم ، بقدر أقل من العناية باستقرار هذه الدول ، كما أنهم ينبهون ساستهم إلى أن المشكلات القديمة التى تركزت فى الماضى بسبب سياسة الاتحاد السوفييتى (الشيوعية) المضادة للسياسة الأمريكية قد انتهت ، وحل محلها مشكلات من نوع جديد تتمثل فى الانفجار السكانى فى الدول المحورية ، ومشكلات البيئة والفقر والعنصرية والصدامات بسبب العرق والدين ، وعدم احترام حقوق الإنسان . ووجود الإرهاب ، وكلها مشكلات لا ينفع معها الحل العسكرى ، بل تحل بإعادة تشكيل العقل والتفكير الذى يتواءم مع عصر العولمة ، فى هذه الدول الإسلامية المحورية .

إن هذه الأفكار تكمل أفكار (فوكوياما) عن ضرورة وحدة الثقافة للعالم ، وفكرة (هنتنجتون) فى صدام الحضارات عن ضرورة تجميع العالم تحت ظل ثقافة واحدة ، هى الثقافة الغربية ذاتها .

فى عهد الرئيس الأمريكى (بوش) قدم له وزير دفاعه (ديك شينى) تقريرا يفيد أن الولايات المتحدة صارت القوة الأعظم فى العالم بلا منازع ، وأن الاتحاد السوفييتى لم يعد ذلك الخصم المشاكس ومعه حلف وارسو . بل لم يعد فى مقدوره تحدى النظام الديمقراطى ولم تعد هناك تحالفات معادية تمثل قوة مضادة للولايات المتحدة . بل إن حلفاء الولايات المتحدة وأصدقاءها فى العالم يمثلون قوى لا يستهان بها تعضد قوة الولايات المتحدة ، وباختصار شديد فإن الولايات المتحدة من الناحية الاستراتيجية صارت أقوى من أى وقت مضى فى تاريخها كله . ومن ثم فواجب الإدارة الأمريكية أن تحافظ على هذه المكاسب ، الأمر الذى دفع المخططين الاستراتيجيين فى عهد الرئيس (جورج بوش) إلى تحديد أولويات إقليمية فى دول حيوية فى أوربا وآسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية. أى أن استراتيجية الأمن القومى فى حكم (بوش) ركزت على ضرورة وجود منظمات إقليمية تحرس أمن الولايات المتحدة ومصالحها، وهو ما عرف بالمنظمات الإقليمية لا الدول الإقليمية.

وفى حكم كلينتون تحولت فكرة استراتيجية أمن الولايات المتحدة من استراتيجية المنظمات الإقليمية إلى نظرية الدول المحورية ، وبنى المخططون لاستراتيجية الأمن القومى للولايات المتحدة ثلاثة أنواع من التهديدات لأمن الولايات المتحدة الأمريكية وتهديد مصالحها هى :

١ ـ تهديد لأمن الولايات المتحدة ذاتها ، أو لدولة متحالفة معها ، أو ترتبط بها بمصالح ما [إسرائيل على سبيل المثال] .

٢ ـ بروز دول غير صديقة بأسلحة الدمار الشامل؛ لأن ذلك يهدد الولايات المتحدة ومصالحها فى العالم مثل : العراق وكوريا الشمالية وباكستان وإيران ، وتستثنى إسرائيل (أكبر دولة عدوانية فى العالم) لأنها دولة صديقة للولايات المتحدة ، ومرتبطة معها بصداقة ، وقوتها تحمى مصالح الولايات المتحدة بالمنطقة العربية .

٣ ـ تهديدات من نوع آخر مثل : ترويج المخدرات عالميا ، وما يرافقه من الجريمة المنظمة وتهديد البيئة بالتلوث ، والتفرقة العنصرية ، وعدم احترام حقوق الإنسان .

وهذه الأفكار صدرت من مفهوم أمريكى ، بحسب المصالح الأمريكية ؛ لأن الولايات المتحدة تجعل الثقافة الغربية هى معيار الحق والعدل . وتطبقها بمعيار الفلسفة البرجماتية التى تشكل العنصر الرئيس فى تربية الفرد الأمريكى . دون النظر إلى المشكلات التى أفرزتها هذه الثقافة ، مثل العنف ، وتلوث البيئة قرين التقدم فى مجال الصناعات المتقدمة ، ومحروقات الطاقة ، ومشكلات التفرقة العنصرية ومشكلات الزنوج التى لم تحسم بعد ، وتفشى المخدرات والشذوذ الجنسى بشكل وبائى .

إن تراكمات الأفكار الاستراتيجية تزداد باستمرار من أجل تحقيق المزيد لأمن الولايات المتحدة . ولكن الجديد ما حدث فى عصر العولمة ـ بعد انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفييتى . هو خوف الولايات المتحدة من خصم تراه عنيدًا ، لا يملك القوة العسكرية والاقتصادية التى تمتلكها الولايات المتحدة ، وكذا القوة الاقتصادية ، ولكنه يمتلك ما هو أقوى منهما القوة الثقافية وقوى أخرى مجهولة تضعف أمامها القوتان الاقتصادية والعسكرية للولايات المتحدة ، وهذا ما دفع الضمير الأمريكى إلى تفويض (هنتنجتون) إلى تأليف كتابه : (صدام الحضارات) و(فوكوياما) للدعوة إلى وحدة الثقافة للعالم تقوم على الإيمان بقيم رأسمالية ما بعد التقدم الصناعى فتبدى لهما أن عدو الغرب الكامن هو الإسلام ، ولا غرابة فى ذلك ، فهل ينتظر من (هنتنجتون) اليهودى ، و(فوكوياما) ابن الثقافة البوذية ـ البروتستانتية أن يكونا مخلصين للإسلام ؟

إن حكم (كلينتون) وما كتب فيه من لدن المنظرين الاستراتيجيين ، ليس إلا امتدادًا لمن كان قبله واستمرارا له ، فى تنظيرات الصيرورة الأمريكية . ولكن تهديدات ما قبل عهد كلينتون للقوى المضادة للولايات المتحدة فى العالم لم تعد ذات قيمة ؛ لأن الولايات المتحدة صارت من القوة المادية بحيث لا يمكن مقاومتها. وباجتماعها مع أصدقائها فى حلف الناتو NATO صارت قوة عظمى سياسيا واقتصاديا وصناعيا وتجاريا وفى خارج أوربا فإن الاقتصاد اليابانى الذى شهد طفرات هائلة فى النصف الثانى من القرن العشرين يساند الاقتصاد الأمريكى ، وتحاول الصين الآن التقارب من الولايات المتحدة فى مجال التجارة ، ولا يمكن تجاهل أهمية كندا الجارة الشمالية للولايات المتحدة والبرازيل الجارة الجنوبية لها .

فى خدمة الاقتصاد الأمريكى . إذن فما الذى ترهبه الولايات المتحدة الأمريكية ؟

كانت استراتيجية الأمن الأمريكى قبل حكم الرئيس (جورج بوش) تنظر إلى قوتى الاتحاد السوفييتى والصين، كانت تسمى خطة مواجهتها بخطة الردع التمييزى. وبينما كان (ريجان) يدعم خطته فى حرب الكواكب ، كانت الإدارة الأمريكية تسعى إلى أن تكون قوة الردع التى تمتلكها متفوقة . ثم تقوم خطتها فى بقية دول العالم (الدول الآخذة فى النمو) بالتدخل الانتقائى فى مراكز مهمة فى العالم ؛ ثم بدأ شعار النظام العالمى الجديد فى مواجهة الفراغ الاستراتيجى النظرى ، ثم أخذ المنظرون الاستراتيجيون يقدمون نظرية الدولة المحورية لملء الفراغ .

ومع أن الولايات المتحدة تملك القوة العسكرية والقوة الاقتصادية الأعظم كما تملك أعظم شبكات الاتصال والتقنية الأعظم فى العالم ، فهى لا تملك الذكاء الكافى لتسييس قدراتها السياسية لكى تتكافأ مع قدراتها العسكرية والاقتصادية ، ولهذا اخترعت نظرية القوى العالمية الشريرة التى تطارد الحضارة الغربية وثقافتها ، وهى الحضارة الإسلامية متحالفة مع الحضارة الكونفوشية .

إن هذه النظرية سيئة الظن بالإسلام تؤكد أن السياسة الأمريكية ينقصها الدقة.

إن الولايات المتحدة ، وهى تنبه إلى أن العالم يجب أن يكرس كل اهتمامه إلى القضايا الكوكبية (العولمة) تعمل فى الوقت نفسه من أجل بلورة فكرة الدول المحورية وجعلها حقيقة واقعة. وتفترض أن تكون هذه الدول المحورية صديقة للولايات المتحدة، بل تفترض فيهم أن يكونوا شركاء عالميين للسياسة الأمريكية بمبادرة من جهتهم للقضاء على الإرهاب والجريمة والنزعات العرقية ، والانفجار السكانى ، واحترام حقوق الإنسان وهى وحدة القضايا التى تهم كل سكان كوكب الأرض . ولما كان ذلك كله بمفهوم الثقافة الأمريكية، فإنه يسلتزم نوعا من الذكاء الكاذب من قبل السياسة الأمريكية ، وهى تتعامل مع الدول المستقطبة فى النظام الكوكبى مثل منح رؤساء هذه الدول جوائز مثل جائزة السوق العالمية Global Market Place من مجلس رجال الأعمال المهتمين بإفريقيا والذى يضم فى عضويته ٢٠٠ من المؤسسات الأمريكية المهتمة بدعم العلاقات التجارية بين إفريقيا والولايات المتحدة ، وتمنح ـ بزعمهم ـ لرؤساء حققوا لشعوبهم سياسات أدت إلى

زيادة نمو دخل الفرد والاستقرار السياسى والديمقراطى وسيادة القانون والخصخصة وبناء البنية الأساسية (١) .

ويدخل فى سياسات الغرب هيمنة إعلامية ، كتلك التى صاحبت مشهد الوداع المهيب للملك الأردن حسين بن طلال . فقد كانت جنازته أشبه بمسيرة قمة لرؤساء العالم وملوكهم ، وكانت مكافأة فى الوقت نفسه لما قدمه ملك الأردن الراحل من خدمات للغرب وإسرائيل . ومع أن الملك حسين كان يعتبر حاكما يحفظ بعض التوازنات المحلية فى المنطقة العربية ، وأنه استطاع أن يحكم دولة فقيرة تعتمد على الإعانات من الخارج بمستوى معيشة معقول وسط عالم فقير ، إلا أن مشهد وداعه كما يرى د . إدوارد سعيد صنعته آلة الإعلام الأمريكى الجهنمية (شبكة سى إن إن C . N .N) إن هذه الشبكة تضع أمام المشاهد ما يجعله يحس بأنها تضع أمامه « كل ما يحتاج المرء إلى معرفته عن العالم مختزلا » (٢) ؛ لأن هذا النوع من الإعلام يقوم بتزييف وعى المتلقى من العالم الثالث . وإخضاعه لغزو ثقافى، وتأكيد قابلية الانقياد لثقافة الأقوى، مع الإحساس بخواء الثقافة الأصلية، وعجز أصحابها أمام الثقافة الغازية وهذه الحالة يصورها إدوارد سعيد بقوله : «العرب يتابعون ما تبثه محطة (سى إن إن C . N .N) كمرجع عن العرب ، ويرافق الموقع المهيمن الذى تتمتع به ، اعتقاد لا يشوبه أى تحفظ ، ويكاد يكون غير واع لدى المشاهد بأن الأحداث تسجل بأمانة لدى وقوعها » (٣) .

ومع كل ما سبق فإنه لا يمكن التسليم بنجاح الخطط الاستراتيجية للأمن الأمريكى، فى ظل المصالح الأمريكية وحدها ، فالموقف العدائى الأمريكى لكل دولة لا تقبل الصداقة الأمريكية نبه كثيرا من الدول إلى قومياتها فى إطار مصالحها الوطنية ، ولو كانت داخل حلف الناتو نفسه التى تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية . فأوربا الغربية التى يرهبها التنين الأمريكى كونت اتحاد الدول الأوربية، وجعلت لها عملة موحدة (اليورو) .

ومع اعتراف هذه الدول بقوة الردع العسكرية الأمريكية ، إلا أنها كونت باتحادها قوة اقتصادية تنافس القوة الأمريكية . وكذلك فعلت اليابان مع الدول

(١) صحيفة الأهرام فى ٥ مايو ١٩٩٩م الصفحة الأولى .

(٢ ، ٣) الأهرام ، ملحق الجمعة ١٩ / ٣ / ١٩٩٩م .

المتقدمة صناعيا وتجاريا فى آسيا (منظمة الآسيان) .

ومن ناحية أخرى فإن سياسة الردع الأمريكية تقابل رفضا من دول ضمن حلف الناتو NATO (اليونان الأرثوذكسية) التى ترفض التدخل الأمريكى فى البلقان وتنتقده انتقاداً مباشرا ضد صربيا (الأرثوذكسية) ، فقد دعا رئيس الوزراء اليونانى كوستاس سيميتس إلى إيجاد دور شرعى للأمم المتحدة لحل أزمة (كوسوفا) حلا يراعى وحدة الأراضى اليوغسلافية ويكشف عن موقف بلاده المناهض لسياسة حلف الناتو قائلا :

« نحن ندرك أهمية المنظمات الدولية فى حماية الأمن الإقليمى ، غير أنه لبس فى مقدور الناتو العمل من خلال مبادئه بعيدا عن قواعد الشرعية للمنظمات الدولية التى تعمل تحت مظلة الأمم المتحدة ، وأهمية أن يكون لمجلس الأمن دور فى أعمال حلف الأطلنطى مع أن اليونان أحد الأعضاء ١٩ (التسعة عشر) لحلف الناتو » (١) .

ولا تقف المعارضة عند بعض دول أوربا الأرثوذكسية كاليونان ـ فهنا معارضة أشد من قبل الأقليات الإسلامية داخل أوربا التى تختلف ثقافاتها اختلافا جوهريا عن الثقافة الأمريكية .

يعبر عن هذا الاختلاف الشيخ مصطفى زير رئيس علماء البوسنة فى قوله : «لقد رسب الغرب فى مجمله، رسب عسكريا وروحيا وثقافيا فهو يصنفنا (مسلمى البوسنة) تبعا لمقياس غريب ، فالحرية والانفتاح لديه تعنى حرية الانفتاح على النفايات الثقافية للغرب مثل : الجنس والشذوذ والإباحية ، أما التقنية المتقدمة والعلم والتقدم ، فليست من حقنا » (٢) .

---

(١) الأهرام ـ ملحق الجمعة فى ٥ / ٥ / ١٩٩٩م ص ٤ .

(٢) كتاب العربى ص ١٥٨ العدد ٣٤ فى أكتوبر ١٩٩٨م .

خاتمة الفصل

(١)

للثقافة مفهوم عام فى المعاجم وكتابات المتخصصين ، ولكن لكل ثقافة ما يدل على أنها ذات خصوصية تنفرد بها ، أى أن هناك داخل الثقافات مفاهيم منضبطة تشترك فيها كل الثقافات ، ومفاهيم أخرى تتباين بها . وإذا كان مثقفو الغرب ومفكروهم أصحاب المواقع الراسخة المؤثرة فى الثقافة فى العالم المعاصر ينشدون ثقافة بلا حدود تواكب الاتجاه العولمى وتسايره كما يبدو فى الرؤيا الثقافية فى الغرب ، فإنهم فى حقبقة الأمر يصنعون مبررات سيطرة الثقافة الغربية بلا حدود «وهو الأمر الذى قطع شوطا مهما من الإنجاز على أرض الواقع ، فى ظل اتجاه متزايد نحو عالم بلا حدود ثقافية » (١) . كما عبر عنه أحد مثقفى العالم الثالث .

وهذه الفكرة ـ فكرة ثقافة بلا حدود لتواكب العولمة التى يروج لها مفكرو الغرب ، خاصة فى الولايات المتحدة ، تبزغ فى العالم فى نفس الوقت الذى يحافظون فيه على مقومات الدولة القومية لأنها أساس : « الوحدة الرئيسة والمحورية فى النظام السياسى العالمى المعاصر » (٢) .

إن (صمويل هنتنجتون) ومعه (فرانسيس فوكوياما) يوهمون العالم بنبوءة تحقق وحدة ثقافية للعالم بعيدة عن تعقيدات القومية والعرقية والدين يجتمع حولها العالم ليكون عالما بدون صدامات ، وكأنهما على غير دراية بحقيقة الدور شديد العنصرية الذى تقوم به الولايات المتحدة الدولة التى يفكران من أجلها .

على الباحث العربى قبل الولوج فى خضم الثقافة المعاصرة أن يتيقن من أمور فى غاية الأهمية أهمها أن المثقف العربى يعيش فى تيه ثقافة الغرب وطرق التفكير التى تدور فى فلكها، ولانكاد نجد مفكرا واحدا مبدعا، وإن اختلفوا فى توجهاتهم،

---

(١) د . عبد الخالق عبد الله : العولمة ، عالم الفكر ، ص ٨١ أكتوبر ١٩٩٩م ، ٢٨ عدد ٢ .

(٢) د . هالة مصطفى : العولمة ودور جديد للدولة ، مجلة السياسة الدولية العدد ١٣٤سنة ١٩٩٨م ، ص٤٣ ـ ٤٧ .

فمنهم من تمسك بالماضى وتعلق بحباله ، دونما نظر إلى محدثات العصر ، ومستجداته ، وآخرون تشبعوا بأفكار وأيديولوجيات ثقافية غربية لا تصلح إلا لما وجدت له ، أو كانت من نتاجه ، وهم من جهات اليمين واليسار ، أشد تعصبا من هؤلاء الذين يلصقون بهم تهمة الجمود والعودة إلى عصور الإظلام . وبين هؤلاء وهؤلاء يقف فريق ثالث أراد أن يمازج بين الأصول والمستحدثات فميَّع الأمور إن لم يكن أفسدها . ثم وقف الجميع يسفهون أفكار بعضهم البعض .

لكن إذا أخذنا فكرة عولمة الثقافة التى تصورها (هنتنجتون) و(فوكوياما)، فهل هى تفاعل من ثقافات العالم لصهرها فى ثقافة واحدة ،أم ستكون ظاهرة مركزية الثقافة هى السائدة وتهميش الثقافات الأخرى خارج هذا المركز . إن (هنتنجتون) بصفة خاصة يدعو الشعوب كلها للدخول فى إطار مشروع ثقافى غربى تكون الولايات المتحدة رائدته ، ويطالب الشعوب ـ لكى تكون مستعدة للدخول فيه ـ بأن تتعلم اللغة الإنجليزية وتتكلمها ؛ لأنها سياج هذه الثقافة .

إن رؤية (هنتنجتون) للثقافة لا تقف عند هذا الحد ، ولكن له نظرة شديدة العداء للثقافة الإسلامية ، فهو يرى أنها غير مستعدة للتنازل عن ثوابتها وأصولها . ويتهم المسلمين بأنهم يتمحورون حول ما يعتقدون أنه امتلاك لحقيقة مطلقة .

الإسلام لا يضاد الثقافة ولا يضاد الإبداع ، ويحترم الإيجابى من الثقافات الأخرى وإذا كان من السمات العامة للثقافة : التنوع فى الرؤى ، والنظرة إلى الكون والطبيعة وطرق التفكير والإبداع وموقف الإنسان من كل ذلك ،فإن الإسلام لا يضاد الحقيقة ، ومن ثم فلا يعيب المسلمين تمسكهم بنصوصه المقدسة، إلا إذا رفضوا الاجتهاد والقياس والرأى. فهم فى عصور الازدهار العلمى والفنى، جعلوا النص مقدسا ولم يختلفوا عليه ومع هذا اجتهدوا وعللوا بالرأى المحمود وقاسوا ، وكان الاجتهاد ظاهرا بعد النص فى مذاهب فقهاء المسلمين، فقد جاء أبو حنيفة بالاستحسان والعرف وجعلهما من قواعد مذهبه ، وكان استحسان رأى من آراء يؤخذ به بعد مناقشة ودراسة مع تلاميذه ، وقد يكون الرأى المستحسن لأدناهم فيأخذ به ويمضيه . واجتهد الإمام مالك فجاء بقاعدة المصالح المرسلة ، فأرسى بذلك قاعدة أصولية فقهية بلغت أعلى رقيها عند أبى إسحاق الشاطبى فى أصل المقاصد ، وابتكر الشافعى علم أصول الفقه على أسس شرعية وعقلية ولم

يقف عقله ـ رحمه الله ـ عند مرحلة بعينها فى الفقه ، فكان يغير من آرائه كلما اكتشف جديدا أو صوابا . ولم يكن العلماء فى جهودهم بأقل من الفقهاء ولم يمنعهم تمسكهم بأصول الدين من الإبداع فى كل العلوم مثل الكندى والفارابى وجابر بن حيان والبيرونى وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم . ولقد عبر أبو موسى الخوارزمى فى مقدمة كتاب (الجبر والمقابلة) ـ وهو من أعظم إنجازات العقل الإنسانى فى كل العصور ـ عن حقيقة وصل العلم بالدين عند المسلمين فقال : إنه ألف كتابه تقربا إلى الله تعالى ليكون عونا لعلماء الفروض فى حل مسائل فى المواريث استشكلت عليهم ، فخدم به الدين والدنيا ، وكان ابن رشد الحفيد الذى غلب عليه المنهج العقلى فى التفكير يحترم الأصول وألف فى الفقه ، وعمل على الوصل بين الشريعة والحكمة .

لا يجب تكرير العبارة التى تقول : الإسلام صالح لكل زمان ومكان ـ مع أنها صحيحة ـ ولكن يجب أن نبين للعالمين كيف هو كذلك ؟ أو أن الإسلام رحمة للعالمين إلا أن نكون ممكنين فى الأرض وقادرين على نشر الرحمة بين العالمين . وكل العبارات التى قالها السلف بملء فيهم دون أن ينتقدهم أحد أو يناقضهم ؛ لأنهم قالوا وفعلوا ، وفعلوا وقالوا بقوة وتمكن .

المسألة الآن أن المسلمين يتكلمون كثيرا ويعملون قليلا، ولا يملكون فى عالم الأشياء ما يؤكد صحة تفكيرهم، وتصوراتهم فى عالم الأفكار . إنهم باختصار يتكلمون ولا يبدعون ، وكان أسلافهم يتكلمون ويفكرون ويبدعون .

إن المسلمين المعاصرين يعانون من الضعف الذاتى أكثر مما يعانون من إضعاف الآخرين لهم ، ومن ثم تقدم غيرهم وتأخروا . إنه الضعف الذى حذر منه المفكر الجزائرى المسلم مالك بن نبى ـ رحمه الله ـ ضعف يجعل الاستيعاب فى ثقافة الآخر وحضارته متقبلا ، أو قابلية الاحتياف ، أى قابلية احتلال الأرض سابقا ، وقابلية الخضوع لثقافة الآخر واستلابه العقلى حاليا . والعولمة التى تحركها ثقافة الغرب وتدفعها لاستلاب الآخرين تقوم بآخر أدوار هذا الاحتياف .

إن نظرة المثقفين العرب تختلف إزاء العولمة . هل هى مشروع غربى للهيمنة الاقتصادية والسياسية والثقافية ، أم ثقافة تقصد احتواء ثقافات العالم وخصوصية

الثقافات ؟ لقد أثار هنتنجتون عددا من الإشكاليات حول علاقة العولمة بالثقافة ، فهو يفترض أن الهوية التى تتمسك بثقافتها الخاصة لابد أن تحفز أصحابها إلى الصدام الحضارى الثقافى . يقول : « إن الثقافة والهويات الثقافية على المستوى العام هويات حضارية، تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصدام فى عالم ما بعد الحرب الباردة » (١) . وكلما تكونت الهويات الثقافية برأيه على أسس دينية وعرقية وقومية حفزت على العداوة والصدام .

ويحاول (صمويل هنتنجتون) أن يضع وصفة الشفاء من داء الصدام بتقارب الثقافات وتداخلها ، دون أن يعلن أن ثقافة أقوى للشعوب الكاثوليكية ـ البروتستانتية ، وهى ثقافة الغرب بقيادة الولايات المتحدة ستكون الثقافة المركز ، وأن كل الثقافات الأخرى مطلوب منها أن تدور فى فلكها. خاصة شعوب من العالم « يريدون أن يجعلوا العالم مثل أمريكا » (٢) ، ويضيف : « وهناك دعاة التعددية يريدون أن يجعلوا أمريكا مثل العالم » (٣) ، ويصدق بعض المثقفين العرب الذين يرون « مثل هذا الطرح تدعمه فكرة أن العولمة تميل إلى تشكيل ثقافة عالمية لها خصائص مشتركة ، وليس بالضرورة أن يسيطر عليها مركز واحد ، أى أن تكون العلاقة تكاملية وجدلية تتبادل التأثير والتأثر » (٤) ، وقد يصدق هذا الزعم إذا قيل : إن الأمريكيين من أصل إفريقى الذين استرقوا قرونا بالولايات المتحدة جلبوا معهم من غابات إفريقيا ثقافة اقترنت بعبوديتهم وهى الطبول والرقص الإفريقى ، وكل الفنون التى أثرت تأثيرا قويا فى موسيقى (الجاز) المنتشرة الآن فى كل الولايات الأمريكية ، فى ذات الوقت الذى رفضهم فيه الواقع الأمريكى ، ورفض تذويبهم فى نظامه الاجتماعى السياسى الثقافى الحضارى .

الرأى الذى يقوله المتفائلون قريب من فكرة (فوكوياما) التى اختصرت تاريخ الحضارات فى الحضارة الأمريكية؛ لأنها الحضارة ـ فيما يزعم ـ التى حققت غاية ما يصبو إليه الإنسان فيما يتصل بالديمقراطية الحرة والسعى من أجل نيل التقدير والاحترام (٥) . فكل من : (هنتنجتون) فى (صدام الحضارات) و(فوكوياما)

---

(١) هنتنجتون : صدام الحضارات ص ٣٧ . (٢، ٣) المرجع السابق ص ٥١٥ .

(٤) د. حيدر إبراهيم: العولمة وجدل الهوية الثقافية ، ص ١١٨، عالم الفكر م ٢٨ عدد ٢ ، أكتوبر ١٩٩٩م .

(٥) فرانسيس فوكوياما : نهاية التاريخ وخاتم البشر ، ص ٩. ترجمة : حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ديسمبر سنة ١٩٩٣م .

فى (نهاية التاريخ) يرى أن التقارب وشيك بين الثقافات من أجل الارتقاء بالجوانب الأخلاقية للشخصية الإنسانية، أى بمنطق (فوكوياما) فى عبارة « الحروب الكبرى للروح » (١) .

لنعترف بأن كل ما يأتى من الغرب يحمل فى ذاته قوة كاسحة ويحمل كل الصفات الإيجابية للبشر ، أو سلبيا مثل الذى اعترف به كل من (هنتنجتون) فى (صدام الحضارات) و(فوكوياما) فى (الانهيار العظيم) من انتشار الجريمة فى مجتمع الولايات المتحدة بصورة تبدو وبائية ، والتفسخ الأسرى ، والمخدرات ، وحوادث الاغتصاب ، والشذوذ الجنسى وميل المجتمع إلى العنف . كلها قوى كاسحة تحتاج إلى خطوط دفاع قوية ، ولكن مفكرو العالم العربى بكل موروثهم الثقافى لا يستطيعون إيقاف تيارها الجارف بكلمات تتكرر من حين لحين (مثل الإسلام هو الحل) إذا لم يجدوا الحل العملى ويعايشوه .

الغرب جعل من حضارته عملاً قصديًا - برأى مالك بن نبى كونه علميًا فى القرن التاسع عشر يحمل كل أثقال الإمبراطورية الرومانية ، بثقافة العلم الحديث القوية ، والضمير النفعى الضعيف ، لا الأخلاقى القوى . وعلى هذه القاعدة تجذرت الثقافة الغربية، ثقافة السيطرة ، التى تتعامل مع غير الغربى على أنه إنسان هامشى ، لأنه ابن المستعمرات الذى سيظل هكذا فى نظر الإنسان الغربى - وفى القرن العشرين وصلت أوربا إلى أقصى ما يحققه الإنسان فى مجال التقدم المادى، وأوصلها هذا النجاح إلى درجة فقدان المبررات بإخضاع كل الأشياء لمقاييس الكم «وصارت الحضارة الغربية من فرط ماديتها تقيس التقدم الاجتماعى وسعادة البشر بمقدار ما يملكون من أشياء مادية » (٢) .

التقدم الصناعى طبع الإنسان الغربى،وصار النجاح الصناعى مقياسا لأى نجاح مادى وثيق الصلة بنظام الغرب الثقافى الذى صار « يطبق نتائج العبقرية الصناعية على المجال الأخلاقى، وصار النجاح المادى الفضيلة الخلقية الوحيدة » (٣) . ولهذا اضمحل المبدأ الأخلاقى النابع من المسيحية لحساب المبدأ المادى الكمى .

---

(١) فرانسيس فوكاياما : نهاية التاريخ وخاتم البشر ، ص ٢٨٥. ترجمة : حسين أحمد أمين ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، ديسمبر سنة ١٩٩٣م .

(٢) د . بدران بن مسعود الحسن : الظاهرة الغربية فى الوعى الحضارى ، نموذج مالك بن نبى ، ص ١٣٥ كتاب الأمة العدد ٧٣ رمضان ١٤٢٠هـ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣٦ عن مالك بن نبى (الآسيوية الإفريقية ص ٤٣) .

الإسلام يأمر المسلم بالعمل : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ [الروم : ٤٢] . و﴿ قُلِ اعْمَلُوا ﴾ [التوبة: ١٠٥] . مع القصد والتوازن ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان: ١٨] . ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ [لقمان : ١٩] . الإسلام يحيط المسلم بإطار أخلاقى - بمبدأ الأخلاق وذوق الجمال . وقد اهتم القرآن الكريم والسنة الشريفة بالأخلاق والجمال وغرسهما فى نفس المسلم . وأوليا عناية كبيرة فى تنشئة المسلم وتربيته عليهما ، ويظهر ذلك جليا من خلال التأكيد على جانب طهارة النفس والجسم والمحيط التربوى كله. حتى اعتبر الإسلام تبسم المسلم فى وجه أخيه المسلم صدقة، وإحسان الزوج لزوجه صدقة ، وإماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان .

الجانب الأخلاقى والجمالى فى الثقافة مرتبط بالتربية ، ولو تملكه المسلمون لمنح حركة العمل عندهم دافع الإبداع ، ولأحدث التغييرات فى السلوك ، وأبرز جوانب الحياة الإيحابية فى أعظم صورها . ولكن من الأسف فإن جماعة المسلمين « تفتقد ذوق الجمال ، ولو أنه كان موجودًا فى ثقافتنا [المعاصرة] لسخرناه لحل مشكلات تكوّن فى مجموعها جانبا من حياة الإنسان » (١) .

الثقافة الغربية الكاسحة بتقديمها الكم المادى على سائر المبادئ الأخلاقية والجمالية أثر فى علاقة الغربى مع غيره تأثيرا سلبيا، وأدى إلى تفكيك الروابط التى تحفظ المجتمع الإنسانى من الانحلال ، إن لم تكن دفعته إلى العبثية .

والمسلمون ـ مع قوة ثقافة الغرب ـ غير مستعدين للدخول فى رهان (هنتنجتون) الثقافى ولا يعيبهم ذلك ، لكن الذى يعيبهم مداومة اجترار أمثال لم تعد تغنى عن التقدم البشرى فى ظل ضوابطه الشرعية ، مع أن ثقافتهم لاتزال غنية بالجواهر والدرر .

(٢)

العولمة وثقافة التربية ـ كلية التربية بالمنصورة نموذجا

كما يتجه العالم إلى تنمية المال، يتجه إلى تنمية الثروة البشرية بتجويد التربية،

---

(١) مالك بن نبى : شروط النهضة ، ص ٩٣ ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر دمشق ١٩٩٦م .

أى بتجويد تربية الإنسان الذى ينمى الثروة بطاقاته المبدعة. ونظم التربية والتعليم كغيرها من النظم التى تحرك المجتمع إلى الأمام تتأثر فى حركة تقدمها بالمتغيرات العالمية والمحلية ، وانعكاساتها على النظام التعليمى .

ولكن هناك نظما تعليمية تحاول أن تفرض نفسها على النظم الأخرى ، ومن ثم فلا يستطيع باحث أن يتجاهل تأثير النظام الدولى السائد فى ظل ثقافة العولمة ، وتأثيرها فى أنماط النظم الأخرى وتفاعلها الذاتى .

ولقد شغلت العولمة علماء التربية والتعليم ، ودوائر الثقافة كما شغلت خبراء الاقتصاد والسياسة والاجتماع. وربما كان هذا الانشغال محفزا لانعقاد مؤتمر كلية التربية ـ جامعة المنصورة فى ١٢ ـ ١٣ ديسمبر ١٩٩٨م تحت اسم : العولمة ونظام التعليم فى الوطن العربى ـ رؤية مستقبلية . وكان محور المؤتمر الأساسى إيجاد إطار جديد للتعليم فى الدول العربية فى ضوء المتغيرات العالمية والإقليمية (١) . ورأى الباحثون ـ قبل التمهيد لهذا الخط التعليمى ـ أهمية إزالة الحواجز المذهبية لدخول شراكة مع ثقافة عالمية تلبس ثوب الحضارة الإنسانية ، مع المحافظة على خصوصية الثقافة الوطنية دون عزلها عن الثقافة الإنسانية ، بالتدريس باللغة العربية فيكون الطالب منتميا لوطنه متصلا فى الوقت نفسه بالثقافة العالمية. وتجويد التعليم بتحقيق مستويات تعليمية وتربوية راقية، وأن تكون نظم التعليم قائمة على الحوار والتحليل والربط والاستنتاج وتوافقها مع حاجة المجتمع، وتدريب الطلاب على التعامل مع مصادر المعلومات المتعددة كدوائر المعارف والمراجع العلمية النافعة ، وبنوك المعلومات العلمية ، والاستخدام الأمثل للحاسوب بما يتفق والتطورات السريعة فى مجالات الحياة المختلفة . ومواكبة الثورة المعرفية التى يشهدها العالم فى العقد الأخير من هذا القرن ، وما ينبئ عنه القرن القادم ، وإيجاد الطموح لدى المتعلم ، فلا يكتفى بقدر معرفى دون أن يكون قادرا على زيادته ، وهذا يستتبع البحث عن صيغ جديدة للتعليم بتنمية قدرة المتعلم على تحصيل المعارف وتعلمها .

والدراسة فى ظل العولمة يستتبعها توسيع حقل العملية التعليمية ، ولذلك فإن

---

(١) أبحاث المؤتمر ص ٢٥ وما بعدها .

الدارسين يرون أن يكون الإطار المقترح لنظام التعليم موحدا فى الوطن العربى كله. وأن يقبل فى الوقت نفسه التغيرات أو التطوير فى بعض آلياته الحالية التى لا تتواءم مع سرعة حركة العولمة؛ لأن الواجب أن يكون نظام التعليم والتربية متحركا فعالا بإيجابية قادرة على مواجهة تحديات العولمة .

ولكن الباحث التربوى قد تواجهه صعاب ، فمع توحد العالم العربى بالدين واللغة والموقع والتاريخ ، فإن الصعاب تتكون من وجود اختلافات مذهبية أوجدتها سياسات تربوية وافدة من الغرب متباينة متناحرة ، يضاف إليها صعاب أخرى تتمثل فى أن الرؤية غير واضحة لدى الباحثين ، حتى لا يكاد الباحثون أنفسهم يقدرون على تحديد أساليبهم أو تطويرها وعلى سبيل المثال هم يطرحون أفكارا دونما إجابة أو تقديم خطة عمل مثل قولهم :

- إن المستقبل يحتاج إلى أسس واتجاهات تتعدى هدف التربية التقليدى فى تحصيل المعرفة التعليمية ، بل القدرة على الوصول إلى مصادر المعرفة الأصلية ، وتوظيفها فى حل مشكلات المجتمع . ولكن عمليا كيف ؟! لا ندرى !

- ويقول الباحث : بضرورة تنمية ملكات سرعة التفكير ، وتنمية التفكير الإيجابى مع التمسك بالهوية الحضارية ، وأن يكون الاهتمام بتربية الطالب ، وتجويد تعليمه من الحضانة حتى المرحلة الجامعية ، مع التطوير المستمر للمناهج والمقررات بحيث تلاحق ثورة المعلومات . ولكن عمليا كيف ؟! لا يدرى ولا نكاد ندرى !

- إيجاد توازن بين فروع التعليم الإنسانية والعلمية والتطبيقية .

- ترقية مستوى آداء المعلمين فى جميع المراحل .

- الاهتمام بالتعليم المهنى .

- حصر كامل لاحتياجات المجتمع العربى لكى يفى التعليم بمتطلبات التنمية .

وكل هذا يطرح فى الإطار النظرى ، وكأن الباحث يلقى من على كاهله أثقالا أرّقته ليريح نفسه من أهمية فهم علاقة التعليم بمؤسسات النتاج وسوق العمل . بله سوق التربية والتعليم ذاته .

إن رؤى الباحثين التربويين فى المجال الثقافى أو التربوى ، لم تتبلور ولم تزد على كونها إقامة بعض المؤتمرات من أجل ثرثرة علمية مثل : مؤتمر مستقبل الثقافة العربية (مايو ١٩٩٧م) ومؤتمر العولمة وقضايا الثقافة العربية (أبريل ١٩٩٨م) ومؤتمر الثقافة العربية والعولمة (آداب بنها سبتمبر ١٩٩٨م) ومؤتمر تربية المنصورة : العولمة ونظام التعليم فى الوطن العربى ـ رؤية مستقبلية ديسمبر ١٩٩٨م) .

وفى مثل هذه المؤتمرات تتباين الأفكار ، فبعضها يرى أن الثقافة العربية قادرة على مواكبة الثقافة الإنسانية فهى تتمتع بخصوصيتها . ويرى بعضها الآخر أن آليات الخطاب الثقافى العربى غير قادرة على الاعتماد على نفسها ، وأنه يتحتم على العرب تجريب ما لدى الغير . وهؤلاء وهؤلاء جميعا يرون أن الثقافة العربية تبحث لنفسها عن مكان لاتق بين الثقافات المتقدمة ، وستكون عندئذ قادرة على معالجة مشكلات الواقع العربى .

ولكن الرؤية لم تكن واضحة من خلال ما قدم من نماذج بحثية عن العولمة ونظام التعليم فى الوطن العربى . فقد تقدم أحدهم بدراسة حول مختارات من شعر صلاح عبد الصبور فى قصيدة : مذكرات بشر الحافى ، وبعض قصائد لأمل دنقل ، ورأى فى هذا الأخير الأنموذج الأقرب إلى المثال ؛ لأنه استلهم التراث فى عموميته: اليونانى والفرعونى والأوربى والعربى والتوراتى والإنجيلى . تحت أقنعة يختفى وراءها مقصود الشاعر السياسى والإصلاحى. خاصة فى قصيدة: البكاء بين يدى زرقاء اليمامة، وربط الباحث هذا المختار من الشعر الحديث بالعولمة ؛ لأن هذه الأشعار بحسب رؤيته الخاصة تسعى إلى التوحد مع ثقافة عالمية . وتحاول صنع أذواق موحدة فى الفكر والثقافة .

كما رؤى من جانب باحث آخر أن الرواية العربية (المصرية بصفة خاصة) توجهت ابتداء من توفيق الحكيم إلى المعانى الإنسانية وربط المحلى بالعالمى ، ومن ثم عكست روح العلاقة الوثيقة بين مجتمع الغرب والشرق . وهدفت إلى التوفيق والمصالحة بين روح الشرق وروح الغرب فى أعمال توفيق الحكيم (عصفور من الشرق) وفى أعمال يحيى حقى (قنديل أم هاشم) وفى أعمال نجيب محفوظ مثل (ثرثرة فوق النيل) ويوسف إدريس مثل (الحرام) .

ومن وجهة نظر الباحث أن هذه النماذج ، مع أنها تبرز الرؤية المحلية للثقافة العربية ، فإنها تمثل الواقع العربى المصرى فى خصوصيته ، وقدرته على التوافق مع القيم الإنسانية العالمية التى تعكس تاريخا طويلا لحضارة الإنسان (١) .

الصورة ليست كما يتصورها هؤلاء المثقفون الجامعيون (الطيبون) لأن العولمة فى كل أشكالها لا تحد بنقل المحدود من حيزه إلى اللامحدود ، ليكون كونيا ، ولكنها تقوم بدور غير محايد ، فهى تريد تعميم نمط اقتصادى اجتماعى سياسى تعليمى ثقافى ليسود العالم وتقف الولايات المتحدة على قمة العاملين على أن يسود هذا النمط ، بل تدعو الولايات المتحدة ومن يدور فى فلكها إلى تبنى نموذجها ونشره باعتباره النموذج الأمثل للحياة الديمقراطية .

وباختصار فإن العولمة تعمل على تفكيك أنماط الأغيار الثقافية أو دمجها فى نمط العولمة فى ظل النظام الرأسمالى الغربى . وهكذا فإن التحولات والمتغيرات التى يشهدها العالم على المستويات كافة : الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وفى مجال الثقافة والاتصال والإعلام ترتبط بالتطور الحادث على صعيد الرأسمالية العالمية (٢) .

الثقافة وهى أحد العوامل المشار إليها فى أنساق العولمة ، تبرز الآن أكثر من أى عصر مضى بين القارات عبر وسائل الاتصال المتقدمة . وهى وإن افترض فيها أن تساعد على إيجاد الآمال المشتركة ، غير أنها غير محايدة ؛ لأن النمط الأمريكى فى مجال الثقافة والتربية يفرض نفسه على غيره . « فهو يفكك الأنماط المغايرة ليوحدها فى نمط واحد سائد ، وهذا النمط الذى يمثل القوة العظمى فى الثقافة المستهلكة لن يوزع الخبز على فقراء العالم الذين ينظرون إلى الولايات المتحدة وكأنها أرض الميعاد . ومن ثم تتحول وسائل الإعلام والصحف والكتب إلى أنساق اقتصادية بالدرجة الأولى ، لنشر ثقافة العولمة وأدبياتها . وعن طريقها يتسلل أسلوب الحياة الأمريكية إلى كل مكان بالعالم حتى المخادع المغلقة » (٣) .

---

(١) بحث بعنوان : التفاعل الثقافى وبعض إيجابيات العولمة قراءة فى الرواية العربية . مؤتمر العولمة ونظام التعليم فى الوطن العربى ، كلية التربية ، جامعة المنصورة فى ديسمبر ١٩٩٨م .

(٢) د . هالة مصطفى : العولمة ودور جديد للدولة ، ص ٤٥ ، السياسة الدولية العدد ١٣٤ ، أكتوبر ١٩٩٨م .

(٣) انظر : بيترمارتين ـ شومان : فخ العولمة ، ص ٨٣ ، عالم المعرفة رقم ٢٣٨ ، الكويت أكتوبر ١٩٩٨م .

أما اللغة التى تحمل هذه الثقافة فيجب أن تكون (الإنجليزية) التى يتكلمها الأمريكيون التى تحاول أن تلتهم لغات العالم ، والأمر مروع كما وصفته مجلة السياسة الخارجية فى عدد شتاء ٩٨ / ١٩٩٩م تحت عنوان النظام اللغوى الجديد فذكرت : « أنه لم تحظ لغة ما فى التاريخ البشرى بمثل ما حظيت به اللغة الإنجليزية من سعة الانتشار ، حيث يستخدمها مليار وستمائة مليون نسمة، وهو رقم يعادل ثلث سكان العالم، بالرغم من أنها اللغة الأصلية لـ ٣٨٠ مليون نسمة فقط . إنها تشكل لغة الكم الأكبر من الكتب التى تؤلف فى العالم ، ومن الأوراق العلمية والصحف والمجلات . كما تقوم محطات الإذاعة والتليفزيون الأمريكية بالترويج للثقافة الناطقة بالإنجليزية على امتداد العالم ، وفى الوقت ذاته فإن ما يزيد على ٨٠ ٪ من المعلومات المدونة على شبكة الإنترنت مكتوبة باللغة الإنجليزية » (١) .

(٣)

ثقافة الاتصال الإعلامى

تمثل الولايات المتحدة ـ كما هو معروف ـ رأس الكيان الغربى الديمقراطى الرأسمالى ومع أنها فى شراكة مع أوربا فى المفهوم العام للديمقراطية، فإنها تحمل صفاتها الخصوصية فى الوقت نفسه . تلك الصفات التى أهلتها للانفراد بمقومات خاصة لا تدخل ضمن شراكتها مع أوربا ، وهى الصفات نفسها التى تجعل أوربا تتخوف فى أحيان كثيرة من طغيان هذه الدولة وتسلطها فى مجالات الاقتصاد والإعلام والثقافة وغير ذلك .

إن اتساع الأرض الأمريكية وخصوبتها ، وتعدد مصادر الثروة فيها وكذلك موارد الطاقة والظروف التى نشأت فيها جماعات المهاجرين الأوائل . كل ذلك ساعد على أن يكون لها صفات شديدة الخصوصية تجعلها تنفرد بأمور لا تتشابه فى كثير من الأحيان مع غيرها .

والديمقراطية الأمريكية ليست على غرار الديمقراطيات السابقة فى اليونان أو

(١) فهمى هويدى مقال ، الأهرام فى ٧/ ٩ / ١٩٩٩ م .

روما ، أو الديمقراطية الأوربية فى العصور الوسطى التى واكبت نشأة البرجوازية ثم ازدهارها ، تلك الديمقراطية التى مهد لها كتاب كبار مثل : مكيافيللى وهوبز وجون لوك وروسو وغيرهم ، والتى واكبت ثورات استمرت قرونًا ، ومراحل انتقال من نظام سياسى واقتصادى إلى نظام سياسى واقتصادى آخر من الإقطاع إلى البرجوازية حتى استقرار الديمقراطية الرأسمالية فى أوربا من القرن التاسع عشر والقرن العشرين . فى هذه القرون الطويلة سفكت أوربا فيها أنهارًا من الدماء ، ولم يكن صراع الانتقال من نظام إلى نظام رحيمًا فى ظل التنافس على امتلاك المصانع ووسائل النتاج ، والسيطرة على الأسواق والتجارة العالمية ، وحروب الاستعمار ، وحروب داخلية دينية وسياسية .

فى هذه الأثناء تكونت الولايات المتحدة ثم صارت دولة مستقلة على الأسس الأوربية الديمقراطية ذاتها . غير أنه لم يكن هناك ثمة صراع طبقى فى الولايات المتحدة، ولم يكن هناك نبلاء ولا إقطاعيون ، ولا كنيسة ولا رجال كهنوت يتحكمون ، كما كان الحال فى أوربا ، ولم يكن أمام الأمريكيين المتجمعين من أنحاء العالم إلا أن يعمروا أرضًا ويقيموا دولة مترامية الأطراف ، وأن يبيدوا سكان الأرض الأصليين ، وأن يحمى كل أمريكى مكاسبه التى استولى عليها ، والتى لم تأل إليه عن طريق الميراث، لقد فرض عليه أن تكون حركة حياته سريعة، وأن يعمل من أجل تحقيق مكاسب مادية فورية ، واختيار أسلوب الحياة الذى يحمى مكاسبه .

لعل نشأة هذه الدولة بهذه الصورة ، صنعت فى تكوين المواطن الأمريكى الفرد مبدأ الاختيار الشخصى والحرية الفردية ، وساعد المناخ العام على نمو أفكار أمريكية باعتبارها مشروعًا خاصًا . يقبله الذوق الوطنى الأمريكى قبولا عفويًا . ولقد عبر عن ذلك (هربرت شيللر) أستاذ مادة الاتصال بجامعة كاليفورنيا بقوله: « إن الطابع الخصوصى Privatism فى كل مجالات الحياة ، هو الأمر العادى ، إن لم يكن الطبيعى فى أمريكا، هو الطابع الذى يعكس أسلوب الحياة الأمريكية بدءًا من أدق تفاصيلها حتى أعمق معتقداتها وممارساتها الشعورية ، كما يعكس ـ تحديدًا ـ نظرة إلى العالم مكثفة بذاتها » (١) . وهذا بدوره ينعكس على حلم

(١) شيللر : المتلاعبون بالعقول ، ص ١٩ عالم المعرفة الكويت ، رقم ٢٤٣ .

الفرد الأمريكى فى التملك ، أى فى تملك الأشياء بصورة متفردة لا يشاركه أحد فى حب التملك ، أو فى مغايرة الحلم ، وهذا التفكير الممعن فى فرديته ، المغالى فى أنانيته يجعل الحلم الأمريكى يزداد صعودًا حتى يتحول إلى رغبة فى تملك العالم . أو على الأقل فى الهيمنة عليه . وبطبيعة الحال لن تتم الهيمنة إلا بواسطة أداة إعلامية جبارة تصور الولايات المتحدة قادرة على فعل ذلك .

إن الأمريكيين يتصورون أن من حقهم التحدث إلى من يشاؤون فى أى مكان فى العالم وفى أى وقت، وعلى هذه القاعدة أنشؤوا نظامًا إعلاميًا جديدًا ينتج وقت الطلب بصور مختلفة « عروضًا وأفكارًا ورموزًا مختلفة ، لشرائح سكانية معيّنة ، ولأسواق بعينها ، ولفئات سنية ومهنية ، ولمجموعات عرقية واجتماعية مستهدفة بدقة » (١) .

إن الإعلام الناطق بلسان الولايات المتحدة يحرص على أن تظل الهيمنة أمريكية ، كما يحرص على ألا تفرض قنوات اتصال غير أمريكية ، أى فكر أو ثقافة غير أمريكية على الفرد الأمريكى . وعلى هذا فإن السمة العامة للنظام الإعلامى الأمريكى تتمثل فى المحافظة على المكاسب الأمريكية فى الداخل والخارج ، فهو يساند رجال الأمن فى قمع من يقف ضد المصالح الأمريكية ، ويؤيد القوات العسكرية فى عملياتها فى أنحاء العالم باعتبارها تقوم بدور حيوى فى حراسة المكاسب الأمريكية لشركات أمريكية عملاقة . ولا مانع من أن تصنع الذرائع التى تبرر عملياتها مثل: حماية الأقليات وحقوق الإنسان، والقضاء على أسلحة الدمار الشامل من أجل سلام العالم . والولايات المتحدة حكومة وشعبًا يُقرون هذه المبادئ ويؤكدون على ضرورة حراسة أمريكا لها فى داخل الولايات المتحدة ، وفى أنحاء الدول المحورية فى العالم ، يؤكد ذلك ما جاء فى خطاب (لوليم روجرز) أحد وزراء الخارجية الأمريكية السابقين يطمئن الأمريكيين على الأساس المادى للسياسة الأمريكية فى العالم فقال: « إننا نملك ٦٠٪ من الاستثمار الأجنبى المباشر فى العالم . ولنا وجود ومصالح فى جميع أنحاء العالم، وإنه لمن الطبيعى للأمريكيين أن يكونوا كذلك » (٢) .

---

(١) ألفين توفلر : تحول السلطة ٢/ ١٤٤ ترجمة : لبنى الريدى ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٦م .

(٢) شيللر : المتلاعبون بالعقول ، ص ٥١ .

المشروع الأمريكي يعتمد على دول محورية تنتج الخامات ، ودول محورية لتسويق المنتوجات ويمثل عامل الربحية العالمية الأداة النشطة المحركة للنظام الرأسمالى الأمريكى فى الداخل والخارج ، تلك هى السمة المميزة للرأسمالية الصناعية الأمريكية التى تخدم بالدرجة الأولى المؤسسات الضخمة التى تنتشر فى جميع أنحاء العالم .

وهذه السياسة القائمة على إعلاء شأن الملكية الخاصة ، لابد أن يدعمها نظام عام بجانب ـ القطاع الاقتصادى والسياسى ـ تعليمى وتربوى وإعلامى. وهذا النظام يستتبع تصوراً يشغل العقل الأمريكى الذى يحتم حماية المكاسب المادية. كما يحتم وجود نظام استخبارات وتجسس قوى يشارك فى حماية النظام . ولا فرق ـ من أجل صنع الثروة ـ بين الاستخبارات والتجسس ، حيث يختفى الوازع الأخلاقى إن لم يمت . والأمر كما يصوره توفلر « فإن الولايات المتحدة تحتل مكانة متفوقة فى الصناعة العالمية للتجسس ، فإلى جانب (سى آى إيه C . I . A) توجد وكالة الاستخبارات الدفاعية التابعة للبنتاجون ، ووكالة الأمن القومى (N S A) ومكتب الاستطلاع القومى، وتتولى هذه المنظمات الأربع جمع أغلب بيانات الاستخبارات التكنولوجى . وفضلا عن ذلك فإن قيادات الجيش المختلفة لديها وحدات استخبار متخصصة ، وكذلك الدوائر الحكومية خاصة وزارات الخارجية والطاقة والمالية والتجارة (١) .

وتقوم (ناسا N S A) أكبر شبكة أقمار صناعية فى العالم بالتجسس الكونى من أجل التدخل العسكرى الفورى ، إذا بدا فى الأفق أى تهديد للنظام التجارى للشركات الأمريكية العملاقة التى تعمل فى خدمته .

وتعمل الولايات المتحدة مؤخرًا على تهميش دور الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وتتدخل لقبول أو رفض من يعين أمينًا عامًا للأمم المتحدة ، كما تعمل على تقسيم دول العالم إلى دول محورية ، ودول غير محورية ، ودول يجب احتواؤها ، ودول صديقة ودول غير صديقة ، فدولة العراق مثلاً من وجهة نظر الولايات المتحدة دولة غير صديقة، ومن ثم يجب أن تضرب آلتها العسكرية ،

---

(١) توفلر : تحول السلطة ، ص ٧٩ .

دونما تفكير فيما أصاب شعب العراق من حصار التجويع . ودولة الكيان الصهيونى دولة صديقة ، ومن ثم تعمل أمريكا على أن تظل متفوقة عسكريًا .

ويتواءم التعليم فى الولايات المتحدة مع هذه السياسة ، فخطة التعليم يجب أن يُفترض فيها أنها خطة مقاومة لما يمكن أن يظهر من ثقافات مضادة ترفض الثقافة المعرفية الأمريكية ، ولهذا فإن النظام التعليمى الأمريكى فى كل مستوياته يدعم بتكنولوجيا تعليم ذات تقنية عالية تخدم أهدافه .

ولأن صنع القرار التعليمى ذو صبغة ساعية لتحقيق الربح ، فإنه يتحتم إضفاء الصبغة ذاتها على التعليم ، لكى يأخذ النمط التعليمى الشكل المتوائم مع نظام الحرية الفردية فى الكسب ، كتعميم الاتجاه بالتعليم بالحاسوب (الكمبيوتر) وفى هذه الحالة يحقق التعليم مكاسب تجارية لشركات تصنيع الحاسوب وتشغيله . كما يترتب على ذلك ظهور جيل من المعلمين يطور النظم الشاملة للوسائل التعليمية القائمة على عمل الحاسوب وهذا العمل لا يتم إلا بنتاج آلات داخلة فى عمل الحاسوب فى مجال تقنية التعليم ، تحت اسم آلات وسائل التعليم أو الآلات المعلمة من الكتب والدوريات ، والوسائل السمعية والبصرية ، ويحاط ذلك كله بسياج إعلامى جبار، يدعم الشركات المنتجة لهذه الوسائل، حتى الكتب المدرسية، الأمر الذى يهدد دور المدرس ، ويجعله ضئيلا ، وما يحصل عليه من مرتب أشد ضآلة .

إن الشركات المنتجة للوسائل التعليمية وهى نفسها المنتجة للكتب الدراسية والأفلام السينمائية والتلفزيونية ، وأفلام الكرتون والمسلسلات الدرامية ، تنشر ثقافة التقنية ، وثقافة التعليم من خلال الكلمة المكتوبة ، والصورة المرئية ، والصوت المسموع ، والكتاب المقروء ، إنها تشارك فى تحويل الحلم الأمريكى إلى واقع . وهذا يستتبع توطيد علاقة هذه الشركات بصانعى القرار التعليمى ، بل إنها استطاعت بالفعل أن تمارس تأثيرًا قويًا فى صنع القرار ، الذى بدا منطقيًا متلائمًا مع السياسة العامة للدولة . وكما نجح القائمون على شركات صنع الأسلحة من إقامة علاقة حميمة مع القائمين على وزارة الدفاع ، استطاع هؤلاء إقامة علاقة حميمة مع القائمين على صنع القرار فى المجال التعليمى على المستوى القومى .

ولا يبدو فى ذلك غشًا ولا مجانبة للصواب بمنطقهم ؛ لأنهم جميعًا فى كل القطاعات ينفذون سياسة وطنية متفق عليها ؛ لأن كل نشاط فى الولايات المتحدة يعنى صناعة هذا النشاط ولا فرق بين صناعة التعليم، وصناعة الحرب.

الإعلام يروج للوضع القائم فى الولايات المتحدة ، بتعزيز وجهات نظر أنماط المؤسسات السائدة فى المجتمع الأمريكى . وتقوم كل أجهزة الإعلام والترفيه والتسلية بدور واحد فى ترسيخ سياسات مؤسساتية ، وإقناع المواطن الأمريكى بصحة نمط الحياة الأمريكية ، وأنها الأفضل فى العالم ، وأن على الولايات المتحدة واجب أخلاقى يحتم عليها نشره فى العالم ولو بالقوة .

لقد رشحت الأمية المالية نظامها الاقتصادى ، ولكنها لا تزال تخطط لعولمة ثقافية ؛ لأن الثقافة الأمريكية لا تزال تجد أمامها سدودًا من ثقافات الشعوب . كذلك فإن اختلاف الأديان يمثل أكبر عقبة أمام عولمة الشعوب ثقافيًا ، كما أن العالم مستعد للتوحد فى ميادين العلم وشؤون المال والتجارة بعكس أمور الفكر فإن أغلب الشعوب تريد الاستقلال بثقافاتها .

قد تعنى ثقافة العولمة البعد العالمى للثقافة ، أى ثقافة واحدة للعالم المتمدن ، ولكن يقف ذلك على حب المواطنة ، وخصوصية الديانة ، وعمق أثر التراث فى الشعوب . ومع ذلك فإن الولايات المتحدة تسعى لعولمة الثقافة بتعزيز الهوية العالمية وتقريب الثقافات من النمط الأمريكى ، فكأنها تسعى لتطبيع الشعوب بثقافة روايات (همنجواى) ، وبطولات (الكاوبوى) وملابس (الجينز) ومسلسل (دالاس)، والاقتصاد الاستهلاكى على الطريقة الأمريكية ، والإقبال على معطيات الثقافة الأمريكية من مأكولات ومشروبات ، وربط شباب العالم بقيم وسلوكيات الثقافة الأمريكية .

ولكن هناك مقاومة من الإسلام ولولاها ما وجه (هنتنجون) سهامه وهجومه للحضارة الإسلامية على وجه الخصوص لشعوره بقوة آليات الدفاع الكامنة فى الإسلام. غير أن المقاومة الثقافية الفرنسية هى الثقافة الوحيدة التى أعلنت موقفًا رسميًا مضادًا للثقافة الأمريكية بإعلان رسمى . فى الوقت نفسه الذى فرضت فيه ثقافة العولمة وصاية بصورة ما على ٩٠٪ من شعوب العالم ومن بينها مصر من

خلال معاهدات تجارية لا ثقافية ، مما يؤكد مكر العولمة وخداعها . فإن منظمة التجارة العالمية التى تعطى نحواً من ٩٠٪ من حجم التجارة العالمية (وقعتها ١١٧ دولة من بينها مصر سنة ١٩٧٠م التى دخلت حيز التنفيذ ابتداء من أول يناير سنة ١٩٩٥م) تشترط فى الدولة التى توقع عليها أن تقبل كل بنودها .

ومع أن أهداف منظمة التجارة العالمية W T O تتحدد فيما تدَّعيه من رفع مستوى المعيشة للدول الأعضاء، والعمل على رفع مستوى الدخل القومى لشعوبهم ، واستغلال موارد بلادهم الاستغلال الأمثل، وتشجيع حركة النتاج ورؤوس الأموال، فإن الولايات المتحدة تحرص على أن تكون لها الهيمنة الثقافية بجانب الهيمنة التجارية ببث « رموز مضمرة خطيرة فى أدبيات الفن والسلوك الأمريكى » (١) .

كما حدث بالفعل فلم يعلن رفضه للثقافة الأمريكية رسميًا غير فرنسا . مع أنها من دول المركز فى الحضارة الغربية ، ولكن فرنسا شعبًا كاثوليكيًا (الحكومة علمانية بحكم الدستور الفرنسى) وثقافتها لاتينية ، وتدين الولايات المتحدة بالبروتستانتية وتسيطر الثقافة الأنجلو ساكسونية عليها. ولذلك اختلفت فرنسا مع الولايات المتحدة على الجانب الثقافى فى هذه الاتفاقية فيما عرف بالاستثناء الفرنسى. إن العولمة معادل معنوى للأمركة ، تؤكد التشابك بين المال والاقتصاد والإعلام والتنمية ، وفى تفسير لها عبر (اليونسكو) مؤتمر الثقافة من أجل التنمية (عقد فى ربيع ١٩٩٨م) تعنى التنميط Uniformalisation أو التوحد Unifi-sation الثقافى . « وهذا التنميط الثقافى للعلم يتم باستغلال شبكة الاتصالات العالمية الجبارة ، وهيكلها الاقتصادى الإنتاجى المتمثل فى شبكات نقل المعلومات والسلع ، وتحريك رؤوس الأموال ، كما أن التنميط الثقافى رغم أنه يعكس تصور صناع العولمة فإنه يمكن أن يحدث التفاعل والتمايز بين الثقافات » (٢) . ولكن يظل دور الثقافة الأمريكية يفرض سطوته على الثقافات الأخرى ، وهو ما يعبر عنه بالعنف الثقافى عبر اتفاقية الجات ؛ لأن منظمة الجات ضمن منظمات كثيرة تعمل

---

(١) انظر : أشرف البناء : الجات ومستقبل العمالة فى مصر ، ص ٤٣ ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، العدد ١٣٦ مايو ١٩٩٩م .

(٢) د. مصطفى عبد الغنى : الجات والتبعية الثقافية ، ص ٧٢ سلسلة القراءة للجميع .

.على السيطرة الثقافية ، بجمع وسائل المعرفة العلمية والتقنية التى تمثل ٨٠٪ من اقتصاديات الولايات المتحدة فى مجال تقنية المعرفة بجانب الـ ٢٠٪ التى تعود على رأس المال ، والعمالة ، والموارد الطبيعية [١] .

لقد صارت الولايات المتحدة بواسطة وكالات الإعلان التى تملكها والمنتشرة فى العالم شرقًا وغربًا قادرة على الهيمنة على كل منافذ الاتصال فى العالم ، لدرجة الاختراق الذى يتحكم فى حركة السوق عبر القارات ، ليقدم النمط الأمريكى الشامل من الصناعة التكنولوجية ، والسلع والإعلام والثقافة ، التى تكرس من أجل إصابة الثقافات الأخرى بالشلل ، وعدم القدرة على التفكير أو اتخاذ قرار بالقبول أو الرفض لثقافة الاستهلاك . وبطبيعة الحال فإن العقلية التجارية (البرجماتية) الأمريكية تستطيع أن تقدم أفكارها داخل الحدود أو خارجها على السواء بصورة مقنعة ، إنها تقوم فقط ـ بحسب المنطق الأمريكى ـ بالتبشير بتعاليم الحرية ، وتقديم تصور لعالم لا تتقاسمه الحدود ، عالم حر منفتح أمام كل الشعوب ، تشيع فيه المعرفة والثقافة التى تحفز الشعوب كلها لتحقيق عالم أفضل ، متمتع بالإنجازات الإنسانية .

هذا ما تظهره الثقافة الأمريكية، أما ما تبطنه فيخفى حقيقة النمط الثقافى الأمريكى بما يتضمنه من رغبة محمومة بحب السيطرة ، وكبت حريات الشعوب المستضعفة . وتفتيت مسؤولياتها الوطنية .

(٤)

ماذا سيحدث لو أن الوضع استمر هكذا باضطراد ، دون أن تتدخل الحكومات لفرض إرادتها على حركة المال والإعلام والثقافة عبر الحدود ؟ سيؤول الأمر إلى فوضى فى السوق العالمية، وآثار سلبية مدمرة فى المجتمعات الإنسانية. ولقد عبر الدكتور بطرس بطرس غالى عما يمكن أن يحدث من فوضى عالمية فقال: « لن تكون هناك عولمة واحدة، بل ثمة عولمات ، فعلى سبيل المثال سيكون هناك عولمة فى مجال المعلومات والمخدرات والأوبئة ، وتلوث البيئة ، ومما يزيد الأمر

---

(١) د. على حبيش : العولمة والبحث العلمى ، ملحق الأهرام الاقتصادى ص ١٧ سنة ١٩٩٧م .

تعقيدًا أن العولمة تتعاظم فى المجالات المختلفة بسرعة متباينة ، ولكل عولمة خصائص وقواعد وسرعة ، وآثار مختلفة » (١) .

الهيمنة الأمريكية واقع ، هذا ما تؤكده المؤلفة الفرنسية (إليزابيث كريميو) Elizabeth Cremieu فى كتابها القيادة الأمريكية Le Leadership Ameri-cain تقول: لم تعد الهيمنة الأمريكية أمرًا مشكوكًا فيه ، كما لم تعد الولايات المتحدة قوة يعتد بها ضمن قوى أخرى فى حلف الناتو N. A. T. O إنما صارت سيدًا مهيمنًا وحده وصارت النموذج الأكثر إبهارًا للعالم فى القوة والسلطة والمعيشة والثقافة (٢) .

إن القوة الأمريكية خطت لنفسها شعارًا : القوة الأمريكية وقدرتها على فعل الفعل، ومنع الفعل، وقام هذا الشعار على قوة الصناعة الأمريكية التى تخدمها رأسمالية قومية حرة ، ولهذا فإن الصناعة والرأسمالية الحرة تعنى قلب القوة الأمريكية التى تزداد باستمرار ، وعلى سبيل المثال ففى الفترة من (١٩٨٠ ـ ١٩٩٥م) تمت إعادة بناء التكنولوجيا العالية التى مكنت الشركات الأمريكية من أن تسيطر على ٥٠٪ من السوق العالمية ، و٧٣٪ من (الأنفورماتيك) و٧٥٪ فى مجال الطيران العالمى ، و٦٢٪ فى مجال الكهرباء والإلكترونيات . وأصبحت الولايات المتحدة أول مصدر فى العالم ، وبذلك صارت مركز الاقتصاد العالمى الذى يتحكم فى حركته الدائبة ، وأنشطته المتنوعة فى أسواق العالم ، بل صارت الولايات المتحدة عن طريق الهيمنة التجارية والنقدية والمالية ، وهيمنة استثماراتها المباشرة فى الأسواق خارج أمريكا ، تفرض لنفسها دور القائد الذى يضع القواعد وفى الوقت نفسه يفرض على العالم احترامها وقبولها ، ومنذ سنة ١٩٩٢م وضعت الدبلوماسية التجارية الأمريكية محورًا أساسيًا للتجارة الأمريكية الخارجية، يقوم على قاعدة أن القوة تعبر عن نفسها (٣) .

وفى العقد الأخير من القرن العشرين يؤلف الكاتب السويسرى (ريتشارد لابيفيير) Richard Labeviere (دولارات الرعب) Les dollars de la)

(١) د. بطرس غالى ، السياسة الدولية ، ص ١٥٥ ـ العدد ١٣٣ ، يوليو ١٩٩٨م .
(٢) الأهرام فى ٢١ أغسطس ١٩٩٩م .
(٣) ارجع إلى : دولارات الرعب ، تلخيص : د. سعيد اللاوندى ، الأهرام فى ٢١ أغسطس ١٩٩٩م .

(terreur يقول فى هذا الكتاب : إن دولارات الرعب الأمريكية هى التى تصنع الجماعات الأصولية المتطرفة، مما يعنى أن الولايات المتحدة لا تدخر وسعًا فى الإقدام على أى عمل ولو كان شريرًا فى سبيل تحقيق السيطرة والتسلط فى بعض بقاع العالم . لتنفيذ مخططاتها فيما يعرف بخصخصة السياسة الخارجية الأمريكية .

ولقد اتجهت الولايات المتحدة إلى هذه السياسة بعد حادث الرهائن الأمريكيين فى السفارة الأمريكية فى طهران، تحت غطاء من المؤسسات والشركات مثل شركة: سوكوم Secom وهى شركة مكلفة بالدفاع والمراقبة والتعاون بين الشركاء الخصوصيين، ويذكر أن هذه الشركة تدخلت فى السياسة الداخلية فى نحو من ١٤ دولة فى سنة واحدة (سنة ١٩٩٦م) فى قارة أفريقيا وحدها .

ويكشف كتاب (دولارات الرعب) عن شركات أمريكية تتظاهر بالعمل الإنسانى وتقوم بأعمال عسكرية تحت هذا الغطاء مثل شركة (رونكو) Ronco التى قامت سنة ١٩٩٥م بتسليم دبابات ومتفجرات وأسلحة لرواندا . وشركة م ب ر آى M P R I التى تأسست سنة ١٩٨٧م برياسة جنرال أمريكى سابق يدعى فرنون لويس وتضم نحو ألفى رجل من العسكريين السابقين من أصحاب الخبرة فى الحروب ، ساعدوا الكروات فى حرب استقلالهم عن يوغسلافيا ، وبمساعدتهم استطاع الكروات أن يوجهوا ضربات قاصمة للصرب .

وهناك شركة سيفيتاس Civitas وهى فى الأصل منظمة غير حكومية تهتم بقضايا التربية فى العالم ، وهدفها الترويج للمفاهيم الديمقراطية الأمريكية ، وتقوم الإدارة الأمريكية الحكومية بتعضيدها ؛ لأنها تؤمن بأهمية التأثير الفكرى وجدواه للسياسة الأمريكية ، الذى يفوق جدوى التسليح .

ولا تنفصل قضية حقوق الإنسان بمنطقها الأمريكى ، عن سياسة الهيمنة الأمريكية والشىء نفسه يكمن فى قضية الإثنية والأقليات الدينية فى العالم . فالمسألة كما يصفها مؤلف (دولارات الرعب) ليست دفاعًا عن حقوق الإنسان، ولا عن الأقليات وتأييدهم والعمل على تحقيق أهدافهم ، بل الهدف منها حماية المصالح الأمريكية، ونشر أفكار الولايات المتحدة عن الديمقراطية،وفى الوقت نفسه

كسب تعاطف الأقليات وادخارهم لأوقات الحاجة إلى إثارة الفتن وإحداث الأزمات [1] .

كل الدلائل تؤكد هيمنة الولايات المتحدة على العالم ، ورغبتها فى فرض سيطرتها على كل الشعوب، ولقد بدأ هذا الإحساس على شكل هاجس أمريكى أخذ يتضخم منذ عهد الرئيس (ريجان) أى قبل انهيار الاتحاد السوفييتى وتفكيكه. وبداية عزم الولايات المتحدة على الاستعداد للقيام بدور القوة الأعظم الوحيدة فى العالم فى الألفية الثالثة .

ومع ذلك فإن (لورنس كورب) مساعد وزير الدفاع الأمريكى فى زمن (ريجان) ومدير الدراسات فى مجلس العلاقات الدولية فى عهد كلينتون ، ينتقد سياسة الدفاع الأمريكى الحالية (فى عهد كلينتون) فيقول : « لقد انتهت الحرب الباردة المكلّفة ، وإن سياسة رفع القدرة الهجومية لا مبرر لها ، وإنه من الممكن بشىء من التعقل تخفيضها بمبلغ ٢٥ بليون دولار كل عام ، إلى جانب مخطط بناء نظام الدفاع ضد الصواريخ فى الجو لمنع وجود أى مراكز قوى جديدة فى نظام عالمى جديد مرتقب » [2] .

« ولقد كلف جنون التسابق النووى الولايات المتحدة مبلغ خمسة ونصف تريليون دولار منذ ضرب (هيروشيما ونجازاكى) ورغم هذا تستمر ميزانية التسليح فى ارتفاع سنة بعد أخرى » [3] .

(٥)
إلى أين تذهب العولمة بالفقراء ؟

يرى الخبير الاقتصادى المصرى د . رمزى زكى أن العولمة Globalization صارت القضية الأكثر تناولاً بين الأكاديميين ، وعلى مستوى أجهزة الإعلام ، والرأى العام والتيارات السياسية والفكرية المختلفة، بل صارت سيلاً أشبه بالطوفان

(١) دولارات الرعب ، الأهرام فى ١٩٩٩/٧/٢٨م ، ١٩٩٩/٧/٣١م .
(٢) الأهرام ، فى ١٩٩٩/٩/٧م عن صحيفة لوس انجلوس تايمز فى ١٩٩٩/٨/٦م .
(٣) د. أنور عبد الملك ، الأهرام فى ١٩٩٩/٩/٧م .

فى الأدبيات التى تتحدث عن هذا الموضوع ، ولم يعد الأمر يقتصر على مساهمات الاقتصاديين وعلماء السياسة أو المهتمين بالشؤون العالمية ، بل تعدى الأمر ليشمل مساهمات الاجتماعيين والإعلاميين والفنانين وعلماء البيئة والطبيعة » (١) . مما يؤكد هيمنة العولمة وتأثيرها فى مسار العالم المعاصر ، خاصة المسار الاجتماعى . وهذا يؤدى إلى التساؤل عن موضع الطبقات أقل من المتوسطة ، والفقيرة فى عالم العولمة ؟

تكون أنانية الإنسان خاصة إذا امتلك القوة ، دافعًا إلى رغبة التملك ولو أدى ذلك إلى نسيان الآخرين ، مع أن الرسالات السماوية جاءت لهداية الناس إلى أهمية التعاون والإحسان .

إن أنانية الإنسان كانت تربطه فى أغلب عصور التاريخ بالمقولة الرومانية : الإنسان للإنسان ذئب، فيندفع بغرائزه إلى شهوة الفتك والتملك، وفى أوربا القارة التى لم تكف عن استيلاد النظريات الإنسانية المادية منذ الحركة الإنسانية إلى القرن الحادى والعشرين ، تلك النظريات التى تغلب الرغبة فى التملك والسعى من أجل تحقيق نظام رأسمالى حر. تبلور هذا الفكر فى فلسفة هوبز وجون لوك فى القرن السابع عشر ثم بلغ الذروة عند جون ستيوارت مل فى القرن التاسع عشر. وهؤلاء الثلاثة لا يتورعون عن تقنين قوانين إفناء من يعترض مسيرة حرية التملك .

وجاء ماركس بالشيوعية فى القرن التاسع عشر التى ظلت تدرس كنظرية فى رأس المال حتى جاء البلاشفة فى روسيا فى العقد الثانى من القرن العشرين فوضعوها فى حيز التنفيذ،وكانت الشيوعية مذهبًا مضادًا للمذهب الرأسمالى الحر، نبه الرأسماليين إلى ضرورة تقديم تنازلات للطبقة العاملة ، وبدت هذه التنازلات مكتسبات اجتماعية، ولكن الرأسمالية فى الوقت نفسه أعطت الفرصة لكل من يقدر على الخروج من طبقة إلى الطبقة الأعلى ويحقق فيها موضعًا مرموقًا ، ولكن بعد أن انهارت الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى (قائد العالم الشيوعى) وجد الرأسماليون أنفسهم بين عشية وضحاها يمثلون القوة الوحيدة فى العالم ، فاستداروا على الطبقتين: الوسطى والدنيا بمعاول جديدة لا قبل لهم بها ، وقوضوا

(١) د. رمزى زكى : مقدمة ـ فخ العولمة ص ٧ .

كثيراً من مكاسبهم ، فعادت البطالة إلى الظهور فى المجتمع الرأسمالى، ومن ثم تقلصت الخدمات التى كانت تقدمها الدولة لهم، وانخفضت أجور العمال أصحاب القمصان الزرقاء ومستوى معيشتهم ، ورفعت الحكومات فى بلاد النظم الرأسمالية الحرة أيديها عن كثير من العلاقات بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال . وأطلقت آليات السوق ، وتوقف دور هذه الحكومات عند حراسة النظام الرأسمالى دون تدخل ، وتفاقم التفاوت فى توزيع الدخل والثروة بين هؤلاء الذين يقدمون العمل ، وهؤلاء الذين يسيّرون العمل برأسمالهم القوى. وفشا اعتقاد فى المجتمع الرأسمالى الحر بمقولة : إن دولة الرفاه التى سمح بها النظام الرأسمالى إبان الحرب الباردة لم يعد لوجودها ما يبرره، بل رأوا أن مطالب الفقراء صارت عبئًا لا يطاق، ويجب التصدى له بحزم .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية تكونت النواة التى خرجت منها العولمة ، ثم صارت طوفانًا عم كل البلاد الرأسمالية . والأمر الذى يشغل هؤلاء الرأسماليين كيفية معالجة الوضع بكثير من الحصافة والكياسة « فبخليط من التسلية المخدرة والتغذية المحدودة يمكن تهدئة خواطر سكان المعمورة »[1] من الفقراء .

العولمة لا تحمل وعدا للفقراء بتأمين حياة آمنة مستقرة ، ولا تسعى لتحقيق مجتمع تسوده العدالة الاجتماعية، فهى تسير فى طريقها تنشد مصالحها ، فإن تحقق للفقراء مصلحة على هامش مصالحها ، تسمح لهم بالمرور ، ولا يغفل مروجو العولمة أكثر من ذلك . ولهذا يوجه الكاتب (إيجانسيو رامونيه) هذا السؤال لأحد منظرى العولمة (ليبرمان) هل تقبل العولمة أن تخصص جزءًا ضئيلاً من الثروة لتعساء الأرض ؟ ويرد على نفسه قبل أن يسمع إجابة ليبرمان : « إن العولمة صماء وعمياء إزاء العالم ، بل على العكس فهى تزيد من سوء الاختلافات والانقسامات ، ففى العام ١٩٦٠م (كان ذلك قبل سطوة العولمة) كان الـ ٢٠٪ الأكثر ثراء من سكان العالم أغنى ٣٠ مرة من الـ ٨٠٪ الأفقر فى العالم وفى سنة ١٩٩٧م فى ظل وصول العولمة إلى ذروتها كان الـ ٢٠٪ الأكثر ثراء فى العالم أغنى ٧٤ مرة من الـ٨٠٪ الأفقر فى العالم وتتفاقم هذه الفجوة كل يوم ، واليوم إذا جمعنا الناتج

---

(١) د. رمزى زكى : فخ العولمة ص ٢٧ .

القومى الإجمالى لجميع البلدان المتخلفة فى العالم بسكانها البالغ عددهم ٦٠٠ مليون نسمة لن يعادل ناتج جمع مجموع ثروة أغنى ثلاثة أفراد فى العالم » (١) .

إن العولمة تهدد قدرة الدول على توفير الأمان الاجتماعى لمواطنيها ، فالاتجاهات الليبرالية الجديدة للرأسمالية التى صاحبت العولمة ، انسحبت على الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية مثل حزب العمل فى إنجلترا والحزب الاشتراكى فى ألمانيا (وهما الحزبان الحاكمان) ولقد رسخت هذه الاتجاهات فى الثقافات السياسية ، وقد ألقى على كاهل الحكومة العجز عن تنمية الاقتصاد الذى يعزز سبل العيش والرزق ، ومع أنهم فى إنجلترا (بلير) وفى ألمانيا (شرودر) قد سلكوا الطريق الثالث ، ليدافعوا به عن رؤية جديدة لديمقراطية مؤيدة لرجال الأعمال ، بقدر ما هى مؤيدة للعمال ، فإن نمط العولمة (النمط الجديد) « يضغط من أجل تحقيق النهج الفردى للمشكلات الاجتماعية، أى من أجل نهج يجعل كل إنسان مسؤولاً عن قدره الخاص . أما مسؤولية الحكومات تجاه الفقراء والمحرومين فى المجتمع « لا تبشر بخير بالنسبة لمستقبل دولة العدل الاجتماعى على المدى الطويل نظراً للتحدى المستمر الذى تمثله العولمة » (٢) .

لقد صدّرت الولايات المتحدة نظريتها الاقتصادية الليبرالية الجديدة = New Liberalismus التى تدور حول مقولة: كل ما يفرزه السوق صالح، أما تدخل الدولة فطالح. ورأى هذه المدرسة الليبرالية الجديدة وهى النظرية التى رسخت قيمًا جديدة تتلخص فى :

١ ـ عدم تدخل الدولة فى حركة السوق وآلياته .

٢ ـ تحرير التجارة ، وتنقل رؤوس الأموال فى أى مكان فى العالم ، وخصخصة المشروعات الحكومية .

ويدعم هذه السياسة البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى ، ومنظمة التجارة العالمية، يؤازرها الملاحة الجوية، والاتصالات وبرامج الحاسوب المطورة، والعرض

---

(١) إيجانسيو رامونيه ، مقال : دعوهم يأكلون الهمبرجر ، مجلة الثقافة العالمية ص ٣١ ، العدد رقم ١٠٢ فى سبتمبر ٢٠٠٠م .

(٢) بريجيت شولتز ، مقال : العولمة والوحدة ودولة الرفاهية فى ألمانيا ، ص ٦٧ ، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، العدد ١٦٣ مارس ٢٠٠٠م .

والطلب باعتبار أنهما المسير الفعلى للرأسمال الحر وتنقله .

ولهذا فإذا صعدت حكومة للحكم فى العالم الرأسمالى ، وكانت مذهبيتها الانحياز للطبقتين الدنيا والوسطى ، كان عليها أن تتواءم مع آليات السوق ، وإلا حاربتها القوى المسيطرة ، وهذا ما حدث فى ألمانيا عندما صعد الحزب الاشتراكى الديمقراطى إلى الحكم وكان زعيم هذا الحزب (أوسكار لافونتين) سياسيا من طراز اليسار التقليدى ، وبسبب رياسته للحزب حدث الصدام بين الحزب ، وأقطاب الصناعة ، وكبار أصحاب الشركات الألمانية ، وبادرت الشركات باتهام الحكومة بأنها تنوى هدم سوق العمل ، على حساب قرارات اشتراكية لصالح العمال بفرض ضرائب باهظة، وهددوا بنقل رؤوس أموالهم إلى أسواق آخرى أقل تكلفة وأعلى ربحية ، ووضع الحكومة فى مأزق مع القوى العاملة.

وهكذا هدد أصحاب الشركات الحكومة الجديدة عقب توليها السلطة ، وطالبوها بإعادة النظر فى الضرائب ، وإعادة هيكلة الاقتصاد بحيث تستطيع المنافسة التجارية فى الأسواق العالمية . ولأن لهذه الشركات استثمارات ضخمة بعضها خارج ألمانيا ، حيث الضرائب المنخفضة والعمالة الرخيصة فقد خشيت الحكومة من صدام يهز ألمانيا ذاتها ، فقدَّم زعيم الحزب الحاكم (أوسكار لافونتين) استقالته من رياسة الحزب فى ١١ مارس ١٩٩٩م وترك قيادة الحزب لنائبه (شرودر) الذى قبل التكيف مع العولمة . وقضى طغيان العولمة على أفكار لافونتين الذى دخل الانتخابات بوعد لناخبيه على توطين العاملين بوظائف جديدة ، والدعوة إلى ميثاق للعمالة يحدد ساعات العمل ، وظروف أفضل للعمال .

إن الذى نادى به ممثل السوق الألمانى لم يكن إلا صدى الأمر الواقع ، فرياح العولمة العاصفة تهدد باقتلاع كل ما يقف فى طريقها ، وألمانيا التى تمثل مع اليابان القوة الاقتصادية الثانية، لن تتخلى عن موقعها فى العالم لكى تشغله دولة أخرى.

وإذا كان الإنسان يتدخل فى صنع التطور الاجتماعى ، فإنه يكون عرضة للانحراف الأخلاقى ، أو الانجذاب نحو ثقافة ما ، مما يساعد على تحولات المعرفة والثقافة التى تؤثر فى تحريك مجتمع ما . فإذا كان المجتمع بالأساس من صنع الإنسان ، فإن رغبة هذا الإنسان قد تغلب الاستقلالية الشخصية ، فيتصرف بعقلانية بحتة ، ويتحول التواصل بين أفراد المجتمع إلى تواصل مشوه ، وتفتقد

الصلات التراحمية لتحل محلها صلات تعاقدية بحتة ، وهو ما حدث بالفعل فى المجتمع الرأسمالى الجديد .

إن شؤون الحياة لم تعد تحركها القيم الاجتماعية القديمة، بل تحركها عقلانية أداتية، وقد وصلت عقلنة القرارات التى تخص الشأن العام إلى حد تفويض الحاسوب بالقيام بهذا الدور بدلا من التنظيمات الاجتماعية (١) وقد بات استخدام الآلات التى حلت محل العمل الإنسانى ضربة فى مقتل فى سوق البطالة ، باعتبارها أكبر وسيلة ضغط على العمال لقبول أدنى الأجور . وإذا كانت البطالة قد هددت مجتمعًا متقدمًا مثل ألمانيا ، فإن تفاقم المشكلة يزداد فى البلاد النامية (فى ظل العولمة) لأنه طبقًا لتقديرات الأمم المتحدة فإنه من المتوقع أن يدخل سوق العمل سنويًا بالبلاد النامية حوالى ٣٨ مليون إنسان يبحثون عن فرص عمل» (٢) .

إن رياح العولمة لم تعصف بقيم اقتصادية تمسكت بها الحكومات الألمانية طويلا فحسب ، ولكن عصفت أيضًا بأكبر القوى الاشتراكية فى العالم كالصين فقد بدأت الصين تسييس اشتراكيتها ، فلم تعد الاشتراكية تسير فيها بعقـلية (ماو) فقد أخذ (دنج إكسياو بنج) Dnug Xiaoping . يطبق « الاشتراكية القائمة على اقتصاد السوق » . وتدل الدلائل على أن الصين تملك إمكانات القفز فى قائمة القوى الاقتصادية الكبرى فى العالم بما يمكنها من أن تقف فى الصف الأول فى ميادين المنافسة الاقتصادية بين كبرى القوى الاقتصادية العالمية ، لدرجة أن بعض الخبراء يرون أنها القوة التى ستزيح ألمانيا واليابان فى خلال سنوات قليلة ، لتكون أكبر القوى المناوئة للرأسمالية الأمريكية .

إن العالم يشهد الآن صهر اقتصاديات إقليمية ووطنية فى اقتصاد عولمى لا يعترف بالمكان ولا بالدولة ، ولا بالقوى الاقتصادية الخاملة .

(٦)

عرف العرب الوطن والتوطن ، ومنه الوطنية والمواطنة ، وربط اللفظ العربى

---

(١) انظر : إيان كريب : النظرية الاجتماعية ، ص ٣٥٦ عالم المعرفة رقم ٢٤٤ ، أبريل ١٩٩٩م .

(٢) د. رمزى زكى : الاقتصاد السياسى للبطالة : تحليل لأخطر مشكلات الرأسمالية ص ٩٨، عالم المعرفة رقم ٢٢٦ أكتوبر ١٩٩٧م .

بين الوطن ، وموقع الجهاد كما جاء فى الآية الكريمة قال تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

وقال طرفة بن العبد :

على موطن يخشى الفتى عنده الردى ... متى تعترك فيه الفرائص ترْعَدِ

فالكلمة لها جذور عربية منذ نشأة العرب ، ولما جاء الإسلام أعطاها معنى الحب والإيثار لترتفع مكانتها فى قلب الإنسان،كما ورد فى حديث الرسول ﷺ : وهو يودع مكة يوم الهجرة : « والله لولا أن قومى أخرجونى منك ما خرجت . يا أحب بلاد الله إلىّ » والإنسان يرتبط بوطنه بروابط فطرية تنمو معه وتشده إليه. وفى رواية لأبى داود: « هى وطنى ودارى » .

وفى كشاف التهانوى : « الوطن عند أهله يسمى وطن الفطرة والقرار ، وفيه يكون مولد الإنسان ، ومأهله ومنشأه » (١) .

ولم تتبلور مفاهيم القومية والوطنية فى أوربا بدءًا من فرنسا وإنجلترا وإسبانيا إلا فى القرن الثامن عشر ثم فى ألمانيا وإيطاليا فى القرن التاسع عشر ، وفيه أخذ البعد الاقتصادى شكلا مهما فى مفهوم الهوية الوطنية والقومية وارتبط بمصالح الأمة خاصة فى المجالين الاقتصادى والسياسى .

وبحسب مقولة على مزروعى فإن القرن الحادى والعشرين سيشهد هبوط الوطنية (لتعولم المجتمع فيه) وسيعاد تكوين الوطنية بحسب الفكر الغربى التاريخى من أفكار ومشاعر وولاءات نزعات عاطفية تتصاعد مع نمو الدولة ، ونضوج الأمة ، ولن يكون هناك فرق بين نمو الولاء للدولة كنظام رسمى ، ونضوج الولاء للأمة كتكوين اجتماعى يشمل أعضاء المجتمع » (٢) .

لكن العالم الغربى سيظل متفردًا بمفهوم خصوصى للوطنية ، التى ربطت دائمًا علاقتها باحتلال أراضى حرة لم تقدم إليها أية إساءة ، ويتخذ العالم الغربى من الاستعمارى (رودس) والشاعر (كبلنج) رمزين لوجود إمبراطورية غربية

---

(١) التهانوى : كشاف مصطلحات الفنون ، ط الهند سنة ١٨٩١م ، وارجع إلى : لسان العرب مادة وطن .
(٢) مجلة المعرفة ، السعودية ، العدد ٥٦ ، ص ٦٦ .

استبدادية على الدوام . يقول كبلنج فى دعوة إلى الاستعمار غير المبرر :

أرسلوا إلى الأمام خير ذراريكم

ادعموا تماسك أبنائكم فى الأراضى المحتلة لخدمة مصالح المهتمين بكم

تحملوا مسؤولية الرجل الأبيض

حروب السلام الضارية تملأ أفواه الجوعى

وتعلن نهاية المرض

الموانى التى يفترض ألا تدخلوها

والطرق التى يفترض ألا تردوها

اذهبوا واصنعوا من حياتكم

وضعوا عليها الشواهد من موتاكم .

إن كبلنج ورودس يناشدان الوطنية الغربية أن تتحمل دورًا فى الاستعمار الذى يعدانه عمليا وطنية إمبريالية (١) .

ومع أن بعض الإنسانيين الأوربيين يبشرون بتلاشى القومية والوطنية ، وجنوح العالم إلى مذهب إنسانى يجمع تحت مظلته البشر جميعًا ، إلا أن اليهود أصروا على الانغلاق فى جلودهم ، ثم ظهرت العرقية فى بحوث العلماء ، برز ذلك فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، حيث أخذت القومية والعرقية تتزايد حتى بلغت درجة عالية بعد تفكك الاتحاد السوفييتى ويوغسلافيا ، ودول البلطيق والتشيك والسلوفاك ، ولا تزال المشكلات العرقية غالبة فى قلب الحضارة الغربية والدينية (الكاثوليك ـ البروتستانت . الأرثوذكس ـ المسلمون) وبرز تعريف العرقية Ethnicity وتعنى فى جذورها الأولى : الوثنى والهمجى ، وكان مشهورًا فى الولايات المتحدة فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وأيا ما كان التضارب بين مفهوم الوطنية والعرقية، فإن الوطنية تعنى أرضا استوطنها قوم جعلوها وطنًا لهم ، وعرفوا حدودها ، وارتبطوا بها رباط انتماء

---

(١) مجلة المعرفة ، السعودية ، العدد ٥٦ ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

وولاء ، وجعلوا لأنفسهم فيها قيمًا تحكمهم من الدين واللغة والثقافة .

والحديث عن الوطنية ألزم ما يكون اليوم الذى يواجه فيه العالم الصغير الضعيف عالم قوى يبشر فى الظاهر بإلغاء الحدود الجغرافية أمام السيطرة المعرفية .

والدعوة للوطنية وأهمية الولاء لها والانتماء إليها ليست دعوة إلى التقوقع على الذات ، أو للاستعلاء ، ولكنها دعوة تحفيز للذات لكى تستعد لمواجهة العولمة ومن ثم فإن بعث الشعور بالوطنية لا يمثل ردة فى التفكير ، بقدر ما يمثل واقعيته ، فالوطنية سياج يحمى أصحابه من التهميش ، ودعوة إلى الانتماء إلى الأرض وصنع واقع أخلاقى مستمد من ديننا وثقافتنا ولغتنا ، ولنعلم أن العولمة لا تدعو إلى شراكة من كل البشر فى ثمار التقدم المعرفى ، بل إن الدول الكبرى ستظل تحتفظ لنفسها بما يحافظ على مكاسبها ، بل زيادة هذه المكاسب باستمرار ، وهذا يحفزنا إلى أهمية امتلاك قوة دفع وطنى تمكننا من التعامل مع العولمة .

إن الدول العظمى تطور ممارساتها التسلطية الفاعلة فى شكل رسائل معرفية علمية تخفيها عن الشعوب الضعيفة. ولهذا فإن مقولة : إن ثمار العولمة ستعبر كل الحدود لينال منها كل الشعوب القوية والضعيفة محض هراء . بل إن الصحيح أن ذلك يتم فى إطار مصالح القوى العظمى: « ويمثل تطبيقًا شرسًا لسلوكيات تسلطية من الأقوى تجاه الأضعف » (١) . برز ذلك جليا فى موقف الولايات المتحدة والغرب من ورائها فى حروب: الخليج، والبوسنة، وكشمير ، وإندونيسيا (تيمور الشرقية) هذا فى مجال السياسة ، وفى مجال الاقتصاد فى موقفها من نفط (أوبك) فهى تفرض سعره الخام ، وضريبة الكربون الملوث للبيئة . فإذا صنعته وأعادت تصديره إلى الدول التى أنتجته كان ثمنه يعادل أكثر من مائة ضعف ثمنه الخام .

إن الواجب على الدول الصغيرة الفقيرة أن تتنبه إلى وجود مواجهة وطنية إزاء طبيعة العولمة ، وإلى ما تقوم به الدول العظمى ؛ لأن الدول الصغيرة لا تستطيع أن تدخل ضمن تيار العولمة دون ضوابط وطنية ، تقوم على سياسات وطنية ترعاها الدول الوطنية . وهذا واجب النخبة من الوطنيين المثقفين لرسم أسلوب تعامل

---

(١) د. محمد رؤوف حامد : الوطنية فى مواجهة العولمة ، ص ١٥ كتاب ، اقرأ رقم ٦٤٧ .

شعوبهم مع العولمة ، فهم آليات العولمة التى ينبغى استيعابها فى إطار التعامل مع المصالح الوطنية .

المطلوب : فهم واع للوطنية ، ووعى فاهم للعولمة .

ابتداء لا تناقض بين الوطنية والعربية والإسلامية ولا تضاد ولا انفصام ، والرسول ﷺ لم يفصم بين حبه لوطنه مكة ، وحبه للإسلام وحرصه عليه ، عندما هاجر إلى المدينة ليقيم أول دولة مدنية على دعائم الإسلام ، وبالنسبة للعرب والمسلمين لا تضاد بين الوطنية والعروبة والإسلام ، وسواء كانت الوطنية مفهومًا قديمًا كالذى ورد فى معجم لسان العرب وكشاف التهانوى ، أو مفهومًا من مفاهيم جديدة تولدت بعد انهيار الخلافة الإسلامية العثمانية ، ونشوء فكرة القومية الطورانية ، والقومية العربية وما رافقهما من فكرة الجامعة الإسلامية بمثابة حلم لبعث عربى إسلامى فى العصر الحديث ، فلا تضاد بين الانتماء الإسلامى والوطنى، إلا إذا تعارض الانتماء إلى الإسلام كانتماء يجمع كل المسلمين على المصلحة المرسلة، والانتماءات العاطفية الأخرى. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة] ، وقال تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] ، فإذا اتسعت دوائر الانتماء فى فكر الإنسان وتكاملت فى ممارساته الحياتية (طبقًا للدكتور محمد عمارة) فلن يكون هناك تناقض فى الفكر والعمل الإسلاميين بين كل من دوائر الانتماء الفطرى للإنسان ، فالإسلام هو الذى يستدعى وجود الوطن ومشاعر الوطنية ؛ لأنه لا تكتمل إقامته دون وطن يتجسد فيه . . . والعربية لسان الدين ، وسبيل للعقل المسلم لفقه الدين والاجتهاد فيه » (١) .

ولهذا رفض الإسلام العرقية داخل الوطن الإسلامى ؛ لأن العرقية معيار جاهلى . يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . وقد جعل الله تعالى التوقف

(١) مجلة المعرفة ، العدد ٥٦ ، ص ٦٨ .

عن حب الوطن ، وعدم الانتماء موت للإنسان . يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) ﴾ [البقرة] ، فهم أموات معنويًا ، مع أنهم أحياء ماديًا يأكلون ويشربون، ولهذا قال الشيخ حسن البنا : إن الوطنية لم تخرج عن كونها جزءًا من تعاليم الإسلام ، وإذا كان العلم من رموز الوطنية ، فقد استخدم الرسول ﷺ هذا الرمز وحرص عليه ، وحرض المسلمين من بعده : « الإسلام والوطنية ممتزجان ، وإن المخل بشيء من لوازم الوطنية ، إنما حدث له ذلك نتيجة ضعف فى التزامه الإسلامى ، وإنه لا يتنكر للإسلام إلا خائن لوطنه غاش لمجتمعه » (١) .

إذن ما موقف الوطنية كمعيار قيمى من العولمة ؟ وهل الوطنية كمصطلح مضادة للعولمة ؟ إن هذا الفهم عند بعضهم يخيف بعضًا من نخبة المثقفين العرب للدرجة التى جعلت الشيخ عبد العزيز الخويطر يتساءل : « هل ستدرج الوطنية ضمن رفات ما قبل العولمة ؟ (٢) . الذى يدفع إلى هذا التساؤل تصاعد أثر العوامل العالمية السلبية فى ممارسة الشعوب للسيادة الوطنية فى دول العالم الثالث . بصفة خاصة : « لأن السياسيين المعينين محليا ليس لديهم خيارات كبيرة فى الميادين الرئيسة الاقتصادية والثقافية ؛ لأنهم مضطرون إلى تنفيذ سياسات مصممة إلى حد كبير من قبل المؤسسات العالمية المعولمة : إنهم يتحولون إلى موظفين دوليين بعد أن كانوا حكامًا محليين » (٣) .

وتعمل الولايات المتحدة من خلال مؤسساتها المعولمة لفرض وصايتها على العالم ، وتمثيل دور الحكومة العالمية ، وهذا يحفزها لسياسة الالتفاف بالسيطرة على الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها ، وإذا استمرت الولايات المتحدة تتحكم فى تعيين المسؤولين السياسيين فى العالم ، وتدفع المنظمات الدولية المالية والشركات الاقتصادية المتعدية الجنسيات للتحكم فى المجالات العالمية الاقتصادية والثقافية ،

---

(١) د. عبد الرحمن الزبيدى ، مجلة المعرفة ، العدد ٥٦ ، ص ٨٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ .
(٣) برهان غليون ، مجلة المعرفة ، العدد ٥٨ ، ص ٧٧ .

فإن ذلك سيضعف استقلال ممارسة السيادة المحلية فى الدول القطرية » [١] . ومن هذا يتحفز د. محمد رؤوف حامد لمواجهة العولمة بمصطلح الوطنية ، بدعوة لفكر عالم ثالثى ينبثق من خصوصياته وإمكاناته لكى يحقق أهدافه ، وهو يقوم بأطروحته الحلم دون الحل ، فهو يرى أن الخوف يدفع الإنسان إلى اللواذ بما يحقق له الأمان ، وتقوم الفكرة على قبول الكوكبية، ورفض العولمة ؛ لأنها برأيه تحقق مصالح أصحاب القوة المتمثلة فى الدول الكبرى والشركات متعدية الجنسيات دون غيرهم ، أما الإطار الكوكبى بحسب رأيه فستكون الجماعة الدولية به مؤثرة وموجهة لشعوب الكوكب فى أجزائه المختلفة من منظور تحقيق المساواة والعدل للجميع » [٢] .

لكن يظل النظام الرأسمالى المعولم مرتبطًا بجذوره ، ممثلاً لأطواره منذ بداية العصور الحديثة ، ومع كل الإجراءات الفكرية التى تحيط بالنظام الاقتصادى المعولم فسيظل مبتورًا بل قد يتفاقم كلما زادت سطوة القوة الأعظم فى العالم ؛ لأن كل ما يقال عن عالمية هذا النظام فى مواجهة النظم القومية ستظل حبرًا على ورق . والدول الكبرى خاصة الولايات المتحدة تستخدم كل طاقاتها فى كل المجالات فى ظل زعم المشروعية الدولية لتنفيذ مخططاتها على دول العالم الثالث، ولو اقتضى ذلك استخدام القوة ، وتفريغ الشعوب المغلوبة من خصوصياتها فى كل المجالات المادية والثقافية .

لقد نتج عن دمج خطاب ما بعد الحداثة ، وفكر الرأسمالية المعولمة ، ظهور تفاوت فى توزيع الدخول ، وانتشار البطالة والفقر والتهميش الاجتماعى لأغلبية المجتمع ، وفرضت رأسمالية السوق نفسها على حساب قيم ضابطة لأى مجتمع مثل العدالة الاجتماعية ، والقيم الأخلاقية والمساواة .

الثورة التكنولوجية ـ غير المنضبطة ـ تؤثر بالضرورة فى تشكيل المجتمع ، فالعولمة والحداثة ، تقضى على نظام اجتماعى قديم ، ليحل محله نظام اجتماعى يتواءم معها ، فالطاقة بمقدورها أن تنتج خامات تحل محل خامات الطبيعة ، كما أن

---

(١) برهان غليون ، مجلة المعرفة ، ٥٨ ، ص ٧٧ .

(٢) د. محمد رؤوف حامد : الوطنية فى مواجهة العولمة ، ص ٩ ، سلسلة اقرأ .

الطبيعة الحيوية يمكن أن تتحكم فى نتاج الزراعة النباتى والحيوانى ، ولأن فى هذا النتاج طعام الإنسان وشرابه مع تدخل الهندسة الوراثية . يمكن أن يؤثر سلبيًا فى التكوين العضوى للإنسان. كما أن ثورة المعلومات لها قدرة مباشرة على التحكم فى الاختراعات ، وتشكيل النتاج فى جميع ميادين النشاط الاقتصادى ، مما قد يؤثر سلبيًا فى تشكيل المجتمع نفسه تشكيلاً كيفيا . فالأفراد الذين كانوا يديرون نظام ما قبل العولمة والحداثة لن يعودوا صالحين ، ويتحتم استبدالهم بعناصر جذيدة أقل عددًا وأكثر دربة ، وهذا بدوره سيؤثر تأثيرًا سلبيًا فى الحياة الاجتماعية والثقافية بصورة حتمية . فالتكنولوجيا الحديثة ، ومنها تكنولوجيا المعلومات ، ستكون بيد عدد قليل من أصحاب المصالح المعولمة وهذا بالطبع سيؤدى إلى خلل فى تكوينات المجتمع ماديًا وثقافيًا .

كما أن ثورة الاتصالات وضعت الشعوب فى العالم كله فى تحديات غير عادلة؛ لأن ثورة الاتصالات تتطلب أموالاً ضخمة، لا تملكها دول العالم الثالث . كما أن شبكات الاتصالات فى الدول الرأسمالية تعمل بحسب متطلبات السوق ، ومن ثم فستكون موجهة لأغراضهم دون مراعاة لأى التزام أخلاقى ، ودون ما حياد يحترم ثقافة الآخر أو سيادته الوطنية. كما أنها ستحتفظ بالقوة المعرفية، وقدرة التلاعب بالرأى العام . وهو ما تصدت له فرنسا فى عهد ميتران مع أنها أهم دولة أوربية الآن . فقد وقفت ضد عولمة الثقافة وقال ميتران : « إن أمريكا عن طريق الجات تريد أن تحقق ما فشلت فيه الشيوعية ـ وهو إيجاد ثقافة واحدة » (١) .

إن هيمنة الولايات المتحدة يؤكد الطابع الرئيس للعولمة . لقد حجبت التجديد للدكتور بطرس غالى فى الأمانة العامة للأمم المتحدة ؛ لأنه نسى مرة واحدة وقال: إن الولايات المتحدة ليست الأمم المتحدة ، وهذه العبارة تحمل المعنى نفسه الذى عبر عنه (ناكومارا) وزير خارجية اليابان بوضوح فى قوله : « إن ما تطلق عليه الولايات المتحدة تسدية اقتصاد حر ، ليس حرية بحال من الأحوال ، إنه نوع من الحرية يدفع بالقنابل والصواريخ كلما ظهر أن بلدًا آخر حقق تفوقًا » (٢) .

---

(١) الأهرام فى ١٨ أبريل ٢٠٠٠م .

(٢) د. محمد رؤوف حامد : الوطنية فى مواجهة العولمة ، ص ٢١ .

وإذا قبل مجتمع ما من العالم الثالث العولمة ، فليكن هذا القبول فى إطار الحرص على المصلحة الوطنية بتحفيز المواطنين على العمل من أجل الوطن قبل أى شيء، وتمكين القدرات الوطنية من استيعاب كل المعارف والإمكانات المحلية «وإعمال كل من المعارف والإمكانات المحلية الممكنة التى تجعل من القدرات الوطنية سندًا لبعضها البعض، وتعضيدًا للوطن والمواطنين فى التنمية » (١) . وليس ذلك بدعا فى تجربتنا المنشودة ، بل هو منهج تقوم عليه سياسات الدول القائدة فى عالم اليوم ، مثل الاتحاد الأوربى ـ واتحاد الآسيان ـ والولايات المتحدة الأمريكية، فالاحتياجات الوطنية مهما كان صغرها أصبحت من الأسس التى تبنى عليها الدول الواعية سياستها الداخلية والخارجية ، وإن حقائق الحياة لا يمكن أن تتجاهل دور توطين الأفراد على حب الوطن ، والسعى من أجل تحقيق مصالحه ، وخير دليل على صحة ذلك خطاب الرئيس الأمريكى (بيل كلينتون) فى الكابتيول فى يوم ٢٧ يناير ٢٠٠٠م وكان مما تضمنه : « لقد بدأنا قرنًا جديدًا بتحقيق ما يزيد على ٢٠ مليون فرصة عمل جديدة ، وحققنا أسرع معدلات نمو، وأول موازنة تحقق فائضًا منذ ٤٢ سنة ، وفى الشهور المقبلة ستنجز أمريكا أطول فترات النمو الاقتصادى فى تاريخها قاطبة ، لقد تبنينا اقتصادًا جديدًا ، وقد امتزجت ثورتنا الاقتصادية ببعث الروح الأمريكية » (٢) .

ومع أننا نرى أن الأنانية الأمريكية من سلبيات العولمة ، فإن الأمريكيين ينظرون إليها على أنها من أساسيات الوطنية الأمريكية ذات الصبغة الذرائعية التى لا ترى بأسا من اتخاذ قرارات سياسية من أجل تدخل عسكرى أمريكى فى أى مكان فى العالم ، وقد وُضع ذلك قاعدة أساسية فى شعار الوصول إلى منصب الرئيس الأمريكى . قال (جورج بوش الابن) فى أثناء حملته الانتخابية : « إن التدخل العسكرى ينبغى أن يكون لمصلحة حماية المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية بصرف النظر عن أى اعتبار آخر » (٣) . لأنه يعود بمليارات الدولارات على الخزانة الأمريكية ، ويؤكد ذلك ما كسبته الولايات المتحدة فى حرب الخليج الثانية ، إذ كسبت ١٤ مليار دولار بخلاف إيجاد فرص عمل للأمريكيين بدول

---

(١) د. محمد رؤوف حامد : الوطنية فى مواجهة العولمة ، ص ٢٩ .

(٢) الأهرام فى ٢٧ يناير ٢٠٠٠م .   (٣) الأهرام فى ١٨ أبريل ٢٠٠٠م .

الخليج » [1] .

ويصور خبيران من خبراء الاقتصاد فى مصر طغيان العولمة الأمريكية :

أولهما : الدكتور عبد العزيز حجازى الاقتصادى المشهور ورئيس الوزراء الأسبق فى ندوة الاقتصاد المصرى فى ظل العولمة بمعرض الكتاب الدولى يوم الاثنين ٣١/ ١/ ٢٠٠٠م . قال : « هناك عالم أول تمثله الولايات المتحدة منفردة ، وعالم ثان تمثله الدول الكبرى : ألمانيا وفرنسا واليابان. وعالم آخر تمثله الدول الاقتصادية الصاعدة فى جنوب شرق آسيا . ثم الدول الآخذة فى النمو . ومن مفارقات العولمة أن ميزانية شركة واحدة من الشركات العظمى أكبر من ميزانية الدول العربية مجتمعة ، وهناك ٤٥ دولة يمثل سكانها ١٧,٧٪ من سكان العالم يملكون أكثر من ٨٠٪ من الناتج العالمى والدخل . وإن ٦٠٪ من سكان العالم الثالث يعيشون بلا صرف صحى ، ٢٣٪ بلا مياه نقية ، ٢٠٪ بلا مأوى .

ماذا أعطت العولمة لمواطنى العالم الثالث : الكوكاكولا والهمبرجر ، وصدرت الولايات المتحدة السلاح للعالم لإشعال الحرب الإقليمية ، وبلغ نصيب الوطن العربى منه ٧٢ مليار دولار سنويًا ، والإنفاق على التسليح فى الولايات المتحدة يبلغ ٣٠٠ مليار دولار سنويًا ، فهل يمكن أن تحقق العولمة السلام ؟! للعالم » .

وثانيهما : الدكتور محمد تيمور رئيس الجمعية المصرية للأوراق المالية قال : «إن المدخرات العالمية تتراوح سنويًا ما بين ٣ تريليون دولار تبحث عن الاستثمار ، وتتجه نسبة ٩٠٪ منها إلى الدول الكبرى فى حين تحصل الدول الناشئة على ١٠٪ أو أقل ولقد أثرت العولمة فى توجهات هذه الأموال ، وعلينا أن نستعد فى مصر لاستقبال ما يطلق عليه التطبيع الإلكترونى حيث تتحرك الأموال بسرعة جنونية ، ولنحذر مخاطر الخروج السريع لهذه الأموال ، وإن كان تقليل المخاطر ليس صعبًا، فالعولمة قادمة ويصعب تجنبها ، ومن أراد أن يركب قطارها فليدفع الثمن » .

والتبعة ههنا تقوم على عاتق النخبة من علماء التربية والتعليم والمفكرين ورجال السياسة والاقتصاد والاجتماع، وخبراء الأعمال والتجارة والتسويق، فهم ممثلو قوة الدفع الوطنى فى مواجهة العولمة ، وعليهم واجب قيادة المجتمع كله ، ودفعه إلى التقدم .

---

(١) انظر مقال : الإنسانية شعار مرفوع، السياسة الأمريكية موديل ٢٠٠٠م ، الأهرام فى ١٨/ ٤/ ٢٠٠٠م .

الفصل الثالث

العولمة

بين المتفائلين والمتشائمين

العولمة
بين المتفائلين والمتشائمين

أولاً : المتفائلون :

تطرح العولمة ههنا كظاهرة متعلقة بكيان عضوى حى يفكر ويعمل ، فى صحيفة الأهرام بدءًا من عدد الجمعة ١٩ مارس ١٩٩٩م وعشر جمع ونيف بعده تحت عنوان رئيس لم يتغير : نحن وظاهرة العولمة . شارك فى حوارياته جمهرة من أعلام التفكير فى مصر ينتمون إلى تيارات متباينة .

الأمر اللافت إلى النظر والفكر معًا أن قضايا العولمة وإشكالياتها طرحت كظاهرة ، والظاهرة لا فكاك منها ، فهى تتلبس المهتمين بها فتشغلهم ، خاصة إذا كانت الظاهرة تدور حول قضايا تهم كل الموجودين فى المحافل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والإعلامية، فضلاً عن المنتديات الوطنية فى الوطن أو خارجه، بحيث لا تنفك عن قضايا الوطن .

إن ظاهرة العولمة تعد تحديًا اقتصاديا وثقافيا خرج من بطن أعظم قوة فى العالم اليوم وأخطرها، وأكثرها جنوحا للبطش والهيمنة، وقد قبل مواطنون يمثلون الوطن هذا التحدى . وخاصة أن مصر أعلنت قبولها للتحدى على لسان رئيسها فى محفل رسمى ، فقد خطب الرئيس فى مؤتمر شعبى بمدينة بور سعيد فى ١٩٩٩/٩/٦م قائلاً : « لقد فرضت العولمة نفسها على العالم ؛ لأنها صنعت بيئة دولية مختلفة ، وأقامت معايير جديدة للاقتصاد الدولى جعلت رؤوس الأموال تنتقل إلى حيث توجد فرص أوسع للربح ، وربطت بين فرص الإبداع ، ووفرة الحوافز ، وساعدت على نقل الموارد الاقتصادية إلى حيث تكون كفاءة الاستخدام » .

وكان من الضرورى أن تدور الحوارات حول : مفهوم العولمة ومكانة مصر منها وكيفية التعامل معها قبولاً أو رفضا أو تعايشًا ، فمصر بلد بقضاء الله وقدره مشاركة بصورة حتمية فى أحداث التاريخ ، هذا قدرها ، رضى أهلها أو كرهوا ،

فذلك قدرها المقدور ، الكامن فيها ، يظهر ويسود ، ثم يعود إلى الكمون ، إلى أن يظهر مرة أخرى . وهكذا دواليك .

ولعل الداعين إلى مواكبة العولمة ينطلقون من حيث انتهت مقولة (فرانسيس فوكوياما) : « الرأسمالية الحرة نهاية التاريخ » أى أن التاريخ ـ بحسب رأيه ـ لم يعد قادرًا على استيلاء مذهب اقتصادى بعد الرأسمالية الحرة ، التى تفترض توحد الحركة المالية والسوق فى العالم كله ، بمساندة الديمقراطية الأمريكية ووسائلها .

إن العولمة بهذا المعنى تشبه القطار، وهو قطار برجماتى Pragmatic قوى ، يحكم على من يمر به، بأن يركب فيه ، وإلا بقى وحده منفردًا لا يحمله شىء إلى حيث يريد ، وكأن ذلك الذى يتخلف عن الركب يتحدى المعايير الدولية فى سباق العولمة . بل يتحدى ذلك الحلم الرأسمالى الذى يبدو فى العقل الأمريكى نبوءة إنسانية مقدسة .

إن المؤرخ الأمريكى (بول كيندى) فى كتاب الإعداد للقرن الحادى والعشرين Praparing For 21th Cencury يجسِّد للعالم هذه النبوءة ـ ذات القدسية ، فالعولمة برأيه ظاهرة إنسانية تقدمية تطورية ، خرجت من رحم حس إنسانى وجودى راق ، تولَّدت من رحم الثورات الصناعية المتعاقبة ، ولا سيما من الثروة الإلكترونية ، وثورة علوم الليزر ، وثورة المعلومات والاتصالات ، والهندسة الوراثية ، وثورة المواصلات التى اختزلت المسافات وضيقت الفجوة بين الخلافات الحضارية والمذهبية ، وجعلت الحدود السياسية وسيلة تنظيمية ، وليست عقبة عسكرية ، ويسرت انتقال رؤوس الأموال والأفكار والتقنية ، وصيانة البيئة ، مؤكدة أن هذه الصيانة تعنى نضج البشرية فى التعامل مع الموارد الطبيعية من ماء وهواء وتربة ومعادن وأشجار ونباتات فى إطار من التناغم البيئى ، باعتبار أن الأضرار بغابات الأمازون ، أو الكونغو لا يعنى الإضرار بأبناء أمريكا الجنوبية أو إفريقيا فقط ، بل الإضرار بأبناء أوربا وآسيا [١] .

هكذا بحسب تقرير (بول كيندى) عن العولمة ، فإن طرح حوارات العولمة فى مضمونها الموضوعى الإنسانى ، ليست قرينا للولايات المتحدة ، بل إفرازًا

---

(١) الأهرام فى ٢١/٥/١٩٩٩م .

إنسانيًا ، ومع أن من حق كل محاور ألا يسلم بكلام (بول كيندى) ، فإن الأمر المقدَّر أن العولمة صارت كائنًا لا يمكن مقاومته ، كما صارت قدرًا مقدورًا .

إذن فما دامت العولمة قدر من أقدارنا ، وجب علينا ألا نتحدى النواميس الكونية ، وأن نحدد موضعنا من « العولمة المقبولة بتحقق عناصر محددة فى قيام المؤسسات ، وسيادة حكم القانون ، وتجويد النتاج فى جو عام من الثقة التى يستقر بها الائتمان المحلى والعالمى » (١) . عند ذلك تكون مصر مقبولة فى سوق العولمة ؛ لأن مجتمعها من المجتمعات الناضجة اقتصاديًا وفكريًا وثقافيًا ، ومستقرة سياسيًا ، قادرة على تكوين كفاءات من أبنائها يكونون قادرين على تحمل المسؤوليات الدولية .

إن هؤلاء المتفائلين يرون فى العولمة أمرًا واقعًا، فهى برأيهم ليست فكرة من الأفكار التى تطرح لمجرد النقاش والحوار والجدل، ثم تنتهى فورتها . وهذا الأمر الواقع برأيهم يحتِّم طريقة واقعية فى التفكير ، لأن العولمة فيما يذهبون آخر أبناء الحضارة الغربية ، التى يجب على العالم أن يحصد مكاسبها . وخاصة أن القطار الغربى ورأسه وقاطرته الولايات المتحدة يصر على تسيير المسيرة البشرية العالمية ويصور الدكتور على الدين هلال الوزير بالحكومة المصرية هذا الأمر فيقول: « إن العولمة تشبه قطارًا تحرك بالفعل فى الوقت الذى لا يزال البعض يتساءل : هل وجود هذا القطار وحركته شرعية أم لا ؟ مع أن سؤالهم وكل قدراتهم لا تملك أن تمنع وجود القطار ، أو شل حركته » (٢) . إن أمثال هؤلاء يعيشون (بحسب رأى المتفائلين) رهن خيالاتهم ، ويبتعدون بعقولهم عن عالم الواقع المحكوم بالحقائق والصدام. ويقول هؤلاء: لنفترض أن العولمة تعمل من أجل هيمنة قوى رأسمالية، فإنها أمر واقع لا يجدى معه التفكير النظرى ، بل التفكير العملى الجاد المجود الدؤوب ، بإعداد كفاءات إدارية تكون قادرة على تكوين مستوى راق من الإدارة، يرقى بالمشاريع والمؤسسات الاقتصادية والنتاجية والتسويقية إلى المستوى الكونى ، والشىء نفسه فى العمل على رقى المجالات الأخرى ، مثل التعليم وطرق التفكير والثقافة والإعلام ووسائل الاتصال .

---

(١) محمد سعيد العشماوى ، الأهرام فى ١٩/٣/١٩٩٩م .

(٢) الأهرام فى ١٩/٣/١٩٩٩م .

إن ركاب قطار العولمة لن يقطعوا الوقت بالثرثرة وتبادل التحيات والمجاملات؛ لأنهم استقلوا القطار من أجل تحقيق نزعة التنافس الإنسانى، إنه قطار كونى ، والمنافسة فيه عاتية تشمل تجويد السلعة، وتجويد البيئة وتنقيتها ، ودعم القدرة على الابتكار والإبداع ، العولمة ليست مؤامرة اقتصادية أو تقانية أو سياسية ، إنما هى تأكيد لفكرة المنافسة العالمية لمن يقدر عليها ولمن يستطيع أن يقبض على النار بأصابع قوية ثابتة . إنها كما صورها الدكتور جورج فهمى باختصار فى النقاط التالية :

١ ـ سوق للاستثمار السياسى فى توازن المصالح بدلاً من توازن القوى .

٢ ـ إثبات أهلية العالم واستعداده لقبول متعدد الأقطاب يسمح باعتلاء القمم، ويستنكر اعتلاء القمة الواحدة .

٣ ـ فرصة لتعميق الانتماء الوطنى بتسويق الأفكار الأكثر مصداقية ، والأقرب تطبيقًا ، والأكثر اتساقًا مع مسيرة الفكر العالمى .

٤ ـ محاكاة النظم الديمقراطية ، وتعدد النظم الحزبية فى اهتمامها بحقوق الإنسان ودوره فى قيادة المجتمع المدنى ، وتوهج قدراته .

٥ ـ ولأن العولمة هى الصيغة التى تبشر بإسقاط الحواجز الاقتصادية والاجتماعية كافة، فإنها دعوة مفتوحة لتقوية الروابط والتكتلات الدولية ، واستغلال الملكات الوطنية فى إشعال الذكاء القومى للانتشار إقليميا وعالميًا (١) ، وضمان حركة التقدم دائمًا إلى الأمام ، وذلك التقدم الذى تدعمه قدرات عقلية وذهنية ومهارات حرفية ، وهذا بدوره يحتِّم علينا العمل من أجل تكوين أفضل للعقول ، وترقيتها بالمهارات ، للوصول إلى أرقى المستويات المعرفية الكونية ، وتدريب الطلاب من أجل الوصول بهم إلى القدرة على إنتاج الحاسبات الراقية ، بحيث لا يتوقف الأمر على استيرادها .

ولن نصل إلى درجة التجويد العملى ، والرقى فى هذه المجالات إلا بتعميق القيم التى ترقى بالتعليم مثل :

١ ـ أن نزرع فى نفوس المتعلمين بدءًا من التعليم الأولى إلى التعليم الجامعى،

---

(١) د. جورج فهمى ، الأهرام ١١/٦/١٩٩٩م .

وما بعد الجامعى الأهمية القيمية للتعليم ، مع تعميق ضرورة الحفاظ على موروثنا الدينى والثقافى ، وتعميق أهمية حركة التقدم بالمجتمع . والاستفادة مما لدى غيرنا متى ثبت صلاحه لنا ونفعه .

٢ ـ أن يُبدأ من التعليم الثانوى التركيز على تعميق أهمية الوسائل التعليمية المؤدية إلى تملك أنظمة المعلومات ووسائل الاتصال المعرفية المفيدة ، وتخصيص الأكفاء من الطلاب النابغين فى دراسة اللغات الأجنبية ، مع تعضيد نبوغهم فى اللغة العربية ، ليكونوا همزة الوصل بيننا وبين المعارف فى اللغات الأخرى .

٣ ـ لا نهتم بتعميق دراسة اللغات إلا لدى هؤلاء الطلاب النابغين فيها ، ليكون العلم بلغتنا العربية، فتعمق قيمه فينا ؛ لأننا فى هذه الحالة سنحصد ثماره ؛ لأنه سيكون نابعًا منا لا من عند غيرنا .

٤ ـ رفع كفاءة الإدارة فى مراحل التعليم المختلفة لكى تستطيع أن تفيد من مواردها المالية والمعرفية والتربوية ووضعها فى موضعها الصحيح .

٥ ـ أن نرقى بالمجتمع ، بتغيير ما بأنفسنا من سلبيات التواكل ، واللامبالاة ونعمل بدأب لنحقق عالمينيتنا .

إن أكثر الآراء تفاؤلاً صدر عن وزير أوقاف مصر ـ الذى تعلَّم بالأزهر الشريف ـ حتى حصوله على أعلى شهادة علمية ، الدكتور محمود حمدى زقزوق فهو يرى عدم جدوى رفض العولمة سواء من منظور كونها المادة والقوة ، أو من منظور إسلامى يهتم بالمادة والقوة . ويؤكد أنه لا خشية على قيم الإسلام من العولمة ؛ لأن الإسلام يحمى المسلمين من خطرها ، فالإسلام ضاربة جذوره فى قلب المسلم ، لا تنال منه التيارات الوافدة . مهما كانت قوتها . فضلاً عن أن العولمة ـ بحسب رأيه ـ أمر واقع لا يجدى معه أسلوب الرفض ، ومن هنا فالواجب أن نتعامل مع العولمة على أساس أنها ليست شيئًا كله شر ، فلنأخذ خيرها ، ولنترك شرها ، وإلا تجمدنا وتقوقعنا ، وفقدنا القدرة على حماية هويتنا الإسلامية . والمحافظة على جوهر الإنسان الذى لا يتمثل فى حياته المادية البحتة فحسب ، ولكن فى جانبه الروحى أيضًا » (١) .

---

(١) د. محمود حمدى زقزوق ، فى مقاليه بالأهرام فى ٧/ ٥/ ١٩٩٩م ، ٢١/ ٥/ ١٩٩٩م تحت عنوان واحد : الإسلام فى عصر العولمة .

ثانيًا : المتشائمون :

لعل أكثر الكتابات تشاؤمًا عن العولمة ، كتاب (فخ العولمة لبيترمارتن - وهارالد شومان) فقد فنَّد مؤلفاه العولمة فى مختلف أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية والإعلامية ، وحاولا التأكيد على أن العولمة فى مختلف أبعادها ستزيد معدلات البطالة وانخفاض الأجور ، واتساع الهوية بين الفقراء والأغنياء، وتقليص دور الدولة فى مجال الخدمات كالصحة والتعليم ونحو ذلك .

إنهما لا يريان فى العولمة إلا الهجمة الجهنمية للرأسمالية لكى تنهى التاريخ لمصلحتها، إنها هجمة لإبعاد الحضارات الأخرى بكل إنجازاتها العلمية والمادية والإنسانية لتفريغ الكون من كل الحضارات إلا حضارة الرأسمالية الأخيرة . ولكن الأمر الذى يؤكده الدارسون لها ، أنها واقع لا يمكن تجاهلها ، وأنها موجودة تمارس مهمتها فى تغيير التاريخ ، فى الوقت الذى تحاول فيه الحضارات الأخرى مثل الفرانكوفونية (بحسب أحد المنادين بمبادئها) إثبات الوجود دون المبالغة بالقول بالتصدى « لتحقيق الديمقراطية الدولية ، والدفاع عن التعددية الحضارية والثقافية ؛ لأن تلك التعددية هى التراث الحقيقى للمجتمع الدولى » [1] .

وللحقيقة فقد أحدثت العولمة تغييرات جذرية فى الهياكل المادية للنتاج المحلى الذى تنتجه الدول لرفاهية أبنائها ، وصار النتاج الدولى لا يفى باحتياجات السوق العالمية ، وقد تكون الدولة المنتجة فى حاجة شديدة إليه ، ولكن طغيان السوق العالمية قد يحرمها منه، وهذا الحدث يؤثر بصورة مباشرة فى الائتمان والتنمية وطنيًا ؛ لأن ما كان ينتج وينمى داخل الدولة الوطنية ، ويستخدم لرفاهية أبنائها ، صار يخضع لقوى خارج حدود الوطن ، تدور فى فلك نظام دولى . ومع وجود أسواق محلية ، وبنوك محلية لصنع الائتمان والتنمية المحليين ، فإنها لم تعد مستقلة ؛ لأنها تشكل جزءًا من النظام التسويقى الدولى ، يؤثر فيها مدًا وجزرًا دونما اعتبار للسوق المحلية ، وعلى المستوى الثقافى والمعتقدات والأفكار ، فإن العولمة تمارس تأثيرها القوى فى تغيير العادات والاتجاهات والمشاعر والتذوق والسلوك الفردى بفعل ثورة المعلومات ، وسهولة الاتصال ورخصها. ومع أن هذا

---

(١) بطرس بطرس غالى : السياسة الدولية ، العدد رقم ١٣٣ ، فى يوليو ١٩٩٨م ، ص ١٥٥ .

التأثير يصعب قياسه ومقارنته بالتنوع الثقافى الذى لا يزال قائمًا : « إلا أن تأثيراته ستكون الأكثر أهمية على المدى البعيد فى كل التحولات التى تفرزها العولمة » (١) .

ففى المجال الاقتصادى : طرح مؤلفا (فخ العولمة) إشكالية تداعى المشكلات الاقتصادية الناتجة عن العولمة فى فصل: مجتمع الخمس الثرى وأربعة الأخماس الفقراء، وكان يقصد أن أممية الرأسمالية الجديدة جعلت خمس سكان العالم أغنياء يتحكمون فى مصير الأربعة الأخماس من الفقراء حيث لا تهم صفة المواطنة لهؤلاء الـ ٢٠٪ فأممية المال وطنهم ، فهم يعيشون بالحاسوب ويتصلون بالحاسوب بحسب الحاجة إليهم أو عدمها،ولا تعنيهم المشكلات التى يعانى منها الـ ٨٠٪ فهى مسألة تخص أصحابها،وهم يعيشون بمستوى رفيع لا يعرف مستوى الطبقة الوسطى يرفعون شعار : إما أن تأكل أو تؤكل To have Lunch or be Lunch أما أولئك الذين لن يحصلوا على فرصة عمل، وهم مئات الملايين فى جميع أنحاء المعمورة فيمكن إلهاؤهم بما يفيض من ثدى المرضع : أى بالإعانات التى تقيم الحياة ، وشغلهم بمفاتن صدر الممثلة (باميلا أندرسون) ممثلة الإغراء سباحة الإنقاذ فى المسلسل الأمريكى (باى واتش) أو شغلهم بأبطال وطنيين تافهين فى الرياضة والتمثيل والغناء ، وجعلهم ينظرون إليهم على أنهم أبطال خارقون .

وهذا النوع من الاقتصاد الذى يملك ـ بخيوطه ـ أولاد ذهبيين كما يلقبونهم فى البورصات ، يمسكون بتلابيب الاقتصاد العالمى ، لم يعد يعنيه مشروعات التنمية أو مهمة العالم فى الأخذ بيد الدول الفقيرة ، ولقد ظن أحد رؤساء الدول العربية البارزين بهؤلاء خيرًا ، فوقف يخطب فى مؤتمر دافوس ١٩٩٩م مذكرًا دول الشمال الغنية بوعودهم إزاء دول الجنوب ، فتبسم أمميو المال وكأنهم يقولون : يبدو أنه لا يزال يحفظ دروسًا قديمة عن التعاون من قبل الأغنياء لصالح الفقراء .

ولكن مع هذا فإن قلعة أممية المال قابلة للانهيار فى أى وقت ، كما يتوقع الدكتور رمزى زكى : « فإن مظاهر قوتها تفضح هشاشتها ، ويمكن أن يحدث الانهيار عند إفلاس مصرف واحد من مصارفها . أو سقوط واحد من اللاعبين الدوليين فى عالم المضاربة » (٢) .

(١) د. إبراهيم نصر الدين ، الأهرام فى ١٩/٧/١٩٩٩م .
(٢) عالم الفكر ص ٣١ ، أكتوبر / ديسمبر ١٩٩٦م .

وفى المجال السياسى : فإن التناقض الموجود بين الديمقراطيات المحلية ، وديمقراطية العولمة التى حولت السلطة من الحكومة (الدولة) إلى الشركات متعدية الجنسيات ، العابرة للقارات ، ساعد على نشأة نوع من البيروقراطية الدولية الناشئة عن تحكم هذه الشركات فى سياسة الدول وتهديدها بإخراج أموالها من أوطانها ، مثلما حدث فى ألمانيا فقد أخضعت بيروقراطية الشركات العظمى الألمانية ، سلطة الحكومة لإدارتها ، وأبعد أمين عام الحزب (أوسكار) لأنه كان يصر على التمسك بروح الاشتراكية ، ويريد زيادة الضرائب من أجل التزامات الحكومة قبل الطبقات العاملة . ولهذا فقد فقدت حكومة شرودر الاشتراكية مصداقيتها أمام مواطنيها وتراجعت الديمقراطية الألمانية ، وأنذرت بعدم استقرار سياسى ، ولولا القوة الذاتية التى يتمتع بها الشعب الألمانى ، وروحهم القوية ، وحبهم لوطنهم لكان رد الفعل عنيفًا ، ولو حدث هذا فى دولة أضعف من ألمانيا لضعفت سلطة الدولة وصارت غير قادرة على الهيمنة على شعبها ، ولصار دورها هامشيًا ، وتخلت عن دورها تجاه شعبها وقيادته ، وحماية الأفراد فى مجالات المال والثقافة والتعليم والصحة ، وغير ذلك من حقوقه المدنية .

والعولمة أشد خطورة على الدول الضعيفة ، فهى مرتبطة بتهميش الدول المفككة لأنها تستمد هويتها من الاعتراف الدولى الذى تقبض عليه الهيمنة الأمريكية ، ومن دار فى فلكها من الدول الأوربية، فهؤلاء هم الذين يمنحون شهادات ميلاد الدول ووفاتها . فهم الذين منحوا شهادة ميلاد إسرائيل ، وهم الذين رفضوا منح شهادة ميلاد لدول كثيرة مثل الصومال ، التى أعلنت عن قيام جمهورية أرض الصومال فى سنة ١٩٩١م دون أن يعترف بها أحد ، فبقيت بلا هوية أو نسب .

كما أن هناك دولاً لم تمنح شهادات حسن سير وسلوك حتى الآن . وتتهم بالرجعية والإرهاب وعدم تطبيق حقوق الإنسان مثل السودان وليبيا والعراق وكوريا الشمالية وعلى هذه المقاييس تتم معاملتهم ، فتحاصرهم اقتصاديًا وتهاجمهم معنويًا فى المحافل الدولية وتحرمهم من المعونات الدولية ، وإغلاق الأسواق العالمية فى وجوههم ، وأمام السلع المنتجة فى بلادهم . بل قد يصل الأمر إلى تجويع الشعوب كما حدث بالعراق .

ولا يستوى هذا الأمر على كل الدول ، ولكن غالبًا ما يكون الحكم صادرًا عن وجهة النظر النفعية للدول الكبرى ، أو التى ترعى مصالحها كإسرائيل ، فمع أن إسرائيل دولة عدوانية لا تلتزم بحقوق الإنسان فى المعاملة بين مواطنيها فهى دولة عنصرية تضم عربًا من المسلمين والمسيحين واليهود ، فهم يفرقون تفريقًا عرقيا حتى بين اليهود ، فالإشكناز من اليهود هم الطبقة العليا . والسفارديم يلونهم فى الدرجة ثم يهود المشرق من عرب ويهود الفلاشا ، ويهود هنود وغيرهم (درجة ثالثة) ثم العرب من المسلمين والمسيحين ويمثلون ٤٠٪ من السكان ، هم آخر طبقات المجتمع . مع كل هذا فإن إسرائيل أولى الدول بالرعاية الأمريكية والأوربية .

وكما كانت الرأسمالية ـ قبل رأسمالية العولمة ـ تضع مبررات السيطرة على الشعوب تحت ذريعة رسالة الرجل الأبيض من أجل تمدين الشعوب التى أطلق عليها الشعوب البدائية ، فإن من إفرازات رأسمالية العولمة تفكيك الدول ، ونشر الفتن فيها لإشعال الحروب الأهلية والعرقية ، وبروز جديد لعصابات المافيا العابرة للقارات أى عولمة الإرهاب المنظم . يقول مارتن وشومان (فى فخ العولمة) « إن الرأسمالية النفاثة Turb Kapitalismus التى تبدو وكأن انتصارها على المستوى العالمى قد صار أمرًا حتميًا ، فى طريقها لهدم الأساس الذى يضمن وجودها ، أعنى الدولة المتماسكة والاستقرار الديمقراطى » (١) . فالتغير العولمى وإعادة توزيع السلطة والثروة لا تمكن الفئات الاجتماعية فرصة التطور السريع الذى يساوق العولمة، بل يقضى على الفئات الاجتماعية نفسها ، وقد تصل الأزمة أعلى مراحلها باتباع النموذج الأمريكى الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى « فليس هناك مكان بالعالم يبدو فيه التدهور بينا للعيان ، كما هو بيّن فى المواطن الأصلى للثورة الرأسمالية المضادة ، وعلى سبيل المثال ففى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى ولاية كاليفورنيا التى تحتل بمفردها المرتبة السابعة فى قائمة القوى الاقتصادية العالمية، فاق الإنفاق على السجون ، المجموع الكلى لميزانية التعليم ، وهناك ٢٨ مليون أمريكى ، أى ما يزيد على عشر سكان الولايات المتحدة قد حصّنوا أنفسهم فى أبنية وأحياء سكنية محروسة ، ومن هنا فليس بالأمر الغريب أن ينفق المواطنون

(١) فخ العولمة ص ٣٥ .

الأمريكيون على حراسهم المسلحين ، ضعف ما تنفق الدولة على الشرطة » (١) .

إن الغلو فى تعاطى الرأسمالية يولِّد صراع الطبقات الاجتماعية فى المجتمعات، ويولِّد المذاهب السياسية المنحرفة، ولقد دخلت الفاشية إيطاليا والنازية ألمانيا والشيوعية روسيا من نوافذ الصراع الاجتماعى غير المتكافئ ، ولقد ظهرت بوادر هذا الصراع الآن فى شمال إيطاليا فقد قامت دعوة إلى الانفصال عن جنوبها؛ لأن الشمال المتقدم الغنى، لا يريد تحمل واقع الجنوب الأدنى تقدمًا والأكثر فقرًا من الشمال ، كما أن هناك نزعة للنازية الجديدة فى ألمانيا والنمسا ، وصلت إلى مستوى مؤثر فى سياسة تلك الأخيرة ، بزعامة السياسى النمساوى (جورج هيدر) زعيم النازين الجدد فى النمسا ، كما نما نفوذ اليمين المتطرف فى ألمانيا وفرنسا ، إلى حد الدعوة إلى اضطهاد الجاليات الإسلامية فى هذه البلاد .

إن حرية السوق بلا حدود ، وبلا ضوابط تولد التناقضات فى المجتمعات ، بل فى المجتمع الواحد . ودائمًا يقترن بالمضاربات نسف المكاسب الاجتماعية ؛ لأن المضاربين أميون أخلاقيًا وأغلبهم « يجهلون العمل السياسى ، كما يجهلون دروس التاريخ ، فمن المعروف أن التوتر الاجتماعى وانتشار البطالة لها دور حاسم فى قتل الديمقراطية » (٢) .

إن أثرياء العولمة يرون أن الفقر والبطالة والمرض مشكلات شخصية ، لا علاقة لها بها ومن ثم فهم لا يفكرون فى خطر اتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء على أى نظام سياسى .

إن حرية السوق أخطر من الرأسمالية التقليدية ، فبينما حرصت الرأسمالية التقليدية على قوة الدولة القومية فى حماية المؤسسات ، ومنها المؤسسات المالية ، فإن الرأسماليين الجدد لا يفكرون إلا فى حرية السوق ، وأممية رأس المال . ولا يفرقون بين أن تكون التجارة فى السلاح أو الكوكايين والهرويين ، وبكل أنواع المخدرات والرقيق المعاصر (العاهرات) وبين التجارة فى مواد مفيدة . فضلا عن أن هذه المتاجرات غير المشروعة فى يد مضاربين مغامرين وسماسرة لا علماء اقتصاد .

(١) فخ العولمة ص ٣٥ .

(٢) عالم الفكر : د. الحبيب الجنحانى ، ظاهرة العولمة ، ص ١٧ ، أكتوبر / ديسمبر ١٩٩٨م .

ويؤثرون تأثيرًا سلبيًا فى القرار السياسى ، والتحولات السياسية ، مما يهدد مستقبل الديمقراطية فى عقر دارها .

إن نخبة الماسكين بناصية المال العالمى ، تمسك أيضًا مجاديف السياسة ، لأن تمكنها من سفينة المال العالمى أمر شديد الحيوية ، ولهذا أعلن رئيس البنك الألمانى الفدرالى صراحة : « بأن رجال السياسة يجب أن يكونوا تحت رقابة الأسواق المالية » الأمر الذى أجبر النقابى الفرنسى (مارك بلوندال) فى منتدى دافوس سنة ١٩٩٦م على القول: « إن السلطة الرسمية لم تعد تمثل فى أحسن الحالات سوى مقاولة داخلية تابعة للمؤسسة ، السوق يحكم، والحكومة تسير ، وهل يستغرب بعد ذلك أن يقال: إن السمسرة انتصرت على الدولة » (١) .

أما على المستوى البيئى : فإن دوافع الشركات المتعدية الجنسيات من أجل تحقيق مصالحها ومآربها ، فإنها لا تعبأ بتدمير البيئة وتلويثها ، وإلقاء نفايات مصانعها فى المياه الإقليمية للدولة الضعيفة ، فتموت الحيوانات المائية التى تمثل أهم مصادر الغذاء ، وكذا المحميات الطبيعية كحقول المرجان فى المياه الإقليمية المصرية ، وقد تكون هذه النفايات مدفونة فتدمر الإنسان وكل الكائنات .

وفى المجال الاجتماعى : يمكن أخذ الأمثلة من منتدى فيرمونت ، فقد بدأ جون جيج John Gage مدير شركة الحاسوب الأمريكية مبكرو سيستمز المناقشة قائلاً : باستطاعة أى فرد أن يعمل لدينا المدة التى تناسبه ، إننا لا نحتاج إلى الحصول على تأشيرات السفر للعاملين لدينا من الأجانب ، إننا نتعاقد مع العاملين لدينا بواسطة الكمبيوتر أيضًا ، وهم يعملون لدينا بالكمبيوتر ويطردون من العمل بواسطة الكمبيوتر أيضًا . ثم أضاف لقد استطعنا أن نرفع حجم مبيعاتنا من العمل بواسطة الكمبيوتر أيضًا بما يزيد على ٦ مليارات دولار فى عام واحد .

ورد جاره الملياردير هولت بكارد Hewlett Packard كم عدد العاملين الذين تحتاج إليهم ؟ ورد جون بهدوء ستة وربما ثمانية ، فتدخل البروفسير رستم روى Rustum Roy وكم عدد العاملين الآن لديكم فيرد عليه ١٦ ألفًا يمكن الاستغناء عنهم دفعة واحدة عند إعادة التنظيم » (٢) .

(١) عالم الفكر : د. الحبيب الجنحانى ، ظاهرة العولمة ، ص ٢٨ ، أكتوبر / ديسمبر ١٩٩٨م .
(٢) فخ العولمة ، المرجع السابق ، ص ٢٤ ـ ٢٦ .

ويدل هذا الحوار على حقيقة مهمة أن شركة الحاسوب ميكرو سيستمز تملك ١٦ ألفًا من العاملين يمكن الاستغناء عنهم وإحلال ستة من المهرة فى تشغيل الحاسوب ، دون النظر فيما يمكن أن يحل بـ ١٦ ألف أسرة ، قد تتكون هذه الأسر من ثلاثة إلى خمسة أفراد ، وبقرار من السيد / جون يتم الحكم بالبطالة وبالتالى بالفقر على آلاف الأسر . بل يقضى على الطبقة الوسطى كلها ، والطبقة الوسطى هى الطبقة التى تملك حراك المجتمع ، فمنها يخرج المبدعون والطامحون والسياسيون ، إنهم نواة المجتمع ، وضابطة حركته ، وصمام أمنه .

إن العولمة تحدث امتلاء ماليًا لأصحاب الشركات العظمى ، ذلك الامتلاء الذى يدمر المجتمعات ، إنه أشبه بفيضان لم يعمل له حساب يفجر أمامه كل شيء ويمهد الطرق للغلاة فى كل الاتجاهات، لخلق أزمات البطالة والعنف والمخدرات والجريمة، وإفناء الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، ونشوء حكومات شمولية وتقطيع الوشائج التى تصل الإنسان بماضيه وقيمه : الدينية والثقافية .

إن الولايات المتحدة قائدة العولمة ومن معها من الغرب ينظرون إلى الشعوب الشرقية على أنهم أقل منهم ثقافة وتحضرًا ، وعلى أن ثقافتهم التى يتعصبون لها تدفعهم إلى الأعمال الإرهابية ، كما يرون أن ملبسهم ومأكلهم ولغتهم وعاداتهم تدل فى نظرهم على أنهم متخلفون .

ولهذا فإن العولمة تسعى إلى تنميط العالم ، استلهامًا من فكرة نهاية التاريخ وسكونيته. على أن هذه النظرة الأحادية تتمحور حول الحضارة الغربية الأمريكية، من أجل توظيف فكرة التنميط لتجسيد مكونات الحضارة الجديدة بحيث تبدو متوافقة ومتلائمة مع طبيعة العالم بمرجعية أمريكية ، تروج دعوى حتمية تمحور كل الثقافات نحوها ، لتكوين حضارة موحدة ، عولمية المضمون .

إن الولايات المتحدة تعيد تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، التى كانت تهيمن فى التاريخ القديم على كل مناطق النتاج والمحاصيل فى العالم . وتأخذ كل نتاج الأراضى التى احتلتها .

الغرب لم يتخل عن تنميطه للعالم ، إلا عندما ظهرت حضارة الإسلام . ولكن منذ الكشوف الجغرافية ، تعمل الحضارة الغربية ـ مرة ثانية ـ على تنميط

العالم ، وهذا ما فعلته إنجلترا وفرنسا فى مستعمراتهما . ثم حاولته روسيا بتنميط العالم على المذهب الشيوعى . وأخيراً تفعل الولايات المتحدة الأمريكية . ولكل هذه المذاهب مراحل قوة ترى فيها أنها قادرة على تنميط العالم ، ولكن سقوطها يكون كامنًا فيها فيختل توازنها وتفقد قوتها ـ فى الداخل ، وقدرة السيطرة فى الخارج ويدل سقوطها ـ كما يرى الدكتور عمر الفاروق بعدما تتجمع لها مقومات القوة ، على أن هناك حدودًا للقوة مهما تعاظمت ، لمقاومة قوى التنوع لآليات التنميط والهيمنة (١) .

وهذا يعنى أنه مهما اجتمعت آليات القوة للحضارة الأمريكية ـ الحضارة الأقوى الآن ـ فإن آليات المقاومة ، الحبلى بقوى التنوع كامنة فى حضارات أخرى وثقافات مقاومة ، كالحضارة الإسلامية والصينية والهندية واليابانية وغيرها . ولذلك فلن تخلو الساحة للولايات المتحدة الأمريكية ؛ لأن الادعاء بأن نمط العولمة مطلق غير صحيح ، والتاريخ شاهد ، فكل الحضارات كما بيَّن ابن خلدون ، وأكد (شبنجلر) تملك مراحل قوة ، تعقبها مراحل ضعف وترهل ووهن ، قبل أن تترك الميدان الحضارى لحضارة أخرى .

وتروج العولمة لديمقراطية مزعومة ، وتخاطب بهذه الدعوى الدول الآخذة فى النمو بصفة خاصة ، وكأنها تسعى لتنميط الديمقراطية أيضًا ، وهذا خطأ فادح ؛ لأنه يناقض إرادة الشعوب ، ويضاد جوهر الديمقراطية التى يجب أن تنبثق من رغبة الجماعات المختارة لها . فضلا عن أن العولمة تفرض التكيف مع نمطها ، وتهدد من لا يتكيف معها بعقوبات الحصار والحرمان ولن يعدموا اتهامه بالمروق والإظلام إذا لزم الأمر ، فإذا كان متدينًا بدين اتهم بالأصولية ، وبحسب قول الدكتور عمر الفاروق : « إن ما تبشر به آليات العولمة الآن لا يجاوز فى حقيقته ستارًا أو تمويهًا لما تبطنه، حيث إن ما تبطنه يتجسد فى آلياتها ، وليس فيما تروجه، وهى آليات مبرمجة لحساب التنميط والهيمنة فقط ، بما يعنى أنه ليس أمام العالم الآخذ فى النمو سوى طريق واحدة يقطعها فى اتجاهين هما :

الأول : مواصلة تأسيس آلياته الذاتية ، تلك التى أثمرت نماذجه البارعة .

---

(١) د. عمر الفاروق ، الأهرام فى ٢ أبريل ١٩٩٩م .

الثانى : مواجهة آليات العولمة الجارية مهما بدت عاتية ، وتوحيد المجابهة مع التيارات المضادة لها ، داخل قوى العولمة ذاتها (١) .

إن سيد العالم قوى وعنيد وبطاش ، ويريد أن يضمن السيادة على العالم الفقير الذى ينفق ما يملك ـ بالكاد ـ على الطعام ثم السلاح ثم المخدرات . فماذا لو وفرت العولمة ما ينفق على السلاح من أجل رفاهة الفقراء ؟

إن الشعوب الفقيرة قد أنهكتها الضربات الساحقة من الدول الغنية من أجل الاستحواذ على خامات أراضيها ، وإبقائها متخلفة وضعيفة ، حتى تستمد السيطرة عليها، يؤكد هذا نموذج (باريوليتش) فى دراسته (كارثة أو مجتمع جديد) يقول: « إن انهيار العالم الفقير مسؤولية الدول المتقدمة ، التى كان بوسعها أن تقيل عثرته لو أنها خصصت له ٢٠, ٠٪ من ميزانياتها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية » (٢) . وهى الفترة الزمنية التى تزعمت فيها الولايات المتحدة الأمريكية العالم ، واستحوذت فيه على التقدم فى السلاح والتقنية والتنمية ، ونموذجها الثقافى القوى المسنود بإعلام قوى .

إن الولايات المتحدة الأمريكية تعمد إلى أن يسود نمطها العولمى ، بل تسعى لعولمة العالم . وهذا ما بينته الخطة الرسمية لوزارة الدفاع الأمريكية التى نشرت بصحيفة نيويورك تايمز فى مارس ١٩٩٢م « إنها خطة تهدف إلى تأكيد استئثار القوة العظمى الوحيدة فى العالم ، ومهمتها منع أى قوة أخرى ، أو تكتل مجموعة دول أخرى لمنافستها فى هذا الموقع » (٣) .

ولكن هل يُعد الدكتور بطرس غالى من المتشائمين ؛ لأنه يمثل آلية من آليات مقاومة العولمة ؟ إن أحدًا لا يجزم بأن الدكتور غالى ضد تقدم العالم ، ولكنه فى الوقت نفسه يحمل رؤية فرانكفونية للعالم ، فإذا كانت العولمة تدعو إلى تنميط الثقافة ، بحيث تسود الثقافة الذرائعية الأمريكية ، فإن الفرانكفونية بحسب رأى الدكتور بطرس غالى تدعو إلى التعددية الثقافية والتعددية اللغوية ، فاللغات برأيه هى التراث الإنسانى ، ووعاؤه الذى يحفظ ذاكرة كل أمة ، ويرى كذلك وجوب

(١) الأهرام فى ٣٠ يونيو ١٩٩٩م .

(٢، ٣) د. عمر الفاروق ، الأهرام فى ٢ أبريل ١٩٩٩م .

قيام توازنات العالم على التعددية السياسية والتعددية الاجتماعية ؛ لأن التعددية تكسب كل مجتمع ثراءه ونقاءه وتميزه ، إنه يدعو ببساطة إلى الدفاع عن التعددية الثقافية والحضارية ، وإلى نوع من التعاون الدولى ومنظماته السياسية والاقتصادية لدعم قيم التعددية ، لتوقف هيمنة العولمة فى مجالات : « عولمة المال ، وعولمة الإرهاب ، وعولمة الأمراض ، وعولمة المواصلات ، وعولمة البيئة ؛ لأن العولمة بحسب رأيه فى حاجة إلى قواعد تنظمها .

يرى الدكتور بطرس غالى أن العولمة تهدد الديمقراطية ؛ لأن اختصاصات الدولة لن تظل فى حوزة الدولة ، بل ستنتقل إلى السوق ، أى أنها ستخضع لقانون العرض والطلب ، فمهام الدولة وخصائصها ستصبح من خصائص توازن قوى خارجها . وبالتالى فستؤثر العولمة تأثيراً مباشراً فى الديمقراطية ، وهذا التأثير يكون سلبيًا ؛ لأن قرارات الدولة التى تخصها لن تخضع لإرادتها ، بل تخضع لإرادة دولة عظمى قد تكون الولايات المتحدة ، أو مجموعة دول فى اتحاد واحد بقيادة الولايات المتحدة . ثم إن الرأى العام مهتم بالديمقراطية الوطنية ، قبل الديمقراطية الكونية . وهذا يعنى أن العلاقة بين الديمقراطية الوطنية ، والديمقراطية الكونية غير واضحة وغير مفهومة فى ظل العولمة . ومن هنا يقدم الدكتور غالى اقتراحات يمكن أن تساعد على إقامة الديمقراطية الكونية مثل : العمل أولاً على توعية الدول بالشؤون الدولية ، ثانيًا : إدخال الديمقراطية إلى الأمم المتحدة بتعديل تشكيل مجلس الأمن ، وتدعيم سلطة محكمة العدل الدولية (١) .

إن الذى يؤكد تخوف النابهين من الدول فى آسيا وإفريقيا أنه لا يُوجد حتى الآن اتفاق بين دول العالم يكون نتاجًا لفكر كونى مشترك،أو محصلة لعمل جماعى مشترك، يحقق المواءمة بين الحريات التى تريدها الشعوب ، والحقوق الجماعية فى الأمن والاستقرار والتنمية : « توافق يشجع إقامة حوار خلاق وتفاعل إيجابى بين السياسات والثقافات والحضارات ، يدحض نظرية صدام الحضارات ، ويقلل من احتمالات صدام المصالح » (٢) .

---

(١) انظر : د. بطرس غالى ، السياسة الدولية ، ص ١٥٥ ـ ١٥٩ ، يوليو ١٩٩٨م .

(٢) عمرو موسى وزير الخارجية المصرى السابق أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، نشر فى الأهرام فى ١٩٩٩/٩/٢٤م.

إن النظام الدولى الجديد ينحاز للأغنياء ، ويضيق بالفقراء ، مما يؤثر سلبًا فى الاستقرار العالمى . ومع أن قمة كوبنهاجن للتنمية الاجتماعية وضعت مهمة القضاء على الفقر على قمة أولويات العمل الدولى ، على أساس أن مهمة القضاء على الفقر تقع على عاتق الدول الغنية ، إلا أن الدول الغنية تتجاهل مهمتها فى هذا الميدان ، وتعمل على تهميش دور الدول الآخذة فى النمو ، والمستقبل ينذر بتفاقم هذه المشكلة نتيجة الآثار السلبية للعولمة ، مما يؤدى إلى الإضرار بالدول الفقيرة ، وقد يؤدى باستبعادها من حركة التنمية العالمية ، ومما يزيد الأمر تعقيدًا انتهاج الولايات المتحدة سياسة انتقائية فى التعامل مع الدول الفقيرة ، وفرض إجراءات عقابية عليها بدعوى حماية البيئة ، أو بدعوى عدم احترام هذه الدول لحقوق الإنسان ، أو التطلع للدخول فى النادى النووى، وهى سياسات تحركها المصالح والأهواء فى الغالب ، فالعالم العربى على سبيل المثال دخلت جميع دوله فى اتفاقية حظر أسلحة الدمار الشامل والسلاح النووى ، ومع ذلك يتعرض للعقوبات الأمريكية (العراق والسودان والصومال وليبيا) فى الوقت الذى تمتلك فيه إسرائيل كل هذه الأسلحة . ومع ذلك تتدفق عليها المعونات الأمريكية ، وتعضدها الولايات المتحدة فى المحافل الدولية وتنحاز إليها ضد العرب جميعًا .

إن العالم فى حاجة إلى عقد اجتماعى دولى ، وعقد اقتصادى وسياسى يضمن الوفاق والأمن للعالم كله .

ولكن هل تخلو رؤى هؤلاء المتشائمين من تفاؤل ؟ إن سبب تشاؤمهم البحث عن عالم يحقق الخير والعجز عن إيجاده ، وهم يتشككون فى العولمة ، ويرون أنها لا تزيد على كونها رغبة شريرة فى أمركة العالم ، أى أمركة الحياة والأرض والبحار والفضاء ، والإنسان نفسه ، فمنذ أن انطلقت الفكرة على لسان (جورج بوش) فى خطاب وجهه إلى الأمة الأمريكية بمناسبة استعمار القوات الأمريكية لمياه الخليج فى أغسطس سنة ١٩٩٠م: كان هذا التاريخ البداية الطبيعية للعولمة اقترنت بنوع جديد من الاستعمار لبلاد النفط العربية مرتدية أثوابًا غربية قشيبة من تصورات لـ « عصر جديد » و«حقبة للحرية» و« زمن للسلام لكل الشعوب » وكلها عبارات براقة خادعة تسلب اللب . مما شجع الرئيس الأمريكى نفسه بعد أقل من شهر فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٩٠م على أن يعلن عن قيام نظام عالمى جديد فى

ثوب أكثر بريقًا ولمعانًا بزعم تحرير العالم من الإرهاب ، وتحقيق العدل والسلام العالميين ، لكى تنعم كل شعوب العالم غربًا وشرقًا وشمالاً وجنوبًا بالمودة والرخاء (طبعًا) بالمفهوم الأمريكى والمزاعم الأمريكية .

ولأن الرؤساء الأمريكيين لا يزيدون على كونهم ممثلى نظام سياسى برجماتى قائم على مبادئ المنفعة ، فإن أفكار هؤلاء الرؤساء تخرج من أدمغتهم ، بناء على هذه القاعدة فإن الرئيس (جورج بوش) لم يكن إلا ناطقًا بلسان القوى المسيطرة على المجتمع الأمريكى . وفى مقدمتهم المنظرون الذين هم آليات تفكير النظام الذى يتحتم عليهم أن يقدموا لعبة فكرية جديدة تقنع الشعب الأمريكى ، وتسحر غيره من الشعوب الأخرى . وبدأ الطرح للنموذج العالمى الجديد بأطره السياسية والثقافية والاقتصادية فى كل متكامل، فى وعاء واحد لا يمكن فصل أجزائه بعضها عن بعض ، لقد تمت إذن الصيغة الاقتصادية الحرة فى وعاء سياسى لمضمون الاقتصاد الحر ، وصار إسقاط حواجز الحدود الجغرافية والثقافات المحلية من الأمور الضرورية حتى يتسنى للممسكين بخيوط اللعبة تسمية النظام الجديد بالعولمة، لكى تبدو أطروحتها نتاجًا طبيعيًا لوجود الفكر الرأسمالى نفسه .

لابد من عولمة الأفكار ، ولابد من نشرها ، والتأثير فى العقول كى تتقبلها لكى تحقق الهدف الاستعمارى القديم بوسائل جديدة « لتأمين مزيد من الأسواق للاستهلاك، ومزيد من الثروات للاستيلاء عليها، وتقنين العلاقات داخل المجتمعات على أساس أوضاع : ثقافية وسياسية واقتصادية تصون الرأسمالية »[(١)] ، ولهذا برزت نظرية تبرير موضوعية القيادة الأمريكية وحتميتها (طبقًا لنظرية هنتنجتون) صدام الحضارات ، خاصة فى مواجهة الإسلام ، ونظرية فوكوياما التى أعلنت تفوق الحضارة الرأسمالية التى تقودها الولايات المتحدة وانتصارها . وتوقف المد التقدمى لكل الحضارات الأخرى .

إن أوربا وهى القوة الثانية فى العالم ـ بعد الولايات المتحدة ـ تحاول محاولات مستميتة أن تجد لنفسها موقعًا مستقلاً ، وسياسة مستقلة مع العالم الإسلامى بالسياسة المتوسطية تارة على أساس أن كثيرًا من العالم العربى فى غرب آسيا

(١) صبحى محمد غندور ـ مدير مركز الحوار العربى بواشنطن: مجلة المعرفة ، العدد ٤٦ ، محرم ١٤٢٠هـ ـ أبريل ١٩٩٩م ، ص ٢٦ .

وشمال إفريقيا يطل على المتوسط ، الذى يتوسط قارات ثلاث ذات حضارات قديمة سبقت حضارة (الكاوبوى = رعاة البقر) ، وتارة أخرى بمحاولة الظهور بأنها تمارس دورًا سياسيًا معتدلاً مع الدول العربية فى صراعها مع الكيان الصهيونى . ولكن الولايات المتحدة بقوتها الغالبة تستأثر بكل الوليمة فى الوطن العربى خاصة فى الخليج ، وتعمل على إقامة سوق شرق أوسطية يكون مركزها الدولة العبرية ، التى تعلن الولايات المتحدة تحيزها المطلق لها .

الصراع موجود فى الدائرة الغربية ، ولكن تنقصه الفعالية التى تعززها الندية، ويتمحور على شكل صدام غير عنيف بين الولايات المتحدة القوية ، وأوربا الأقل قوة ، حول رفض فرنسا أقوى الدول الأوربية الآن . للنمط الثقافى الأمريكى ، وبعض الاحتجاجات الهادئة على سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية ، ومن ثم فإن ما تقوم به دولة أوربية كفرنسا غير مؤثر فى سياسة الولايات المتحدة الخارجية ، وخاصة أن دولة أوربية أخرى مثل إنجلترا عميلة للولايات المتحدة يمكنها إفساد خطط فرنسا ـ داخل الاتحاد الأوربى نفسه ـ بسهولة ويسر . ومن هنا تظهر خطورة الأطروحات الأمريكية التى تسيطر على أعظم الأماكن فى العالم بما تحتويه من مواد الطاقة والثروات الطبيعية والمحاصيل الزراعية والمواد الغذائية والموقع العظيم لأنه مركز العالم جغرافيا . وفيه أحب بقاع الله إلى الإنسان ، فمنه بعثت كل الديانات السماوية .

الأمر لا يتوقف على ذلك ، فالولايات المتحدة الأمريكية تمهد لقهر العرب والمسلمين ، بسلاح (صدام الحضارات) كما ورد فى كتاب (صمويل هنتنجتون) بزعم أن الإسلام تكمن فى جرثومته الرغبة العدوانية ، وتتذرع ببعض الأحداث التى بدأت باجتياح العراق للكويت ـ الذى رفضه كل العرب ـ لتثبت أن الإسلام دموى : مع أن أعظم منه وأفدح حدث من قبل ، فقد اجتاحت روسيا بلادًا إسلامية مثل أذربيجان والقوقاز وتتارستان والشيشان والبلاد الآسيوية الإسلامية ، التى تحررت بعد أكثر من قرن من اجتياحها ، واجتاحت الصين تتارستان ذات الأصول التركية ، وأطلقت عليها (إقليم سينكيانج) فهى ترهب العالم الإسلامى باتهامه بالدموية والميل الطبعى إلى العنف،وفى الوقت نفسه ترغبهم فى الديمقراطية الأمريكية المنتصرة ، كما صورها (فوكوياما) فى (نهاية التاريخ) . وهذا

التخيير بين الترهيب من صدام الحضارات ، والترغيب فى الانضمام إلى الحضارة الواحدة ، هو تمامًا التخيير بين الحرب أو الاستسلام » (١) .

لقد جاء الإسلام بقيم ومبادئ العدل والمساواة والشورى والحرية ، واحترام الآخرين ، ومع هذا فقد نبه الإسلام المسلمين فى إحدى الآيات المدنية باحترام الإنسان، باعتبار إنسانيته لا باعتبار أصله أو عرقه أو حتى دينه بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . فمع أن الناس من آدم عليه السلام ، إلا أن الله تعالى اقتضت حكمته أن يتفرق الناس فى الثقافات والرغبات ، على ألا يضر بعضهم بعضًا ؛ لأن لله سبحانه سننًا فى جميع خلقه حتى ولو لم يكونوا مسلمين تلك عالمية الإسلام ، ومهما تقاربت الأمم أو تفارقت ، فسيظل لكل أمة ذلك الذى يجعلها متفردة ، ومتميزة عن غيرها ، تفيد من مضامين كل الثقافات ، وكل الحضارات ثم إنها فى النهاية مسؤولة عن عملها العام أمام الله سبحانه وتعالى .

على العرب ، وهم أصل الإسلام وقلبه وعقله ألا ينزعجوا من مقولة (هنتنجتون) فهم ـ باقتضاء مشيئة الله ـ الراعون لأرض الرسالات والرسل ، المسؤولون عن حراستها فرضًا دينيًا . وأن الله سبحانه اختارهم ليكونوا شهداء على الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولهذا أسكنهم أرضًا هى مركز العالم ومفترق طرقه ، وأخصب بلاد الله بالخير .

على العرب والمسلمين ألا يدخلوا فى حوار العولمة بعواطفهم ، ولا يخدعنهم أن دعاة العولمة يصورونها على أنها النظام الأمثل للعالم . وأنه حتمًا « يصبح القدوة والمثل الأعلى » ؛ لأن هذا النظام دال على منظومة معرفية قابلة للنقض، وهى كامنة فى ادعاءاته التى تنكر كل القيم القبْلية ، ويؤمن فقط بالقيم التى قضت على التاريخ الماقبلى وحكمت بإفنائه ، ولكن الحقيقة فإن هذا النظام خرج من الرحم الأوربى ، داخل التشكيل الحضارى والمعرفى الغربى ، الذى خرجت منه كل النظم العلمانية التى أفرزت نزعة الإنسان الأعلى Super man القادر على

(١) صبحى محمد غندور : مجلة المعرفة السعودية ، المرجع السابق ، ص ٢٨.

السيطرة والسيادة ، كما قال (ماكيافيللى) و(دارون) و(نيتشه) ، فى مواجهة غير الغربى الأضعف إن هذا الغربى الأقوى الآن يسعى « لتحويل العالم بأسره إلى ساحة لنشاطه ، خاضعة لهيمنة تتبع قوانينه » (١) .

ربما لهذه الأسباب أعلن الدكتور جلال أمين - أهم المتشائمين من غزو العولمة، سخطه على العولمة ، فالإنسان فى عالم العولمة يتخلى عن أهم مقوماته الإنسانية كمعتقده وثقافته، ومع أن التطور الإيجابى أفضل من الثبات ، إلا أنه يتوقف على المنظور المتغير « فالتشبث بالقديم فى كثير من الأحوال هو الأنفع والأصح ، بل قد يكون أفضل مائة مرة مما يدعوننا إليه » (٢) ؛ لأن العولمة طبقًا لرأيه تهدد سعادة الإنسان واستقراره ، وتبدد شعوره بالاطمئنان ؛ لأن قيم المجتمع الاستهلاكى فى ظل العولمة تكتسحه ، وتحول حضارة السوق فى كل شىء فى حياته إلى سلعة . إن العولمة اكتساح قيم العالم بأسره وأسواقه على السواء .

ويحذر د. جلال أمين من الأسلوب البراق الذى يتناوله المتشيعون للعولمة مثل الدعوة إلى الديمقراطية ، واحترام حقوق الإنسان ، والإشادة بالعلم والعقلانية والدعوة إلى ثقافة تنبذ التعصب الدينى والعرقى والقومى ، والدعوة إلى التقدم التقنى وتصوير كل ذلك على أنه كل لا يتجزأ من ظاهرة العولمة . ولكن الحقيقة عكس ذلك ، فلفظ العولمة لفظ يصف ما يجرى على السطح دون أن يفصح عن محتواه الحقيقى ؛ لأن الكلام عن العولمة يجرى دون أن يثار السؤال عما تجرى عولمته (٣) .

ولهذا يخطّئ د. جلال أمين من يرون أن العولمة حتمية ، وأنها قدر مقدور ، ويحذرهم من الوقوع فى وهم من لا يلحق بقطار العولمة ، فاته اللحاق بحضارة نهاية التاريخ - التى قال بها (فوكوياما) - إن أية حضارة مهما حققت من تقدم لا يعنى الاعتراف بأحقيتها الحتمية فى أن تسود العالم. خاصة حضارة العولمة، حضارة رجل الأعمال الذى لا يعنيه إلا الربح . حضارة الأمريكى الذى لا يفكر إلا فى الربح ، فهو على سبيل المثال إذا كان يسير فى بلد مثل (تايلاند) ورأى

---

(١) د. عبد الوهاب المسيرى ، مجلة المعرفة السعودية ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .
(٢) د. جلال أمين : العولمة ، ص ١١ كتاب اقرأ ، رقم ٦٣٦ .
(٣) د. جلال أمين : العولمة ، ص ٣٢ .

فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها قال : « إن هذه الفتاة يمكن أن تصبح مصدراً رائعًا للربح لو استخدمت فى بيت للدعارة » (١) . حقًا إنها حضارة الربح والاستهلاك، وتفكيك المجتمع الأسرى بمبررات الحرية الشخصية والتنوير ، وحرية المرأة .

إن اليابان لم تركع بعد للعولمة ، بل إن هناك أقوالا ترى أنها تهددها فلقد صرح رئيس وزراء الصين فى حديث لصحيفة الأهرام قائلاً : « إن اليابان بوسعها أن تدمر الاقتصاد الأمريكى ، إذا باعت فجأة حصة الأوراق المالية الأمريكية التى بحوزتها والتى تبلغ ٤٠٠ مليار دولار » (٢) .

ولم يقف الأمر فى اليابان عند المقاومة الاقتصادية والصناعية والتجارية ولكن برفض الثقافة الأمريكية ، والحماية السياسية ، والشىء نفسه لدى الهند والصين والعالم الإسلامى ، إنهم يرفضون أن تفرض عليهم العولمة والعرب على وجه الخصوص يبدون مقاومة شديدة فى رفض النموذج الثقافى الغربى والسوق الشرق أوسطية ومركزها إسرائيل.

هذا فضلا عن أن العولمة تقضى على الوطنية ، وتقتل الهوية القومية ، إنها مشروع لإلغاء الآخر ، فى الوقت الذى أثبت فيه التاريخ أن الوطنية والقومية هى التى تحركه دائمًا إلى الأمام .

كما أن العولمة تصدر للأمم مفاهيم الغرب حول الزواج المثلى ، والعلاقات الأسرية المفككة ، وحقوق الشواذ . فلقد بادرت الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة بطرح بعض المقترحات التى تطالب بتقنين علاقات الزواج بين اثنين من جنس واحد وتقنين العلاقات بين الشواذ ، ومنحهم حقوقًا وامتيازات من صندوق الأمم المتحدة للمعاشات . وهذه المفاهيم التى يسعى الغرب إلى عولمتها وفرضها على الشعوب تخالف كل الشرائع السماوية والأعراف والقيم السائدة فى العالم الإسلامى ، ولكن الغرب يضغط منذ المؤتمر العالمى للمرأة فى بكين سنة ١٩٩٥م على الشعوب من أجل تقبلها واتهام الشعوب الرافضة لها بانتهاك حقوق الإنسان ، وبعدم احترام الحريات الشخصية .

---

(١) د. جلال أمين ، العولمة ، ص ٤٠ .

(٢) عن عبد العظيم حماد : المعرفة ، السعودية رقم ٤٦ مقال · الاتجاهات المضادة للعولمة ، ص ٤١ .

ولقد بلغت الجرأة بهم حدًا فعرضوا الموضوع فى الأمم المتحدة فى أوائل ديسمبر سنة ٢٠٠٠م وكان من مفاخر مصر أن يقود السفير أحمد أبو الغيط مندوب مصر الدائم لدى الأمم المتحدة مندوبى الدول الإسلامية إلى رفض تقديم أية تنازلات فى هذا الشأن، وإلى التمسك بأحكام الدين الإسلامى ، كما أكد رفض مصر والعالم الإسلامى لمحاولات الدول الغربية فرض قيمها وعاداتها المتعلقة بالمرأة والعلاقات الجنسية غير الشرعية ، وأعلن أنه لا يجب على دول الغرب تفسير اعتزاز الأمة الإسلامية بتاريخها وحضارتها . وتمسكها بدينها ، على أنه إعلان مواجهة لحضارة بعينها . فالمساواة فى السيادة وحرية كل مجتمع فى اختيار ما يناسبه من فكر واعتقاد وأعراف وتقاليد مطلب شرعى يقودنا إلى تأكيد أنه لا غلبة لأية حضارة على الأخرى بغض النظر عن مدى قوتها وتقدمها العلمى وتطورها الاقتصادى والسياسى والعسكرى ، أو عدد إنجازاتها وشعبية معتقداتها (١) .

(١) ارجع إلى : الأهرام فى ٥/١٢/ ٢٠٠٠م ، ص ٤ .

الفصل الرابع
العولمة والعرب والإسلام

العولمة والعرب والإسلام

هل يعى العرب حركة العالم السريعة المنبثقة من الغرب ؟

وإذا كان العرب يعون هذه الحركة المضطردة دائمًا إلى الأمام فلماذا لا يعملون من أجلها،ومن أجل مصالحهم فى جميع الميادين القومية والسياسية والاجتماعية ؟

إن التكتلات فى العالم ، تجتمع بصفة دورية من أجل ربط مصالحها بحركة العالم ولكن العرب ـ من أسف ـ يجتمعون كلما لاح نذير ، فيظهرون باجتماعاتهم الطارئة ـ مع هشاشتها ـ وكأنهم قوة تتربص بالعالم شرًا ، فيتهمون بمعاداة الغرب، وعدم احترام مبادئه، وفى مقدمتها كراهية السلام ، وعدم احترام حقوق الإنسان، ومناهضة الغرب، ومساعدة الإرهاب فى العالم إلى آخر منظومة الاتهامات التى توجه إليهم .

لقد لاحظ الدكتور حسن نافعة أستاذ العلوم السياسية أن القمة العربية لم تتمكن من الانعقاد فى خلال السنوات العشر الماضية إلا مرة واحدة [قبل انعقاد قمة أكتوبر ٢٠٠٠ بالقاهرة] مع العلم بأن السنوات العشر الماضية شهدت متغيرات دولية لم يشهدها العالم فى العقود التسعة السابقة على هذا العقد الأخير من القرن العشرين ، حتى صار ينظر إلى القمة العربية على أنها مجرد رمز دال على وجود قضايا عربية ، لا عامل فاعل فى مناقشة قضايا عربية بصفة دورية ، أو الحوار من أجل نهضة العالم العربى ، ومن ثم فعندما تنهض الدول العربية لعقد قمة مفاجئة ينظر الغرب خاصة الولايات المتحدة وإسرائيل إلى هذه القمة ، وكأنها دليل على تشدد العرب وتطرفهم حيال موقف الغرب وإسرائيل على حد سواء منهم . وفى هذا السياق يقول د. حسن نافعة : « أصبحت الدعوة إلى انعقاد مؤتمر عربى على مستوى القمة ـ فى نظر الغرب ـ دليلاً على التطرف العربى وعدم التسامح » (١) .

لقد تحولت القمة العربية ، أو جامعة الدول العربية إلى مؤسسة تنظر إليها

---

(١) صحيفة الأهرام ، ملحق الجمعة فى ١٩٩٩/٩/٣م .

القوى الغربية بقيادة الولايات المتحدة ، وإسرائيل بريبة شديدة، حولتها إلى مؤسسة غير مرغوب فيها . ولو أن الدول العربية ، أو بمعنى أكثر وضوحًا ملوكها ورؤساءها وأمراءها نظروا إلى الأمر بعين الحرص على المصلحة العليا للعرب ، لكان الموقف لصالح العرب ، سواء فيما له علاقة بالسياسة الخارجية ، أو عائد تنمية الاقتصاد العربى على الأمة العربية .

لا أحد ينكر وجود خلافات بين الحكومات العربية ، وهذا ينعكس بالتالى على الشعوب العربية ، وهذه الخلافات لا يشار إليها بطريقة مباشرة ، فالاختلافات المذهبية بين السياسات العربية التى تطور بعضها من الاشتراكية الشمولية إلى الرأسمالية الحرة ، أو بعضها الذى لا يزال يتمسك بنظمه القديمة لا تزال موجودة. ولا تزال النفوس المسيطرة على كل هذه الدول ، كما هى غير قادرة على التصرف بحنكة وحكمة وتنحية الخلافات جانبًا والسعى للمصلحة ، كما لا يستطيع أحد أن يتجاهل الأثر السلبى الذى تنتجه هذه الخلافات من إضعاف القوة العربية فى كل المجالات .

إن العرب يعانون من فقدان الإرادة السياسية ، كما أن النخب الحاكمة فى العالم العربى تفتقد إلى قدرة تلمس الأخطار التى تواجه الشعب العربى . أو أنها تلمس هذه الأخطار ، ولا تملك الوسيلة إلى العلاج ، أو الخروج من هذا المأزق، أو عدم وجود خيارات تكون فيها النخب قادرة على اختيار الخيار الأصلح لها بإرادة كاملة . ومثال صغير يؤكد ذلك . فإن التلاعب فى أسعار النفط دون أن يكون لأصحابه إرادة فى تحديد سعره ، والتعنت الإسرائيلى ، وضمان الغرب لتفوق نووى إسرائيلى ، أكبر دليل على انعدام الإرادة لدى النخب العربية الحاكمة وعجز التفكير أمام الأخطار التى تواجه شعوبهم ، وبات كل منهم يفرق بين المصالح الوطنية المحلية ، والمصالح القومية العليا للأمة العربية . ثم بدأت الانقسامات فى الجامعة العربية التى تضم العرب جميعًا . فبدأ الاتحاد المغاربى ، واتحاد مجلس التعاون الخليجى (ما عدا العراق) ودول الطوق (التى تطوق إسرائيل) وهى تسمية افتعلها المفتعلون الصحافيون بصحيفة الأهرام (١) .

(١) انظر مقال : القمة المحيطة لدول الطوق ، الأهرام ملحق الجمعة فى ١٩٩٩/٧/٩م .

إن العرب محتاجون الآن ، إلى إرادة حسن إدارة العلاقات فيما بينهم أولاً : ثم إرادة حسن تلمس المصالح العربية ، ثانيًا . محتاجون أيضًا لإرادة مواجهة العالم بنظمه الجديدة المهيمنة ، ومحتاجون إلى رؤية صحيحة للعالم ، وإيجاد أسلوب صحيح لتنسيق العلاقات العربية فيما بينهم ، وربطها بالنظام الدولى فى زمن العولمة ثالثًا .

لا أحد ينكر وجود محاولات ، واجتهادات رأب الصدع . ولكنها فى الغالب محاولات فردية لبعض نخب المثقفين ، الذين ينطق بعضهم بلسان بعض النخب الحاكمة ، وبعضهم يعمل باجتهاده الشخصى من أجل إيجاد الحلول . ولكن فى كل الأحوال لم تتبلور الحلول بعد ، لكى تأخذ النمط المذهبى الذى يعبر على الأقل عن الجماعة العربية ؛ لأن النخب العربية بعضها يقبل التعايش مع العولمة باعتبارها قدرًا حل بالعالم ولا يستطيع العالم الفكاك منه . وبعضهم يرفضها رفضًا قطعيًا لارتباطها بالولايات المتحدة (الشيطان الأكبر) . ومع أن العالم المتقدم يتعايش فى ظل الممكن والمحتمل، فلا تزال النخب العربية - فى الغالب - سواء نخب حاكمة ، أو نخب المثقفين يؤمنون بقبول المطلق فى أحوال أو رفض المطلق فى حالات أخرى .

إن الدكتور مصطفى الفقى - رجل السياسة الخارجية - يدعو فى كتاب مختصر له إلى قيم تجديد الفكر القومى بطرح توفيقى بين العروبة والإسلام ، والدكتور الفقى ليس أول دعاة التوفيقية بين القومية العربية والإسلام ، فقد ظهرت ملامحها منذ كتابات رفاعة الطهطاوى ثم كتابات محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ، حتى كتابات الشيخ حسن البنا الذى عبر فى نص صريح عن أن العروبة وعاء الإسلام يقول الشيخ حسن البنا : « لقد نشأ الإسلام عربيًا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه (القرآن) بلسان عربى مبين، وتوحدت الأمم (الإسلامية) باسمه على هذا اللسان، فالعرب هم أمة الإسلام الأولى وشعبه المتميز، ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة العرب ونهضتها، وليس فى الدنيا جامعة أقوى من جامعة تجمع العربى بالعربى، فاللغة واحدة ، والأرض واحدة ، والآمال واحدة ، والتاريخ واحد » (١) .

---

(١) عن د. محمد عمارة : الإسلام والعروبة ص ٨٦ الهيئة المصرية ، سنة ١٩٩٦م .

ويرى الدكتور محمد عمارة « وجود أرض مشتركة ، وعلاقة عضوية ما بين العروبة والإسلام ، كما يرى أن التناقض المزعوم بينهما أمر مفتعل وخاطئ ، فضلا عن ضرره الكبير » (١) .

ولكن هناك أموراً غيرت هذا المفهوم فى عقول كثير من العرب والمسلمين أهمها رفض المنادين بالقومية، الإسلام مطلقًا، ورفض الإسلاميين القومية مطلقًا. مثل أبى الأعلى المودودى القائل : « ليس لعنصر القومية حظ فى إيجاد دولة الإسلام وتركيبها » . والسيد قطب القائل : « القومية صنم من الأصنام ، وطاغوت من الطواغيت » .

لكل من المودودى والسيد قطب دوافعه. فالمودودى كان يناشد بناء باكستان إسلامية متبرئة من القومية الهندوكية . التى كانت تجمع بين كل سكان الهند حتى عام ١٩٤٧م بهنادكها ومسلميها . أما رفض السيد قطب فربما جاء استجابة نفسية شخصية بسبب نفوره من شخصية الحاكم المنادى بالقومية العربية ، واضطهاده لغير المؤمنين بها إلى درجة التعذيب المؤدى إلى الموت . وقد يضاف إلى هذا التعليل الأخير : أن كل الذين نادوا بالقومية العربية كانوا علمانيين ينكرون أهمية الدين على المستوى الشخصى وعلى المستوى العام ، فأبو القومية العربية ساطع الحصرى كان قوميًا علمانيًا ، كما أن القوميين الرواد كان أكثرهم من غير المسلمين مثل : زكى الأرسوذى ، وميشيل عفلق ، وأنطون سعادة فى الشام . وفى مصر كان أكثر السائرين فى موكب القومية من معتنقى الشيوعية السابقين الذى تربوا فى خلايا (هنرى كوريل) اليهودى الشيوعى ، ولما قامت أحداث سنة ١٩٥٢م ووصل جمال عبد الناصر إلى الحكم ربط القومية بزعامة متسلطة لا تتسامح مع معارضيها، فظهرت القومية فى ظل عبد الناصر نظامًا سياسيًا يحمل من الشر أكثر مما يحمل من الخير . فضلاً عن أن القومية قامت فى العالم العربى كرد فعل على القومية الطورانية فى تركيا ، تلك البغيضة لدى جميع العرب فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وقد اقتضى ناتج كل ما سبق « التركيز على العامل القومى وهو العروبة ، فى محاولة لتمييز الذات وإبراز الهوية ، دون التركيز على

(١) عن د. محمد عمارة : الإسلام والعروبة ص ٨٦ الهيئة المصرية ، سنة ١٩٩٦م .

الإسلام ، الذى لا يمكن أن يكون هوية لهم فى مواجهة الأتراك » [1] .

ولقد تأخر المد القومى العربى فى مصر لسبب سياسى أيضًا . فبينما واجه أهل الشام الأتراك قوة ظالمة مسلمة . واجه أهل مصر الاحتلال الفرنسى ثم الاحتلال الإنجليزى ، ومن ثم كانت طوابع الصراع فى مصر ضد المحتل غير المسلم ، تركز على هوية المصريين المسلمين . ولقد وعى الأقباط المصريين فى وقوفهم البطولى الواعى مع المصريين المسلمين أهمية هذه الصيغة الجهادية ضد الاحتلال الإنجليزى . وكانت المواجهات المصرية للاستعمار مواجهات إسلامية بدءًا من أحمد عرابى ثم مصطفى كامل. إلى أن تعلمنت المواجهة بقيادة سعد زغلول سنة ١٩١٩م ، وما بعدها فى وحدة وطنية كانت أشبه ما تكون قومية مصرية ، كما عبرت عنها أدبيات مصرية مثل كتابات أحمد لطفى السيد الملقب بأستاذ الجيل إلى أن جاء جمال عبد الناصر لينادى بالقومية العربية مختلطة بالاشتراكية العلمية . فكانت صدمة لمعظم الكيانات العربية التى قامت نظمها على أسس إسلامية .

ولم تترك القوى الغربية ـ فى خلال هذه الأحداث ـ العرب يسلكون طرقهم بحرية، ودون إثارة التوترات . فهم كما يقول د. محمد عمارة : « فى البداية ناصروا فكرة العربية ، ضد الطورانية ، فلما رأوا أن العربية توشك أن تمتلك المقاليد اتجهوا بالتعليم فى مدارسهم التبشيرية إلى لغاتهم الأوربية » [2] .

وتفاقمت الأمور وتطورت بعد سيطرة الغرب على المجتمع العربى ، وجعله أحد هوامش اقتصاده وإيمان نخبة المثقفين بثقافة الغرب ، وانبهارهم بتقدمه التقنى، حتى لقد صار إيمانهم بمنجزات الغرب يفوق كل شيء ، للدرجة التى قطعت أواصر تمسكهم بالإسلام وصلتهم بعربيتهم . وكانت أخطر المخاطر على الأمة الإسلامية والعربية فى وقت واحد . إثارة النفوس بإذكاء ثورات الغضب فيما بين العرب أنفسهم ، وهكذا وقف العربى يعلن عداءه لأخيه العربى ، وبجانب ذلك قامت التحالفات فتحالفت تركيا المسلمة مع الدولة اليهودية . ثم بفعل القوى الأجنبية بقيادة الولايات المتحدة ، تضخمت النعرة العربية والفارسية والكردية ، وقامت

---

(١) د. مصطفى الفقى · تجديد الفكر القومى ، ص ١٧ الهيئة المصرية العامة سنة ١٩٩٩م .

(٢) د. محمد عمارة : الإسلام والعروبة ، ص ٦٧ ، مرجع سابق .

الحروب فيما بين المسلمين لتغذية الصراع بين العرب والفرس . فى حرب العراق وإيران . والأتراك والأكراد فى شمال العراق. والبعث والأكراد داخل العراق نفسه . وكل هؤلاء مسلمون يدينون بالإسلام ، ولو أنهم جميعًا : عرب وترك وفرس وأكراد عاشوا تحت مظلة الإسلام لصاروا قوة عظمى ، فكما يؤكد د. مصطفى الفقى بقوله : « يؤكد استقرار التاريخ وشواهد الحاضر أن الخلاف مصطنع ، وأن العلاقة بين الطرفين يجب أن تكون إضافة إيجابية لدول المنطقة ، وليست عاملاً للانقسام والتمزق والصراع . إن الدين والقومية يتجهان معًا نحو جمع الصفوف ، وتوحيد الكلمة وليسا مبررًا مصطنعًا لإحياء الخلافات وإذكاء الصراعات » (١) .

إن العولمة التى صارت فرضًا لا خيارًا بدأت موضوعًا اقتصاديًا بحتا ثم تطورت إلى مد يؤثر سلبًا فى الدول الفقيرة يقلص قوميتها ، ويتحدى هويتها الحضارية والثقافية . كما تؤثر سلبًا فى الحرية السياسية الوطنية وتعيق التنسيق من أجل التكامل العربى والعدالة الاجتماعية ، ولكن هذه السلبيات الكثيرة لأثر العولمة فى الدول الفقيرة ، لا يجب أن تمنع من تكوين خطوط عربية إسلامية لحماية العرب، تمنحهم مقدرة الاستجابة والتحدى والدفاع ، ثم المشاركة والتفاعل . فى إطار عدالة التعامل مع الآخر فى إطار احترام خصوصياته .

على مدار سنة أو نحواً من سنة دارت الندوات فى صحيفة الأهرام . وكانت البداية بندوة تحت عنوان : أزمة النظام العربى الراهن . تضاريس الواقع ورؤية المستقبل. وكان محور الندوة عن الأمل العربى هل هو مفقود أم مولود ؟ وكان التشاؤم يسيطر على الندوة وإن وجد الأمل . فالمتحاورون يخشون من النظام العالمى الجديد ؛ لأنه بحسب رؤيتهم يهدد بمحو التاريخ العربى وذاكرة العرب وهويتهم ، وتحويل العرب إلى توابع ، فى الوقت الذى يمزق العرب خلافات مفتعلة ، والعرب غير قادرين على رأب الصدع وتضميد الجراح ولم الشمل ، ولقد لخص الشيخ سليمان ماجد الشاهين وكيل وزارة الخارجية الكويتى حال العرب الراهنة فى الفقرة التالية : « إن القمم العربية ليست معضلة بحد ذاتها ،

---

(١) د. مصطفى الفقى : تجديد الفكر القومى ، ص ١٨ ، مرجع سابق .

ولكن هل لدى القادة والدول العربية الإرادة والقدرة على تنفيذ قراراتها ؟ أما المصالحة العربية فلن تتم ، فالمصالحة تعبير ساذج فى مضمونه العشائرى والبدوى والريفى ، إن المطلوب معالجة حقيقية للمشاكل القائمة بأساليب قانونية ، وآليات سياسية متحضرة » (١) .

إن المشكلة الكبرى أن العرب يهددهم نظام عالمى ، ونظامهم لا يتقدم إيجابيًا إلى الأمام ، إن لم يكن يتراجع ، وصار التمزق سمة تميزه ، فى الوقت الذى بات فيه العرب أحوج ما يكونون إلى أسس جديدة للبناء والحفاظ على الهوية ، وعلى تقدم مستقبلهم . ولن يتأتى هذا إلا بإتاحة الفرصة للقوى الشعبية غير الحكومية ، لكى يكون لها رأى فى الشؤون العربية والوطنية . مع أن العرب يملكون كل مقومات القوة الكامنة فى جغرافية الوطن العربى وفى ثرائه ، وخاماته . ولا يبقى إلا تفعيلها ، ومصر بصفة خاصة مسؤولة عن هذا التفعيل ؛ لأنها كبرى أشقائها وأغناهم بالخبرات البشرية والعقول العلمية .

وتوالت الندوات والحوارات والمداخلات، وتبلور الحوار حول السؤال التالى: هل يقبل الإسلام العولمة ؟ وما رأى حكماء المسلمين فيما أثاره (هنتنجتون) فى صدام الحضارات عامة ، وصدام الحضارة الغربية بالإسلام بصفة خاصة ؟

قبل الإجابة عن السؤال يجب أن ننحى فكرة المطلق جانبًا فلا نرفض كل ما يأتى به الغرب رفضًا مطلقًا ، كما لا نقبل كل ما يأتى به الغرب قبولاً مطلقًا . وأن يكون الرفض الواجب أو القبول الواجب خاضعًا لقاعدة المصالح المرسلة ، أى ما دام فى مصلحة المسلمين ما لم يحرم حلالا ، ويحل حرامًا . فإن فعلنا فلن نخشى من أى تيار وافد مهما كان عاتيًا أو جارفًا ، وليعلم عقلاء المسلمين أن الفهم له أسس ثابتة فى كل عصر ، وإن اختلفت وسائل الفهم ونتائجه من عصر لعصر . ويجب على المسلمين أن يعوا أن المصالح قد تختلف من عصر إلى عصر ؛ لأن المسلمين لا يعيشون وحدهم فى هذا العالم، وليس من مصلحتهم فصل عالمهم عن عالم الآخرين،فينعزلون ويتهمشون خاصة والعالم يعيش ثورة المعلومات والاتصالات فى ظل العولمة التى صارت كما يؤكد الدكتور محمود حمدى زقزوق : « واقع لا

(١) ملحق الأهرام فى ١٩٩٩/١/٢٩م .

يجدى معه أسلوب الرفض » (١) .

ومع هذا فالمسلمون غير مطالبين أن يكونوا مع العولمة باعتبارها القوة التى لا تصد ولا ترد ولا تقاوم ، بل نستقبلها بعين نقدية واعية . وكما هو معلوم فإن العولمة تشتمل على عناصر مهمة ، كما تشتمل على عناصر غير مهمة إن لم تكن مدمرة ، فكما تحتوى على قيم علمية بناءة ، تحتوى على مفاهيم شاذة لحقوق الإنسان ، وثقافة العنف والتهتك وغير ذلك .

وإذا كان الجانب الاقتصادى أبرز جوانب العولمة فيمكن التصدى له بحسب رأى د. زقزوق : « بتكوين تكتل اقتصادى عربى ، وتكتل اقتصادى إسلامى ، ومشاركة فى تكتلات دولية وإقليمية ، فإذا نجح المسلمون فى ذلك فلن تكون هناك على الأرجح مخاطر ذات بال من جانب العولمة الاقتصادية على العالم الإسلامى » (٢) ، عندما يكون للمسلمين إرادة فاعلة .

والإسلام لا يضاد العولمة فى المجال السياسى ، ما دامت الديمقراطية غير تسلطية ، فقد سبق الإسلام فى إرساء قاعدة الشورى فى العمل السياسى ، ورسخ بها قيم التعددية، وحقوق الإنسان بالمفهوم الإسلامى ، وحرية العقيدة ، وحرية إبداء الرأى ، وحرية التملك ، وحرية المسلم فى الحفاظ على دينه وعقله ، وماله ونسله وبدنه ؛ لأن الإسلام جعل كل ذلك فى مقدمة المقاصد الشرعية . وترك لكل جيل من المسلمين أن يختار شكل الحكم الذى يوائمه زمانًا ومكانًا مع الالتزام بشكل الشورى السياسى العام . وهو أقرب ما يكون للديمقراطية المعاصرة ولكن بضوابط شرعية .

أما حقوق الإنسان (الإنسان المطلق) فقد حرص الإسلام على تحقيقها قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] . فالتكريم لكل جنس الإنسان. وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . « ذلك كله محوط بسياج منيع يتمثل فى منظومة القيم الأخلاقية التى قررها الإسلام، ولخصتها القاعدة النبوية الشريفة « لا ضرر ولا ضرار » (٣) .

(١ ـ ٣) د. محمود حمدى زقزوق : الإسلام فى عصر العولمة ، الأهرام ١٩٩٩/٥/٧م.

أما العولمة فى المجال الثقافى ، فلا نقبل نموذجها لأننا حريصون على هويتنا الثقافية إلا ما كان نافعًا منها ولا يضر بنا ، وكان ابن رشد يطالب الناس بالنظر فى كتب غير المسلمين ، أى فى كتب الثقافات السابقة على الإسلام ، بنظرة نقدية حذرة ، وكان يقول فى هذا الصدد : « ننظر فى الذى قالوه فى ذلك وما أثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا إليه وحذرنا منه وعذرناهم » (١) . وهذا ما يفترض عمله من العقل الإسلامى فى كل زمان ومكان . فإذا كانت العولمة تبالغ فى تأكيد حرية الفرد حتى يسفل إلى دركات الشذوذ ، متحررًا من ضوابط الدين والأخلاق فهذا مرفوض .

وتلك مهمة مفكرى الإسلام .

ولكن ماذا يصنع هؤلاء فى قضية صدام الحضارات وموقف العرب منها ؟

ابتداء ليس صدام الحضارات جديدًا على العالم ، فقد عرف منذ أقدم الحضارات وكان محركًا أساسيًا لحركة الحضارات المتباينة ، فقد عرف العالم الحضارة الفرعونية ، وكيف حاولت السيطرة على كل الشعوب التى طالتها . وعرف العالم الحضارة البابلية الآشورية ، والفارسية والرومانية وكل هذه الحضارات كانت سابقة للإسلام ، فلما جاء الإسلام سطعت حضارته بنورها على العالم . ثم كانت القوة العثمانية ، وهى امتداد لحضارة الإسلام ، وإن اختلفت توجهاتها ثم خبت شمس هذه الحضارة ، وعادت الحضارة الغربية بميراث الحضارة الرومانية ، التى تهمش فيها الدور الثقافى ؛ لأنها لما صادمت حضارات الآخرين كان الصدام بالدرجة الأولى من أجل السيطرة الجغرافية ليسهل عليها استغلال ما تنتجه الحضارات المصدومة من خيرات .

كان تطور الأفكار وتصارعها فى أوربا يدعم أهدافًا اقتصادية واجتماعية ثم بعد ذلك يدعم أهدافًا استعمارية ، فمنذ الحركة الإنسانية والصدام الثقافى يتقدم فى مسارات دائرية ، أخذت فى التبلور فى القرن السابع عشر منذ (جاليليو) و(فرانسيس بيكون) و(ديكارت) و(إسحاق نيوتن) فى العلم ثم بواسطة (توماس

---

(١) د. محمود حمدى زقزوق : الإسلام فى عصر العولمة ، الأهرام ٧/٥/١٩٩٩م.

هوبز) و(جون لوك) فى السياسة ثم جاء عصر التنوير Enlightenment فى فرنسا ، وأعلن رجاله تأليه العقل الإنسانى ، ورأوا أن الإنسان قادر بعقله أن يرسم عالمه دون ما حاجة إلى قوة خارجية . وكان خطأ التنويريين إيمانهم المطلق بحواس الإنسان الخمس . وكفرهم بالغيبى ، فمهدوا بذلك لأفكار أشعلت الصراع الثقافى كوضعية (أوجست كونت) وتطورية (داروين) وشيوعية (كارل ماركس) وكل هؤلاء أعلنوا أن مدينة الله قد زالت من عالمنا الأرضى ولم يبق فى الأرض إلا مدينة الإنسان . حتى جاء (نيتشه) ليعلن موت الله .

وجاء القرن العشرون ليعلن منذ بداياته صدامًا من نوع جديد ، كان الصدام محتدمًا بين القوتين الاستعماريتين الأعظم إنجلترا وفرنسا . وفى نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥م تؤذن ببروز قوتين أعظم أخريين : الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة، وحسمت الثروة الأمر لصالح الولايات المتحدة، فقد استطاعت أن تشترى العلم والعلماء والثقافة وكل الفنون من كل مكان من العالم من أوربا والصين واليابان والشرق وبلاد الإسلام والعرب وإفريقيا ، وتضع عليها علامة الصناعة الأمريكية وحضارة (البزنس) ، حتى فاروق الباز الذى تخرَّج فى جامعة عين شمس ، وأحمد زويل الذى تخرَّج فى جامعة الإسكندرية وضع على كل منهما علامة (صنع فى الولايات المتحدة الأمريكية) أما الإتحاد السوفييتى ، الذى كان قليل المال والثروة والتعقل ، لم يستطع أن يوازن بين ما يملك من إمكانات وما يريد ، فكان يبعثر ماله القليل بين التسليح النووى ليحقق به القوة القادرة على نشر الشيوعية فى العالم وبين فقراء العالم لإغرائهم باعتناقها ، ولم يقدر مال الشيوعية الفقيرة على ملء بطون الشيوعيين أصحاب البطون الخاوية ، والقلوب المريضة والعقول الكالة .

كانت النتيجة انهيار الشيوعيين الفقراء الذين أصروا على توزيع الفقر بالعدل بين الناس ؛ لأن الناس لا يرون فى الفقر عدلاً على الإطلاق ، وخلت ساحة العالم إلا ممن يملكون المال من الشمال الأمريكى فامتلكوا به كل شىء ، ثم أخذوا يبحثون عمن يحركهم ليظلوا أقوياء على الدوام ، وكان لابد من إيجاد خصم أو صناعته ، وهكذا صار حال العالم مع الولايات المتحدة . وبدأب المنظرين أمثال (فوكوياما) و(صمويل هنتنجتون) (وبول كيندى) وغيرهم تم اختيار الخصم ،

ولقد افترض هنتنجتون أن أبرز الخصوم فى هذا الصدام هو الإسلام . وكان (فوكوياما) قد سبق بأن ألقى أمام الخصم المفترض آخر جدليات الحضارة الغربية . وأراد أن يعرفه بأن الرأسمالية الحرة هى نهاية التاريخ ، التى توقفت عندها حركة التاريخ ، ثم جاء (بول كيندى) ليعلن حتمية هيمنة أمريكية على العالم .

كان ذلك نذيراً للقوى الإسلامية الرسمية فى العالم وفى مقدمتها مصر؛ لأنها بوابة العالم الإسلامى الثقافية . ومن ثم يجب عليها أن تتحرك خاصة بعد أن قبل الرئيس مبارك التحدى ، ورأى أنه ليس من مصلحة العرب تجاهل قطار العولمة ، بل يجب عليهم ملاقاتها ، وتحديد مراحل الالتقاء والحوار والتفاعل ، لا الصدام. ولعل الندوة التى ترأسها الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف المصرى ، والدكتور مراد غالب رئيس منظمة التضامن الآسيوى الإفريقى ، والدكتور محمد شاكر رئيس المجلس المصرى للشؤون الخارجية ، والدكتور حامد عمار الأستاذ المتفرغ فى أصول التربية ، والدكتور على صادق رئيس المجلس القومى لدراسات الشرق الأوسط ، والأستاذ فوزى عبد الظاهر الأمين العام للجنة الوطنية المصرية للتربية والعلوم والثقافة ، تؤكد أن الدولة على المستوى الرسمى تعمل من أجل تحديد موقف إيجابى لما يدور حولنا ، وحول ثقافتنا وقيمنا .

إن تفاعل الحضارات مطلوب ، وتحاور الثقافات مفيد للإنسان ، ولكن الواقع يثبت غير ذلك، فالصدام الثقافى موجود داخل الحضارة الواحدة، وعلى سبيل المثال: موقف فرنسا من الثقافة الأمريكية مع انتماء كل من فرنسا وأمريكا إلى ذات الحضارة ، بل إن الفرانكفونية نهضت لدعم كل ما هو ثقافى وفكرى وفنى فى الحضارة الفرنسية، ليقاوم كل وافد فى المجالات نفسها من الولايات المتحدة ، عبر الفضائيات ، وأفلام السينما ، وشبكات الإنترنت حتى تحافظ على التشكيل العقلى والوجدانى للإنسان الفرنسى .

الحضارة أية حضارة تتكون من ثنائيتين : الثقافة ، والتقدم المادى . وكل حضارة تزدهر ماديًا لابد من ثقافة محلية تحركها ، ولذلك فإن ثورة العولمة نتيجة للثورة العلمية الثقافية فى الولايات المتحدة ، وهى قوة مضطردة مستمرة ، قد تستمر إلى القرن الحادى والعشرين ، إلا أن تحدث متغيرات فاعلة فى حضارات أخرى .

العرب فى ظروفهم الراهنة غير قادرين على الصدام ؛ لأن الصدام يعنى محاولة إيقاف القوة الجبارة ، ولكن هناك أمر مهم يتلخص فى أن (صمويل هنتنجتون) يضع الإسلام فى مقدمة المتصادمين بالحتمية مع الحضارة الأمريكية ، وهو بهذا لا يعبر عن رأى شخصى بقدر ما يعبر عن سياسة الإدارة الأمريكية . ولكن لماذا قال (هنتنجتون) هذا الكلام ؛ وعد الإسلام أكبر خصوم حضارته ؟ فى الوقت الذى يعانى فيه المسلمون من التمزق والتشرذم . إنه نظر إلى قوة الإسلام لا إلى قوة المسلمين المعاصرين . على أساس أن الإسلام كلى العقيدة والتفكير والسلوك تنتظم فيه العلاقات الروحية والمادية على السواء . « ويؤسس قواعد بناء المجتمع ، فهو يقدم عقيدة كلية للمجتمع كله ، ويصعب اختراقه من أى حضارة أخرى » (١) . وعليه فإن الفكرة التى قدمها (صمويل هنتنجتون) بدعم من حكومة الولايات المتحدة تقصد تجميع قوى الغرب كله ـ لا الولايات المتحدة وحدها ـ لشن حرب على الإسلام ـ وهذه الفكرة ناقشها ثلاثمائة (٣٠٠) من النخب الإسلامية فى آسيا وإفريقيا ، فى مؤتمر عالمى عقدته منظمة شعوب آسيا وإفريقيا فى مارس ١٩٩٧م ولا يكفى أن يقف الأمر عند قيام ٣٠٠ مثقف من نخب المسلمين فى العالم بحوار حول صدام الحضارات ، دون أن تدرى شعوبهم، فالأجدى أن تقوم فى أرض الإسلام ثورة تربوية وثقافية ، مثلما حدث فى أرض صاحب (صدام الحضارات) وإلا ابتلعت الحضارة الأقوى خصمها الأضعف ، ولن يكون الأمر مجرد صدام ، إنما هيمنة وابتلاع .

إن الصدام أو التدافع فى حد ذاته حالة صحية فى حركة التاريخ . هكذا كان بلاغ القرآن للناس . قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ** ﴾ [الحج : ٤٠] . بشرط أن تكون قويًا فى عملية التدافع والصدام ، وأن تكون على حق، وأن تكون أمينًا . وبدون القوة والحق والأمانة لن تحقق أى نجاح فى ميدن الصدام أو التدافع .

لكى تتعامل مع الحضارات الأخرى وتتفاعل، لابد من ثورة فى التربية والثقافة التى تضمن التطور إلى الأحسن والأفضل ، ثقافة تغيير لتغيير ما بالنفس ، ولتغيير

---

(١) د. مراد غالب ، ملحق الأهرام فى ١٩٩٩/٧/٩م .

مفاهيم عالقة بعقولنا يجب تحويلها إلى إنجازات تتواءم مع العصر . مع التمسك بثوابت الإسلام. إن التغيير المطلوب يجب أن يكون إيجابيًا وفعالاً، ويتضمن تغيير طريقة التفكير المعتادة فى نظرتنا إلى الثقافة والحضارة بشقيها المادى والروحى، فالقضية كما يراها الدكتور محمود حمدى زقزوق « ليست فى القضاء على أمية القراءة والكتابة ، ولكن بالقضاء على الأمية الثقافية ، والأمية الحضارية » (١) . لأن الحضارة القادمة تقوم فى الأساس على تنمية البشر ، تنمية ذكاء الإنسان العربى ، وتنمية قيمه ، وتعويده على حسن التفكير والإبداع والإيثار ، وهذا لا يتم إلا بتضافر كل أعضاء المجتمع وتعاضدهم وتساندهم ، من الإدارة الحاكمة ، وعلماء التربية والتعليم ، ورجال الصناعة وأصحاب المال والتجارة والمبدعين ، والشغيلة ، كلهم يعملون من أجل رفع مستوى العمل الإبداعى ، مع مراعاة الجانب الاجتماعى والإنسانى للمواطن فى كل مجالات النتاج والإبداع ، دون تجاهل لقوة الإسلام الدافعة للتقدم ؛ لأن الدين له عمق مؤثر تأثيرًا إيجابيًا فى الإنسان ، يضبط عمله بالضوابط الشرعية .

إن مصر ـ باب ثقافة العالم الإسلامى ـ ذات وزن ثقيل فى المنطقة العربية ولموقعها الجغرافى أهمية عظمى فى الاستراتيجية العالمية ، ولقد عاشت منذ فجر التاريخ فى حركة دائبة مدًا وجزرًا ، كونت فى تاريخها القديم دولة ممتدة فى جميع الأنحاء شرقًا وجنوبًا وغربًا قبل الإسلام وبعد الإسلام ، نظر إليها الرسول ﷺ وخلفاؤه بعين الاهتمام ، ولما دخلت الإسلام كانت درعًا له ، وأعظم السدود فى وجه كل من أراد الإغارة على العالم الإسلامى .

تعرضت مصر للغزو والاعتداء من قبل أمم شتى قبل الإسلام وبعده ، وهى لا تزال فى رباط إلى يوم القيامة والله ناصرها ، وناصر العرب بها . فإذا كانت مصر تريد أن تجمع العرب لتدخل بهم سوق العولمة ، فلابد من صيغة عربية جديدة يتفق عليها العرب أولاً . تبدأ برأب الصدع العربى بمصالحة بآليات تحكم العرب جميعًا يقبلونها ويحترمونها . ثم صيغة تعامل جديدة تقنن تعامل العرب جميعًا بعضهم مع بعض بعودة الوعى وقبول صيغة حاكمية تحقق العدل الاجتماعى

(١) د. محمود حمدى زقزوق ، ملحق الأهرام فى ١٦/٧/١٩٩٩م .

والسياسى لشعوبهم وتحقق الشورى، والمصالح المرسلة ، وكرامة الإنسان وتكريمه وتحقق العدل والإنصاف واحترام حرية الفرد فى الاعتقاد وإبداء الرأى والتملك . وهذه السياسة الحكمية «سوف تمارس دورها المنتظر الذى يجنب العرب الكوارث والنكبات ، ويدخل بهم من بوابة العصر الذى نعيش فيه » (١) . والنظر إلى الغرب بعين ثاقبة ترى ما ينفع ، وتغمض عما يضر؛ لأن الانفتاح على الغرب قد يكون أكثر ضررًا على أصحابه . وهذا ما أقلق الدكتور زكى نجيب محمود ، فقد هاله أن تفتح أبواب مصر فى أوائل القرن العشرين على الأفق العصرى الفسيح دون وعى بما ينفع الناس ، وبما لا ينفعهم ؛ لأن شباب هذه المرحلة : « كانت أبصارهم تتابع مسيرة الفكر فى الغرب خطوة خطوة ، مع الإسراف فى التباهى بثقافة الغرب وحضارته ، مما أدى بنا يومئذ إلى العيش فى مناخ كاد المواطن فيه أن يخفى مصريته وعروبته وإسلامه ، حتى لا يتهم بالجلافة والتخلف . . . أما المرحلة التى نحياها اليوم ، فهى مقلوب المرحلة الأولى » (٢) . فهم فى المرحلة الأولى أسرفوا فى اتباع الغرب ، وفى الثانية أسرفوا فى صدوده ، وهم فى كل مرة منساقون مع الهوى . وفى الستينيات كانت الطامة ، فقد غابت الديمقراطية ، وصار الحكم يوجه المثقفين إلى فكر بعينه يخدم اشتراكية الحكم ، وسيطر الفكر المادى ، وكانت أقرب السبل إلى تفكير الشباب، التفكير المقلوب بعقل معكوس. فى المرحلة الأولى كانت الثقافة معادلة للحرية المطلقة ، وللانطلاق بلا قيود ، وفرض الحياد مع الدين ، وفى المرحلة الثانية كانت الثقافة معادلة لمادية تاريخية جدلية تضطهد الدين وتحارب المتدينين وتعذبهم، فلما كانت الثالثة ، كانت رافضة للماضى كله بكل وجوهه وأشكاله وصوره. ولاذ الشباب لواذًا تغلبه العاطفة بالدين ، فرفضوا الغرب وكل ما تهب به رياحه . ولو أنهم وازنوا بين العقل والقلب لسلموا وأخذوا من الغرب ما ينفعهم ويصلحهم ، وتركوا ما لا ينفعهم .

إن الشباب عاش نصف قرن من القهر الفكرى، فاختلطت عليه الأمور، وهو محتاج إلى من يمسح الغشاوة من على عينيه ويجلى عقله ، ويجعله يعيش حياة طبيعية، لكى يكون قادرًا على المشاركة فى القرارات المؤثرة فى حركة المجتمع

---

(١) د. مصطفى الفقى ، تجديد الفكر القومى ص ١٠٦ .

(٢) د. زكى نجيب محمود ، انظر : قيم من التراث ، ص ١٣٥ ـ ١٣٧ ، دار الشروق ١٩٩٩م .

العربى. على أن يوضع فى الاعتبار من يطلق عليهم شباب التيار الإسلامى. فلا يجب عزلهم أو تهميشهم ، بل الإفادة منهم فى تعلية البناء الاجتماعى للمستقبل العربى بوحدة فكر يتوحد فيه الكل ، لكى يكونوا قادرين على استيعاب توجهات القوى العالمية على اختلاف مذاهبها ، وفهم أفكارها « بميثاق فكرى موحد يسمح بوجود أرضية مشتركة ؛ لأن اقتحام المستقبل يتطلب أرضية فكرية مشتركة صلبة ، ندق علبها بأقدام ثابتة قوية »[1] بثقافة لها خصوصية المحلية، وفعالية العالمية ، ثقافة تحدد ذاتية أمتنا غير معزولة عن تيارات العصر الثقافية بحيث تكون نداً لها ، ولا تذوب فيها .

١ ـ أبرز دعاماتنا الموروث الإسلامى ، فهو مكون الأمة الأساسى ، ولقد اهتم الإسلام بالعلم والمعرفة وبالعلماء والعارفين . والقرآن الكريم عندما ذكر العلم والمعرفة قرن ذكرهما بأهمية الاهتمام بدراسة الظواهر الكونية ، وقوانين الطبيعية ونواميسها فى مختلف ظواهرها . وإذا كان العلم الطبيعى والتطبيقى أعظم مظاهر العصر الحديث فقد نبهنا القرآن الكريم إلى أهمية معرفة حالات الصوت والضوء وحركة الكواكب والنبات والحيوان وغير ذلك . وقديمًا تنبه أبو حامد الغزالى فى كتاب (جواهر القرآن ودرره) إلى أهمية حض القرآن الناس على التفكير والبحث العلمى . عندما أحصى الآيات التى تحض على الأخذ بأسباب المقاصد الدنيوية فوجدها سبعمائة آية وزيادة . ثم أحصى الآيات التى تحض على الإيمان والتوحيد والأخلاق الكريمة والعمل للآخرة فوجدها سبعمائة آية وزيادة . وبذلك يكون تعظيم الإسلام للاهتمام بالدنيا ، مساو لتعظيمه الاهتمام بالآخرة . وهذا ما يجب أن نعلمه لأبنائنا ونحن نحفظهم القرآن ليعلموا أن الإسلام حض على الإيمان ، كما حض على الإمساك بأسباب العلم . وحب الأرض كحب السماء ، والتدافع فى الأرض تدافع حق ، لا تدافع باطل وزور .

٢ ـ إذا كان تعلم القرآن أساس التعليم والتربية . فذلك لا يقلل من الاهتمام بالتعلم لذاته فى مجالات الحياة الدنيا كأساس للتثقيف والمعرفة ، وتعليم النشأ أن الدين لا يفرق بين مظهر معرفى وآخر ما دام لا يضاد الدين ، فالتفوق فى الآداب

---

(١) د. مصطفى الفقى : تجديد الفكر القومى ، ص ١١٠ .

والفنون ، كالتفوق فى الصناعة والحرف ، مثل التفوق فى العلوم الكونية . « فإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » وأن يستمر عمل الإنسان منذ الوعى بأهمية العمل والقدرة عليه ، إلى آخر طاقاته . وفى الأثر الشريف : « إذا قامت الساعة ، وفى يد أحدكم فسيلة فليغرسها » وفى الأثر أيضًا : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » .

٣ ـ الربط بين التدين والأخلاق من جهة والتقدم من جهة أخرى . وعلى المعلمين أن يدربوا النشء على الحركة الدائبة ، والدين خير مقوم لها . فهى التى تضبط حركة التقدم لتكون فى صالح البشرية . لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء] . وبذلك تكون العالمينية فوق العولمة .

٤ ـ توسيع قاعدة الحريات الفردية على أساس سليم ، فهى التى تحفز الفرد لكى يكون مثمرًا ، فكما أن المجتمع العربى فى حاجة إلى ثمرات نتاجهم ، فإن الإبداع العلمى والحرفى والفنى لا يقوم إلا بإطلاق الحرية .

٥ ـ أن تقوم المرأة بدورها ما دامت قادرة على الوقوف بجانب الرجل فى كل مجالات الإبداع التى لا تضاد أنوثتها ، ولا تخدش حياءها ، وتاريخ الإسلام حافل بمسلمات شاركن فى التطبيب فى الجهاد وفى الحسبة ، وفى أعمال إبداعية كثيرة وفى مواقف عظيمة فى السياسة ، كموقف أم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها يوم الحديبية ، وموقف الخنساء من الجهاد واستشهاد بنيها الأربعة .

٦ ـ لا يجوز تجاهل دور الأزهر الشريف الفاعل فى العروبة والإسلام ، فهو من أهم مقومات التقدم للأمة العربية والإسلامية .

كما أن العناصر العربية غير المسلمة ، يجب أن يكون لها دور فى خدمة الوطن العربى ، كما كان لهم دور تضامنى فى خدمة الوطن مع إخوانهم المسلمين منذ الفتح الإسلامى .

٧ ـ العامل الدينى يزكى العامل الثقافى ويقويه بقوة ذاتية تدفع به دائمًا إلى الأمام، ومن ثم فإن تعمد الصدام بين التيار الدينى والتيارات العلمانية أو الاشتراكية وغيرها سيكون له تأثير سلبى فى حركة التقدم .

إن حركة العالم إلى الأمام مستمرة ولن تتوقف عجلة الحياة ، فقد بدأت الحضارة زراعية فى حوض نهر النيل ، وما بين النهرين ، ثم انتقلت إلى الأماكن الصالحة من العالم. إن الغرب نفسه مر بعصر الإقطاع الزراعى ، ثم انتقل إلى عصر التصنيع فيما سمى بالثورة الصناعية لضخامة إنجازاته بدءًا من القرن السابع عشر ثم انتهى إلى (السبرانية) أى تسيير المصانع بالحاسوب فى الولايات المتحدة ، فيما سمى بعصر ما بعد الصناعى . وهى تسمية اصطلاحية ؛ لأن الزراعة لم تتوقف ، والصناعات بشكلها القديم لم تتوقف .

لكن ما دورنا فى الحاضر ، وما تطلعنا فى المستقبل ؟ أن تعمل الدول العربية على زيادة الاستثمار المشترك فيما بين شعوبها . للتقليل من خطورة عنصر المخاطرة فى السوق العالمية التى يمكن أن تتعرض لها كل دولة عربية إذا فكرت فى الانفراد بشؤونها التنموية . وهذا بدوره يساعد على إيجاد توازن اقتصادى تواجه به السوق العربية قوى السوق الدولية (المعولمة) مع قبول التجمعات المتماثلة سواء كانت تجمعات قارية فى إفريقيا وآسيا (القارتين التى تقع فيهما الدول العربية والإسلامية)، مع الإفادة من تجارب التجمعات الأخرى غير العربية مثل الاتحاد الأوربى ، ومنظمة التجارة الحرة مع كندا والمكسيك ، ومنتدى التعاون الاقتصادى الإقليمى لدول آسيا والمحيط الهادى ويضم الولايات المتحدة واليابان وأستراليا والصين ، والدول الصناعية الآسيوية الجديدة ، وبعض دول أمريكا اللاتينية . ويهدف إلى إقامة منطقة تجارة حرة بين الدول الأعضاء تكتمل حيثياتها سنة ٢٠١٠م .

أيها المسلمون أفيقوا من غفوتكم .

أيها العرب قوموا من مرقدكم .

فإن الداعى يؤذن فيكم : حى على الفلاح .

الفصل الخامس

الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر

الحمل والذئب

التقى الحمل والذئب عند غدير ماء جار فقال الذئب للحمل : لقد عكرت عليّ الماء .

فقال له الحمل: إن الماء يجرى من جهتك إلى جهتى .

فقال له الذئب :

ـ لقد فعل ذلك أبوك أو أخوك أو أحد أقاربك ذات يوم. ثم انقض عليه فأكله .

قرأته فى كتاب المطالعة الأولية عندما كنت أدرس بمدرسة القرية الأولية سنة ١٩٤٧م .

(١)

شرع الجهاد فى الإسلام لإعلاء كلمة الله والدفاع عن حوزة الإسلام وفيه من بذل الجهد فى ذلك ، ولا يكون الجهاد جهادًا إلا إذا كان فى سبيل الله ، أو رد طغيان أو عدوان ، وليس من أجل ترهيب الآمنين وترويعهم، فإذا روع آمن بلا جريرة كان مروعه معتد محارب لله ورسوله ويحق عليه حد الحرابة .

الأصل أن يدعو المسلم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . قال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) ﴾ [المؤمنون] . وقال عز شأنه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ [فصلت] .

فإذا كان القتال حتميًا لدفع اعتداء وعدوان كان الجهاد فريضة على كل قادر عليه . قال عز شأنه : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) ﴾ [البقرة] .

ومن الآيات الكريمة نفيد :

١ ـ أن يدعو المسلمون إلى سبيل ربهم بالتى هى أحسن .

٢ ـ إذا فرض عليهم القتال من قبل أعدائهم فليكن لرد عدوان ، فإن انتهوا فلا عدوان عليهم ، والله غفور رحيم .

٣ ـ القتال لمنع الفتنة ، ولا يكون إلا على الظالمين المعتدين .

٤ ـ حُرِّم القتال فى الأشهر الحرم ، إلا أن يكون دفعًا لعدوان ، وهذا يؤكد

أن السلم هو الأصل لا الحرب .

لكن هذه المفاهيم قد تختلف عند غير المسلمين خاصة فى الغرب، فإن مفهوم الجهاد الإسلامى فى عقل الغرب يعنى الحرب الدينية التى يشنها المسلمون على غير المسلمين؛ لأن دين الإسلام ـ بزعمهم ـ يدعو المسلمين إلى ذلك . ومن هذا الفهم يخرج مفهوم آخر، وهو ما يطلق عليه الإرهاب الأصولى، أى النابع من النصوص الأصلية فى الشريعة الإسلامية . ويمتد هذا الفهم الغربى للإسلام والمسلمين إلى تصور الغرب للإسلام فى العصور الوسطى ، وهو من اختراع رجال الكنيسة الكاثوليكية ، ثم تبعهم فيه المستشرقون ثم المنظرون للسياسة الغربية الخارجية فى العصر الحديث ، ولقد صار من الشيوع لدرجة رسوخه فى عقل الغرب وقلبه، بتصور يصعب محوه،مع أن الإسلام بعيد عن هذا المفهوم بُعْد المشرق عن المغرب، والإسلام لم يأمر المسلمين أبدًا بشن حرب عدوانية على الآمنين من الناس، أيا كانت دياناتهم وأعراقهم . بل يأمرهم بدفع السيئة بالتى هى أحسن يقول عز شأنه: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون] . والمسلم مأمور بذلك بحكم إيمانه بالقرآن الكريم. وهذه دعوة مسالمة يرفعها الإسلام للتعايش على أساسها مع الآخرين الذين يقبلون إقامة علاقات طيبة معهم. خالية من الغش والخداع والنفاق ، فالإسلام يدعو إلى البر والإحسان والتسامح مع الناس ما داموا لم ينبذوا بظلم يقول تعالى : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة]. فإن كان العدو معاندًا معتديًا كان الجهاد فريضة على المسلمين ، وهو فى هذه الحالة جهاد دفاع عن حق ، لا جهاد عدوان .

ولهذا فإن الحرب فى الإسلام إما أن تكون مشروعة ، وإما تكون غير مشروعة كما استبان فى الآيات الكريمة . وهذا يؤكد طابع السماحة البعيدة عن التعصب ، أو ترويع الناس . فضلاً عن أن الشريعة الإسلامية فى وقت الاستقرار والأمان تصون الحقوق الأساسية لكل إنسان ـ للناس جميعًا ـ وهو ما عرف بمقاصد الشريعة الإسلامية فى تحقيق مصلحة الإنسان فى : دينه ونفسه وماله وعقله ونسله، ولقد بالغ الإسلام فى المحافظة على حقوق الإنسان لدرجة أنه رأى أن

العدوان على نفس واحدة عدوان على الناس جميعًا ، سواء كانوا على دينه أو على غير دينه .

قال عز من قائل : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة : ٣٢] . وهذا الأصل لم يتحقق فى دين من الأديان أو فى شريعة من الشرائع غير الإسلام .

ولكن منظرو أمريكا العولمة أمثال (فوكوياما) و(هنتنجتون) ومن سبقهم من منظرى الغرب رسَّخوا فى أذهان الغربيين أن الإسلام دين دموى . وأنه أكبر عدو للديمقراطية الغربية بما تتضمنه من قيم التملك والحرية الدينية والفكرية ، وحقوق الإنسان . ومن أجل هذا التصور بدأت أصابع الاتهام تشير إلى الإسلام الدموى منذ وقع العدوان على المركز التجارى فى نيويورك وكذا وزارة الدفاع الأمريكية فى يوم الثلاثاء ٢٠٠١/٩/١١م . ورأت الإدارة الأمريكية أن الصدام الذى تنبأ به (هنتنجتون) فى كتاب (صدام الحضارات) بين الإسلام والحضارة الغربية قد بدأ بالفعل ، وفى ثورة غضب وقف رئيس الولايات المتحدة (جورج بوش الابن) يعلن أن بداية الصدام وقعت ، ولابد من إعداد لحرب صليبية ثالثة ضد الإسلام لكى يعرف العالم الفرق بين الخير والشر . ورأى أن هذه الحرب الصليبية ستحقق ما أسماه العدالة المطلقة . وهكذا وضع بوش مصطلحات مواجهة الإسلام : الحرب الصليبية ـ والعدالة المطلقة ـ والخير (الحضارة الغربية) ضد الشر (الإسلام) ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد وضع (جورج بوش) الحكومات فى مواجهة شعوبها بإعلانه : « إن على كل الحكومات فى كل أنحاء العالم أن تقرر إما أن تكون معنا أو مع الإرهاب » ولا أحد مع الإرهاب فى كل أنحاء العالم ، ولكن الإعلان مشحون بالعنصرية ، لأنه يقرر أن الولايات المتحدة على حق ، وأن بلاد المسلمين على الباطل ؛ لأن منهم إرهابيين وقتلة ، وهو يرى أن ضحايا الولايات المتحدة فى الحادث المشؤوم فى ١١ سبتمبر من ضحايا الإرهاب الإسلامى . وكأن الإرهاب خصيصة إسلامية .

إن مثل (جورج بوش الابن) كمثل (جورج بوش الأب) الذى رأى بفكر العولمة البرجماتية أن أمريكا فوق الجميع ، كما فعل النازى فى ألمانيا فى الثلاثينيات من القرن العشرين ، بمفهوم منطق الأقوى (الداروني) ومن هنا ، فإن حماية

الولايات المتحدة فى عهد (بوش الأب) للكويت وتحريرها من القوات العراقية المعتدية لم يكن عملاً إنسانيًا محضًا ، ولكنه عمل (برجماتى) محض قامت به الولايات المتحدة للقضاء على جيش العراق القوى التسليح الذى يمكن أن يمثل تهديدًا لإسرائيل ، بجانب المحافظة على مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة العربية، وهو ما عبر عنه (جورج بوش الأب) بدون تعجل فقال : « إن الهدف من القضاء على جيش العراق إقامة نظام دولى جديد مؤسس على الحق » [الحق الأمريكى] وقال أيضًا : « من أجل رسم خريطة جديدة للعالم » .

عند ذلك بدأ المنظرون يرسمون الخريطة الجغرافية الجديدة ، والثقافية الجديدة أيضًا للعالم ، ومنه العالم الإسلامى بصفة خاصة ، الذى رأى فيه (فرانسيس فوكوياما) صدمة للديمقراطية الليبرالية الأمريكية ؛ لأنه على ـ حد تعبيره ـ القسم الوحيد فى العالم الذى يرفض مقولة (نهاية التاريخ) بما فيها من مفاهيم حقوق الإنسان على القواعد الغربية، ثم أيده (هتنتجتون) الذى رأى أن الإسلام دموى، وأن الصدام بينه وبين الحضارة الغربية حتمى . ثم جاء هجوم ١١ من سبتمبر ٢٠٠١م ليضع مصطلحات الإرهاب الفكرى والسياسى موضع التنفيذ للسيطرة على مليار ونصف مليار مسلم ولتعلن واشنطن عن الإمبراطورية الأمريكية التى أعد لها منذ استقلالها عن الحكم البريطانى . يقول الأستاذ شوقى جلال فى كتاب : (العقل الأمريكى يفكر من الحرية إلى مسخ الكائنات) وفيه يتحدث أحد الأمريكيين عن مستقبل الولايات المتحدة وحدودها فيقول : « إن حدود الولايات المتحدة هى تلك الحدود التى يحدها الشفق القطبى شمالاً والاعتدالين جنوبًا ، والعماء البدائى شرقًا ويوم القيامة غربًا » وإذا كان هذا الكلام على سبيل التخيل ، فلا يزيد على كونه أمنية أمريكية ترسخت فى عقل الشعب الأمريكى وزعمائه السياسيين ، منذ أن تولى (جورج واشنطن) أول الرؤساء الأمريكيين بعد الاستقلال ، فقد بدأت نوايا الولايات المتحدة فى الرغبة فى التسلط والسيطرة تظهر فى خطاب تولى (جورج واشنطن) الرياسة سنة ١٧٨٩م فقد قال : « إنه موكل بمهمة عهد بها الله للشعب الأمريكى ». ومع أنه لم يفصح عن هذه المهمة ، فقد أفصح عنها الرئيس (توماس جيفرسون) فى خطاب توليه الرئاسة سنة ١٨٥١م فأعلن أن « الأمريكيين هم شعب الله المختار ». حتى إذا جاء الرئيس روزفلت كان أكثرهم إفصاحًا فقال:

« إن أمركة العالم مصير أمتنا وقدرها » .

إن نمو الجبروت الاقتصادى والعسكرى المستمر للولايات المتحدة منذ سنة ١٩٤٥م مكنها من هيمنة متعددة الأبعاد ، وهذه الهيمنة قابلة للاستمرار ؛ لأن قواتها العسكرية تتفوق على قوات الدول الأخرى فى أوربا والصين واليابان - إنها تستطيع أن تغير بنية الاقتصاد العالمى - كما تستطيع أن تغير مفاهيم سياسية وثقافية. وهو ما يعنى استمرار السلطة الأمريكية وقدرتها على مواجهة أى تحرك سياسى لزعزعة الاقتصاد الرأسمالى الليبرالى الذى تحركه « وبالتالى فإن انفتاح الأسواق الكونية يتوقف على إرادة السياسة الأمريكية » (١) .

لقد حان وقت إعلان الإمبراطورية الأمريكية الكونية . وكانت المناسبة فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وهو أمر لا يتم إلا بطقوس ، مع عدم تجاهل أفكار حكماء التنظير الأمريكى الذين نصحوا بضرب الإسلام أولا : وكانت الفرصة سانحة للرئيس (جورج بوش الابن) لكى يتهم الإسلام فى شخص أسامة بن لادن وليصرح عقب الهجوم على المركز التجارى بنيويورك ،ومبنى وزارة الدفاع بواشنطن بقوله : « لابد من حرب صليبية على الإسلام لتميز بين الخير والشر » (٢) .

وكان لتصريح بوش صدى مدوٍ فى العالم الغربى ، فلم يمض على تهديدات بوش غير أيام قليلة ، حتى فاجأ العالم (بيرلسكونى) رئيس وزراء إيطاليا زعيمة العالم الكاثوليكى بتصريحات تكشف عن بغض الغرب للإسلام وتبعيته لأمريكا فقال : « إن الإسلام دين لا يحترم حقوق الإنسان ، ومبادئ التعددية والتسامح والحرية الدينية . وأن الحضارة الغربية تعلو على حضارة الإسلام . وأعرب رئيس الوزراء الإيطالى عن أمله فى أن يهزم الغرب الإسلام وحضارته » .

صرح بذلك يوم الثلاثاء ٢٠٠١/٩/٢٥م فى أثناء زيارته الرسمية فى برلين ، ثم صدر بيان للرئيس الإيطالى والمستشار الألمانى شرودر بتأييد غير محدود لموقف الولايات المتحدة من حرب أفغانستان .

---

(١) بول هرست ، وجراهام توميسون : ما العولمة ؟ الاقتصاد العالمى وإمكانات التحكم ، ص ٢٨ ، ترجمة : د. فالح عبد الجبار ، عالم المعرفة العدد ٢٧٣ ، الكويت ، ٢٠٠١م .

(٢) صحيفة الأخبار فى ٢٠٠١/٩/٢٩م .

. وهذا الكلام يماثل ما قاله (بانسيه) وزير خارجية فرنسا : « لابد من الاحتراز من الغزو الإسلامى القادم إلينا من الجنوب » . وقول تونى بلير رئيس وزراء إنجلترا : « إن الحرب القادمة حرب ثقافية بين حضارة الغرب وبربرية الإسلام » .

إن هذه التصريحات التى صرح بها كبار سياسى الغرب ، نتجت عما تكوّن فى العقل الغربى إزاء الإسلام وحضارته والمسلمين بصورة يصعب محوها .

إن بول جونسون [من أهم الكتاب السياسيين فى الغرب] رئيس تحرير مجلة (ناشيونال إينترويت) يندد بحكام الغرب لأنهم على حد قوله : « لا يدركون أن مهاجمة الإرهاب واقتلاعه من جذوره يعنى الصدام بأكبر جماعة دينية فى العالم تعتنق دين الإسلام ، ويطالبهم بوضع حد للوهم القائل بالتفرقة بين الإسلام دينًا وحضارة من ناحية، والإرهاب الصادر عن مسلمين من ناحية أخرى . ويهيب بهم أن يكشفوا النقاب عن حقيقة الأمر ، وهو أن صدام الحضارات لا يثمر إلا الهيمنة الأمريكية وتطبيق استراتيجيتها الجديدة ، تحت مسمى النظام العالمى الجديد » (١) .

إن الولايات المتحدة تنفذ هذا الفكر عمليًا ، ليس عن طريق حوار الحضارات، ولكن بضرب الحضارة المناوئة ، بحرب هى الأولى من نوعها فهى حرب ترويع للعالم ، لا حرب ضد الإرهاب الذى لم يتم تعريفه بعد ، من قِبل مؤتمر عالمى برعاية الأمم المتحدة . أو أية منظمة دولية محترمة . والولايات المتحدة تستخدم فى هذه الحرب على أفغانستان قواتها الخاصة عالية التدريب ، وأحدث تقنيات الحرب، وتدير عملياتها العسكرية بالأقمار الصناعية، وتستخدم قنابل الأبخرة الخارقة القادرة على اختراق المناطق المحصنة وتدميرها تمامًا ولها تأثير القنابل النووية . كما تستخدم القنابل العنقودية المحرمة ، وصواريخ كروز الرهيبة . والقنابل الموجهة بأجهزة الليزر ، وأحاطت أفغانستان بحاملات الطائرات من البحر ، والقواعد العسكرية من الدول المجاورة . كل هذه الحشود للبحث عن إنسان فرد ـ اسمه أسامة بن لادن . وهنا يطرح سؤال : ماذا لو سقط الرجل ـ هل ستعود الآلات الجهنمية إلى حيث أتت من الولايات المتحدة الأمريكية أم ستظل حيث تقف على أن تدفع دول إسلامية ثمن هذا البقاء كما حدث فى حرب الخليج ، ويقوم (جورج بوش

---

(١) ارجع إلى : مقال د. أنور عبد الملك ، الأهرام ١٦/ ١٠/١/ ٢٠٠١م .

الابن) بدور (هولاكو) ؛ لأن أباه (جورج بوش) الأب قام بدور (جنكيز خان) .

لم يكن هجوم ٢٠٠١/٩/١١م سبب ضرب أفغانستان بسبب رفضها تسليم (أسامة بن لادن) للولايات المتحدة ، ولكنه كان الذريعة إلى ضرب الإسلام ، وامتلاك قلب العالم الإسلامى بما يحتوى عليه من ثروات طبيعية . القصة بدأت فى السبعينيات عندما حذر (كيسنجر) ـ اليهودى الذى كان مسؤول الأمن القومى الأمريكى ثم وزيراً للخارجية الأمريكية ـ حكومته من الإسلام ، ونبههم إلى أنه عدوهم الحقيقى الذى يجب أن يعمل له ألف حساب . وتنبه الرئيس (ريتشارد نيكسون) إلى مقولة وزير خارجيته ، ورأى أن الإسلام هو العدو الرئيس للغرب، وذلك ما دونه فى كتابه (الفرصة سانحة) بعد أن ترك الحكم .

كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وأجهزتها العسكرية والاستخبارية ومنظروها السياسيون والثقافيون ينشطون فى اتجاهين :

الأول : تفكيك الاتحاد السوفييتى والقضاء عليه .

الثانى : وضع خطة لضرب العدو الجديد الذى ظهر بعد تفكيك الاتحاد السوفييتى وتحقيقه لبعض الانتصارات فى المجالات العالمية مثل انتصار مصر فى حرب سنة ١٩٧٣م ثم انتصار أفغانستان على الاتحاد السوفييتى ثانى أعظم قوة عسكرية فى العالم ، وانتصار الثورة الإسلامية فى إيران، وظهور صحوة إسلامية فى تركيا . إن هذه الانتصارات التى تحققت دون إرادة الغرب فى العالم الإسلامى أذنت بتهديد للهيمنة الغربية والولايات المتحدة بصفة خاصة ولم يعد من الممكن لدائرة الهيمنة الغربية بقيادة الولايات المتحدة أن تستمر فى طريق التنكر لأهمية الحضارات الأخرى ، خاصة الإسلامية والصينية ، والادعاء بأن المحور الاقتصادى هو الأساس .

وكان لابد من الإعلان عن النوايا برسالة (صمويل هنتنجتون) الموجهة إلى الإسلام تحت غطاء صدام الحضارات لإبراز شكل النظام الدولى الجديد ، أى نظام الهيمنة الأمريكية « القائم على ضرورة إخضاع الحضارات والثقافات الأخرى بكل ما تشمله من مغايرة للحضارة الغربية وطاقاتها وإمكاناتها ، من أجل الوصول إلى

مشروع حضارى عولمى،محوره الثقافة الغربية/ الأمريكية على وجه التحديد» (١).

وفى سبيل ضرب العدو الجديد ، بدأ التخطيط الفعلى فى سنة ١٩٨٤م على وجه التحديد، فقد دعا الرئيس (جيمى كارتر) [وهو الداعية الإنجيلى فى الوقت نفسه] إلى صياغة خطة استراتيجية واضحة لمواجهة الإسلام ، باعتباره أكثر خطورة على الغرب وحضارته من الشيوعية. وعهد (جيمى كارتر) إلى أقرب مستشاريه بوضع الخطة ، فوضعها وأرسل بها إلى جهات الأمن القومى الأمريكى لمناقشتها ، واستمر الجهاز فى مناقشتها لمدة سنة كاملة ، قبل أن تنتقل إلى لجنة الاستخبارات التابعة للكونجرس الأمريكى ، مع التوصية بأن تبقى سرية ، على أن يتم تنفيذها بخطوات متدرجة ، وفى الوقت نفسه تتظاهر فيه الولايات المتحدة بصداقتها للعالم الإسلامى ، بحسب ما جاء فى التقرير الذى نص أحد بنوده على النص التالى : « إننا يجب أن نظل أصدقاء للدول الإسلامية ؛ لأن مصالحنا الحيوية المنتشرة فى العديد من دول العالم الإسلامى ستتعرض لمخاطر حقيقية ، إذا أحست شعوب هذه الدول أن الولايات المتحدة تعمل ضد الإسلام » . كما نص التقرير نفسه على « أن الدول الإسلامية ستظل صديقة لنا طالما نحَّت الإسلام جانبًا فى كل تعاملاتها الداخلية والدولية، وجعلت من الإسلام مجرد شعار دينى، يؤدى أفراده بعض الطقوس الخاصة به فى العبادات ، وأن تظل حكومات هذه الدول مسؤولة معنا عن مقاومة الحركات التى تعمل على إعادة بعث روح الإسلام التى يطلق عليها فى مفهومهم (الجهاد) التى تعنى الإرهاب فى مفهوم الغرب » .

« إن أية حركات دينية يجب أن نعمل على استئصالها والقضاء على جذورها، وإلا فإن هذه الحركات ستزداد قوة يومًا بعد يوم حتى يأتى اليوم الذى تنافس فيه القوة الأمريكية العظمى » .

« إن ما يزيد من عمق هذه الخلافات ، تلك الصحوة الإسلامية التى انتشرت فى العديد من الدول الإسلامية خاصة : إيران والسودان ومصر والجزائر والسعودية ، فهذه الصحوة أعلنت منذ مولدها عداءها الواضح للسياسة الأمريكية، ليس من منطلق تناقض المصالح أو تضاربها ولكن بجانب ذلك،لتناقض القيم

---

(١) د. أنور عبد الملك ، الأهرام ١٦/ ١٠/ ٢٠٠١م .

والمبادئ الديمقراطية مع الإسلام».

« إن الإسلاميين هم الذين بدؤوا ـ بزعم التقرير ـ ونصبوا الولايات المتحدة عدوا لهم، فكان طبيعيًا أن تفيق الولايات المتحدة من غفلتها وتتنبه إلى هذا الخطر القادم إليها، وخاصة أنهم يرون أن الولايات المتحدة تدعم إسرائيل ، كما يرون أنها المسؤولة عن وجودها الفعلى وتطويرها لضرب الدول العربية والإسلام » .

وأوصى (أرنست ميدور) أحد أهم الذين شاركوا فى صياغة التقرير أن تتجاوز الولايات المتحدة نظرية (صدام الحضارات) وإلا فستكون الخاسرة أمام بريق الإسلام وجاذبيته . وأن يتوجه حلف الغرب بقيادة الولايات المتحدة إلى تفتيت العالم الإسلامى بتصديعه، وعمل شروخ عظمى فى جسده ، وتصنيف دُوله بعد تفتيتها إلى دول : أشد عداء للغرب ، وأقل عداء ـ ومعتدلة ـ وعلمانية. وضرب الصنف الأول وإزالته . ومساندة الصنف الثانى وتعضيده ومساندته .

وأقر مجلس الأمن القومى، ولجنة الاستخبارات الأمريكية توصية (أرنست ميدور) فى بنود عشرة هى :

١ ـ المجابهة العسكرية المباشرة كلما تيسر مع أية حكومة دينية فى العالم الإسلامى.

٢ ـ قطع جميع أنواع المساعدات الاقتصادية والعسكرية والسياسية عن هذه الحكومات المعادية للغرب . (بحسب رؤية التقرير) .

٣ ـ احتواء مخاطر هذه الحكومات من خلال تقليص دائرة اتصالاتها الدولية والعمل على عدم توسيع علاقاتها الدبلوماسية مع مختلف الأطراف الإقليمية والدولية.

٤ ـ أن يتم إدراج هذا الصنف من الحكومات على قائمة الدول التى ترعى الإرهاب والدول التى تنتهك حقوق الإنسان .

٥ ـ العمل على إثارة المتاعب الداخلية والقلاقل والاضطرابات واستغلالها فى تقوية النزعات العرقية والطائفية فى هذه الدول .

٦ ـ العمل على تقسيم الأقاليم الموحدة لهذه الدول إلى أكثر من إقليم حتى

يتم إنشاء حكومات موالية للغرب فى الجزء المنفصل عن الدول مثلما يحدث فى السودان حاليًا .

٧ ـ تقوية عناصر النزاع فى هذه الحكومات الدينية مع غيرها من الدول الإقليمية لتدخل هذه الحكومات فى صراعات مباشرة تضعف من قوتها ، ومن مصادر عتادها العسكرى .

٨ ـ تشجيع جماعات داخلية على القيام بحركات انقلاب مباشرة ضد الحكومات الدينية ، حتى يمكن التخلص منها مع الأخذ فى الاعتبار ضرورة أن تقدم الولايات المتحدة المساندة التأمينية اللازمة لإنجاح هذه الجماعات فى الوصول إلى أهدافها .

٩ ـ العمل على تكوين جماعات معارضة قوية للحكومات الدينية فى حال عدم وجودها ، وأن تكون هناك دوائر اتصال واسعة مع هذه الجماعات المعارضة وإعدادها بالأموال اللازمة ، والأسلحة القادرة على زعزعة أركان الحكم داخل هذه الدول .

١٠ ـ أن تكون هناك أولوية خاصة ، وأهمية فى عمل أجهزة الاستخبارات الأمريكية لهذه الحكومات الدينية ، وأن تتحين كل الفرص المناسبة من أجل القضاء على هذه الحكومات » (١) .

أما التعامل مع الجماعات الدينية الإسلامية التى تهدد الحكومات العلمانية فقد رأى تقرير (ميدور) أنه يجب على الولايات المتحدة أن تمد خيوط اتصال معها من أجل استكشاف نواياها باستمرار ، ومعرفة اتجاهاتها ، دون إظهار العداء للإسلام، بل بإظهار العداء للإرهاب الإسلامى ، حتى إذا سنحت الفرصة لضربهم ، قامت بإعلان الحرب عليهم ، على ألا تقوم الولايات المتحدة وحدها بتوجيه الضربة ، لكن يجب عليها أن تشرك معها بعض دول الغرب ، وبعض الدول الإسلامية . [كما فعلت مع العراق ، وكما تفعل مع أفغانستان] .

وأخيرًا ، يدعو التقرير إلى أن تساند الأمم المتحدة النظم الديمقراطية العلمانية

(١) ارجع إلى مقال : مصطفى بكرى : الوصايا العشر للتعامل مع الحكومات الإسلامية. صحيفة الأسبوع ، الأول من أكتوبر ٢٠٠١م .

مثل إسرائيل لتظل قوية وقادرة على توجيه أقسى الضربات لأية دعوة لإنشاء حكم إسلامى .

وما أن بدأ عقد التسعينيات يؤذن بتفكك الاتحاد السوفييتى ، بدأت الولايات المتحدة على لسان الرئيس (بوش الأب) يعلن النظام الدولى الجديد ذا القطب الواحد باعتراف العالم كله وفى مقدمته الاتحاد السوفييتى منافس الأمس على زعامة العالم . ثم سارت الأمور الدولية على الوجه التالى :

١ ـ هيمنة أمريكية منفردة بعد أن أعلن (ميخائيل جورباتشوف) رئيس الاتحاد السوفييتى انسحاب الاتحاد السوفييتى من المواجهة مع الولايات المتحدة رسميًا .

٢ ـ وفى أول يونيو ١٩٩٠م أعلن (جورباتشوف) بداية التفاهم على قواعد جديدة مع الولايات المتحدة فى قوله : « إننا نقيم علاقات جديدة بالفعل مع هذه القوة العظمى (الولايات المتحدة) وكل زعماء الاتحاد السوفييتى ـ حاليًا ـ يعرفون أن إصلاح اقتصاد بلادهم يتوقف بدرجة كبيرة على الاستثمارات الغربية » (١) .

٣ ـ وجدت الولايات المتحدة نفسها فى مقدمة دول الصف الأول حرة طليقة، ثم اصطنعت أزمة الخليج لتبرر هيمنتها الكاملة على منطقة الخليج شديدة الحيوية، ذات التأثير القوى فى الاقتصاد العالمى .

وفى أثناء حرب الخليج أعلن (جورج بوش الأب) قيام النظام الدولى الجديد الذى مُهد له بجهود مشتركة دؤوبة للمؤسسات الاستراتيجية الأمريكية، ففى أول أكتوبر ١٩٩٠م خطب (جورج بوش) فى الجمعية العامة للأمم المتحدة قائلاً: « لا يشكل العدوان فى الخليج تهديدًا للأمن فى المنطقة فحسب وإنما يمثل خطرًا على الرؤية العالمية لمستقبلنا جميعًا ، وهو خطر يهدد بتحول النظام الدولى الجديد إلى كابوس مزعج، حيث تسود الفوضى ويحل قانون الغاب محل القانون الدولى ، وهذا هو السبب الذى حدا بالأمم المتحدة إلى أن تتخذ موقفًا يتسم بمثل هذه الدرجة من الوحدة والتصميم ، وسوف يترتب على هذا النجاح نتائج دائمة بعيدة

---

(١) مارسيل سيرل : أزمة الخليج والنظام العالمى الجديد ص ٦٤، ٦٥. ترجمة : د. حسن نافعة ، دار سعاد الصباح ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

المدى ، تتمثل فى تدعيم قواعد السلوك الدولى المتحضر ، وتدعيم فرص النجاح أمام تصورنا للمستقبل . . . لقد حان الوقت لإحلال منهج العمل البرجماتى محل منهج الجدل العقيم ، وقد أثبتنا أن الأمم المتحدة يمكن أن تعتمد على القوة المشتركة للجماعة الدولية ، وأنها قادرة على مواجهة تحدى العدوان على النحو المأمول . وعلينا أن نثبت فى هذه الأوقات العصيبة أن الأمم المتحدة هى المكان الذى يمكن فيه أن نتضامن ، وأن نتوحد على المستوى الدولى لمواجهة المهام العديدة الأخرى التى تنتظرنا » (١) .

وكان (فرانسيس فوكوياما) قد سبق بوقت قصير فى سنة ١٩٨٩م التمهيد لهذا الخطاب الرسمى الذى ألقاه الرئيس (بوش) فى الأمم المتحدة بكتاب (نهاية التاريخ وخاتم البشر) وكان هذا الكتاب قد ذاع وانتشر كأنه النذير للشعوب يؤذن بأن الديمقراطية الرأسمالية البراجماتية الحرة هى نهاية تاريخ كل النظم السياسية ، ولهذا يجب أن تسود العالم كله . ثم جاء خطاب (بوش) ليؤكد بصفة رسمية ، ما شغلت به السياسة الأمريكية فى ثلاثة عقود سابقة فى وثائق وتقارير ومناقشات ظلت فى ملفاتها السرية حتى قام (بوش) بفضها فى حرب الخليج وإعلان النظام العالمى الجديد . الذى يعنى فى طبيعته كما قال (مارسيل سيرل) الفرنسى مؤلف كتاب بالعنوان نفسه : « الهيمنة بالآلة الجهنمية التى وضعت تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية » (٢) . وهكذا مهدت المصطلحات القديمة فى كتابات المنظرين الأمريكيين إلى مصطلح النظام العالمى الجديد، ومصطلح الكونية (Globalisme) أى الهيمنة الأمريكية على مقدرات العالم فى مجالات الاقتصاد والثقافة والسياسة بواسطة الآلة الجهنمية العسكرية التى تملكها .

ثم جاء دور الزعم بحتمية صدام الحضارات سنة ١٩٩٢م وكان الصدام هذه المرة مع الإسلام بعد انهيار الاتحاد السوفييتى العدو الأخطر القديم ، وبدأت نظرة الارتياب من أطماع الولايات المتحدة فهى المستنزفة لبترول العرب وخيراتهم والمحتلة لأجزاء من أرضهم ، وموجدة إسرائيل لضربهم وتعطيل موارد تقدمهم ، فضلا عن أنها توزع الفتن والفساد فى بلاد المسلمين .

---

(١) مارسيل سيرل : أزمة الخليج والنظام العالمى الجديد ص ٧٩، ٨٠. ترجمة : د. حسن نافعة ، دار سعاد الصباح ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

(٢) المرجع السابق ص ٦٢ .

بدأ التفكير يدور فى العقل الإسلامى ويشغله بتوجيه السؤال التالى : ماذا يريدون وماذا نفعل ؟ أما على من يعود الضمير ، فعلى القوى الغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، التى جعلت من آلات قواتها الجهنمية قوة تحركها البرجماتية من أجل الاستيلاء على ممتلكات الآخرين فى الوقت الذى تقوم فيه آلاتهم الإعلامية المبهرة بسلب إرادة هؤلاء الآخرين وفرض صورة الحياة التى تريد أن يعيش عليها العالم .

إن التقارير الصادرة عن الغرب كلها متشابهة وذات نتائج واحدة ، وكلها موجهة ضد الإسلام والمسلمين . وقد تتغير صورها ووسائلها ولكن لا تتغير نتائجها وغاياتها . ومن هذه التقارير تقرير مجلس الأمن القومى الأمريكى الذى أذاعه صوت أمريكا ـ الإذاعة الرسمية ـ فى يوم ٦/ ٣/ ١٩٩١م ، وكان هدف التقرير شرح الملامح الرئيسة للنظام الدولى الجديد فى النقاط التالية :

١ ـ يجب أن تشمل ترتيبات الأمن المستقبلية أفكارًا أخرى مثل : فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وروسيا .

٢ ـ وجوب التخلص من أية قوة إسلامية تظهر فى البلاد الإسلامية بعد القضاء على القوتين العسكريتين إيران والعراق . وبصفة خاصة تركيا . [كان حزب أربكان الإسلامى فى عنفوانه قبل أن يتم القضاء عليه] .

٣ ـ عمل الترتيبات التى تحول دون وصول دول الجوار [الدول الخليج] من الوصول إلى المستوى الذى يمكنها من مهاجمة دول الخليج [حفاظًا على المصالح الأمريكية] .

٤ ـ حظر بيع أسلحة الدمار الشامل إلى الدول العربية والإسلامية .

٥ ـ فى حالة الضرورة أى الاضطرار لبيع مثل هذه الأسلحة يُؤخذ فى الاعتبار النقاط التالية :

أ ـ ألا يكون بكميات كبيرة .

ب ـ ألا يكون من النوع القادر على الحركة والانتشار بسرعة .

جـ ـ ألا يباع معها قطع غيار ، أو بعد بيعها .

د ـ أن تكون تحت مراقبة الدول الخمس الكبرى .

هـ ـ حظر بيع أنواع بعينها من الأسلحة المتقدمة على الإطلاق .

٦ ـ تفتيت ثروات دول الخليج حتى لا تصبح حافزًا على العدوان . وتقديم معونات صغيرة للدول الإسلامية الفقيرة على شكل مشاريع صغيرة ، على أن يوضع فى الاعتبار ما يلى :

أ ـ ألا تخدم مشاريع البيئة الأساسية لهذه الدول .

ب ـ أن يكون تقديمها من أجل التأثير فى القرار السياسى لهذه الدول .

جـ ـ أن تكون مصحوبة بأكبر قدر من الدعاية .

٧ ـ يجب تغيير النظم التى لا تعمل للمصالح الأمريكية فى هذه البلاد ، وبذل الجهود لإعطاء السلطة للأشخاص الذين درسوا بالغرب مع وجوب بذل الجهد لتغيير ثقافة هذه المنطقة ، وسحق الأصوليين بها .

ولإيقاف التأثير المتزايد للإسلام ، وللمشكلة الفلسطينية ، يجب اتخاذ الإجراءات التالية :

أ ـ التعتيم إعلاميًا على تحركات الانتفاضة فى فلسطين .

ب ـ إشغال المسلمين بالتناقضات فى مجتمعاتهم ، ليحارب كل منهم الآخر للقضاء على قوتهم ، كأن يستخدم الشيخ محمد الغزالى فى إثارة الجدل حول موضوع المرأة فى الإسلام .

جـ ـ وجوب العمل على تغيير الحكومات التى تطبق الشريعة الإسلامية .

د ـ وجوب التخلص من القوانين [يقصد الأحكام] الشرعية .

هـ ـ عدم السماح للعناصر الإسلامية من الوصول إلى الحكم أو الوظائف الحساسة، وعدم السماح للإسلاميين بالتأثير فى الوسائل التعليمية والإعلامية .

٨ ـ توسيع برامج الإذاعة والتليفزيون ، وتغيير نظم التعليم والثقافة .

٩ ـ وجوب خلق عداءات بين التيارات الإسلامية ، مثل الاختلاف بين الإخوان المسلمين والسلفيين .

١٠ ـ فى المجال الاقتصادى ، يجب اتخاذ الإجراءات الرقابية التالية على الأقطار العربية :

أ ـ يجب أن تسيطر دول التحالف [الولايات المتحدة وحلفاؤها] على التجارة وتحديد أسعار البترول .

ب ـ يجب التحكم فى كميات البترول .

جـ ـ عدم السماح للأرصدة العربية بالعودة إلى الدول العربية .

د ـ لإنهاء نظرية توزيع الثروة ، يجب البدء فى المشاريع التى ستستخدم فى الأغراض الدعائية ، التى تثير الرأى العام .

هـ ـ يجب ألا تستخدم الضغوط الاقتصادية على الأقطار العربية الفقيرة .

١١ ـ يجب فتح أبواب جديدة بالدول العربية لاستحداث مشاريع اقتصادية جديدة يقوم بها الغرب ، واستحداث صناعات جديدة بالدول الغربية باستخدام المواد الخام التى يحصل عليها الغرب من الدول العربية .

وهذا التقرير الذى جاء عقب نداء (جورج بوش الأب) عن النظام العالمى الجديد وحرب الخليج وتفكيك الاتحاد السوفييتى ، وفرضية (فوكوياما) (نهاية التاريخ) ومواكبة كتاب (صمويل هنتنجتون) (صدام الحضارات) الذى يفترض دموية الإسلام .

١ ـ إنها منظومة الاستعمار الغربى الجديد للعالم الإسلامى بشكله الجديد : السياسى ، والاقتصادى بالتحكم فى ثروات الدول الإسلامية ، وإضعاف التنمية الاقتصادية فيها .

٢ ـ فى المجال العسكرى بالقضاء على القوة العسكرية العراقية والإيرانية وأية قوة عربية ـ إسلامية تنشأ .

٣ ـ تهديد الأمن العام بالعالم الإسلامى بافتعال الفتن والأزمات السياسية والثقافية ، لكى تظل المجتمعات الإسلامية مشغولة بأمور هامشية ، وتظل خاضعة للسيطرة الغربية.

٤ ـ التعتيم على المشكلة الفلسطينية ، فإذا كان هناك ذكر لهذه القضية فليكن

لصالح إسرائيل .

٥ ـ تغريب الثقافة الإسلامية ، والضغط على الإسلاميين .

٦ ـ استخدام الأرصدة الإسلامية فى الاستثمار الغربى ، ومساعدة إسرائيل ، وضرب البنية الأساسية فى المجتمعات الإسلامية .

٧ ـ التحكم فى مصادر المواد الخام [خاصة البترول] فى البلاد الإسلامية واستثماره فى استحداث صناعات أكثر تطوراً فى البلاد الغربية ، ومنع قيام أية صناعة متقدمة فى الدول الإسلامية ، حتى تظل فى حاجة إلى صناعة الغرب المتقدمة ، التى تتطور باستمرار إلى الأفضل .

إذن هى خطة طويلة المدى أعد لها لضرب بلاد الإسلام . والولايات المتحدة أو آخر إمبراطوريات التاريخ التى بدأت تكرس هيمنتها على العالم عقب حرب تحرير الكويت ، بعد أن أنهت دور الأمم المتحدة ، ودور مجلس الأمن .

وبعد ضرب القوة الاقتصادية الأمريكية متمثلة فى المركز التجارى بنيويورك والقوة العسكرية بضرب وزارة الدفاع فى واشنطن ، رأت الولايات المتحدة أن الوقت قد حان لإعلان إمبراطوريتها الكونية ، ورأت فى أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ذريعة إلى هذا الإعلان ، بضرب أفغانستان وامتلاك قلب العالم فى آسيا والسيطرة على وسط آسيا والاقتراب من إيران وروسيا والصين والهند ، وبترول بحر قزوين . ولقد بدأ تنفيذ الخطة بتعقب ما أسموه بالإرهاب الإسلامى ، ثم السيطرة على المراكز المحورية فى العالم ، حيث لا حدود للإمبراطورية الأمريكية: « لأن حدود الولايات المتحدة هى تلك التى يحدها الشفق القطبى شمالاً ، والاعتدالين جنوبًا ، والعماء البدائى شرقًا ويوم القيامة غربًا » . وهكذا تتحقق الأمنية الأمريكية التى رسخت فى العقل الأمريكى ، ابتداء من يوم حادث الثلاثاء الأسود المشؤوم لتعلن قيام الإمبراطورية بالقرار فى قلب العالم الجديد ، وهذا ما كشفت عنه إيران بلسان مرشد الثورة الإسلامية آية الله على خامنئ : « ما تريده الولايات المتحدة أن يفعلوا ما فعلوه فى حرب الخليج ، وهو التسلل إلى المنطقة وعدم الخروج منها ، وهم الآن يتسللون إلى آسيا الوسطى ، حيث حدود إيران الشرقية والصين والهند وبترول بحر قزوين .

ويظهر للعالم كله أن الحشد العسكرى الذى حشدته الولايات المتحدة لحرب أفغانستان يفوق كثيرًا الهدف الذى أعلنت عنه الولايات المتحدة وهو تسليم أسامة ابن لادن للإدارة الأمريكية باعتباره متهمًا مشتبهًا فيه . وإن إصرار الولايات المتحدة على تسلم «بن لادن» لا يزيد على كونه ذريعة إلى امتلاك قلب العالم، والوصول إلى بترول بحر قزوين ، وتحجيم القوة العظمى الناشئة فى الصين ، حتى لا تفكر فى حلف مع روسيا والهند ، يعطل مسيرة العولمة ، والنظام العالمى الجديد واحد القطبية ، ويعيد التعددية المذهبية والثقافية .

إن سياسة الولايات المتحدة إزاء الأحداث الأخيرة (ما بعد ١١ سبتمبر) تسير فى اتجاهين :

الأول : اكتساب عطف الأمم وإشراكها معها فى حرب ما أسموه الإرهاب الإسلامى ، وقد وجدت قبولاً من المجتمع الدولى .

الثانى : أن تمكن لنفسها بوضع متفرد فى مجالات السياسة والاقتصاد . وخاصة أن هناك قوة ناشئة لا يستهان بها وهى الصين التى بدأت تطور من نفسها لكى تكون مستعدة لمواجهة الهيمنة الأمريكية، وربما يكون هذا الدور الذى تستعد له الصين ـ ولم يصل إلى درجة نضجه النهائى بعد ـ هو الذى دفع الولايات المتحدة إلى الانقضاض على العالم الإسلامى،والتعجيل بضربه قبل التفرغ للصين، التى إن فكرت فى التحالف مع الإسلام ، كما تنبأ (هنتنجتون) تكون قد تحالفت مع الوهم، مع عالم مفرغ من قوته .

النظام العالمى الجديد (لبوش الابن) كما يقول الدكتور صلاح عز « يسعى إلى تعديل خريطة العالم العربى والإسلامى ، بعد القضاء على جميع حركات التحرر الإسلامى الرافضة للهيمنة الأمريكية » (١) .

---

(١) الأهرام ، مقال : أسامة بن لادن ذريعة إطلاق النظام العالمى الجديد يوم ٢٦/ ١٠/ ٢٠٠١م .

(٢)

مليشيات الكراهية الأمريكية أشد عنفًا وأكثر عتواً

في مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية ، الذى تصوره السينما الأمريكية ، وكل أجهزة الإعلام المؤثرة فى الرأى العام بأنه مجتمع الجمال والسعادة والحرية ، واحترام حقوق الإنسان ، تطمس حقائق تؤكد تناقضات كثيرة فى هذا المجتمع الذى يخفى ظاهرة معاناة طوائف كثيرة فيه من النفور والضيق والملل والتمرد . إن مجتمع الولايات المتحدة مجتمع بلا تاريخ ، بلا أرومة ، نشأ على جثث أجناس أخرى كانت تسكن الأرض قبل دخول ما سموا بالأمريكيين بعد ذلك . كما قام هذا المجتمع على استعباد أجناس إفريقية استقوا من إفريقيا وكانوا أحرارًا فى عمليات قهر لم يشهد التاريخ لها مثيلاً لإصلاح الأرض الجديدة وزراعتها ، دون أن تكون لهم حقوق المواطنة الكاملة أو المساواة يوما ما ، فى مجتمع نصّب البيض من أنفسهم سادة له بالقوة - فى ظل تفاوت طبقى اجتماعى ثم جاءت العولمة ليزداد الأغنياء - وهم خمس المجتمع الأمريكى (٢٠ ٪ من السكان) غنى ، ويزداد الفقراء فقرًا وبؤسًا وثقافة وتمردًا وحقدًا .

مجتمع الولايات المتحدة المتحدة الأمريكية لم يتخلص من سوءاته بعد ، وفى مثل هذا المجتمع تنمو النباتات الضارة ، ومنها نبتت جماعات الكراهية التى تبنت أفكارًا غريبة ، وأخذت تدعو إلى ضرورة إزاحة سلطة الدولة عن ظهر الفرد ، بل أخذت تدعو إلى سقوط الدولة الصنم .

وساعد على نمو هذه الجماعات التى تحولت إلى عصابات إرهابية أن مجتمع الولايات المتحدة مجتمع يقوم على الفردية ، ويمقت التضامن الاجتماعى ، وفيه يحتقر القوى الضعيف ، والرجل الأبيضُ الأسودَ ، وتسيطر عليه العنصرية التى باتت تعلو على إخفاقاته الاقتصادية والسياسية والثقافية .

وتتكون جماعات الكراهية هذه ، من كل طبقات المجتمع ، فبجانب تجار السلاح والمخدرات والسود والمغامرين والمتمردين من الضعفاء يوجد رافضون لعنصرية الدولة من النخبة المثقفة ، ومن العلماء المتخصصين فى الفيزياء والكيمياء

والحاسوب وأعلى وسائل التقنية. وتنتشر عصابات الكراهية فى ٢٤ ولاية أمريكية، وهى ذات طابع عسكرى ، وتعلن عن نفسها حامية للدستور الأمريكى، وتعد الحكومة المركزية ألد أعدائها ، ويفخر زعماؤها بأنهم استطاعوا اختراق أجهزة المخابرات الأمريكية ، وأن لديهم أسلحة كتلك التى يملكها الجيش الأمريكى نفسه وفى مقدمة هذه العصابات: جماعات (ميتشجان) و(تكساس) و(مونتانا) والرؤوس الحليقة ـ والأمر ـ وكلان ووتش ـ ولكن العجيب أن معظم هذه الجماعات الإرهابية من البيض العنصريين ، وكثير منهم من ضباط جيش سابقين ، وجنود أدوا الخدمة وشاركوا فى حروب مدمرة كحروب فيتنام والخليج . فحولتهم هذه الحروب إلى متهوسين بالحرب مثل : (تيموثى مكفاى) رأس منفذى عملية تفجير المركز التجارى فى (أوكلاهوما) فى ١٩ أبريل ١٩٩٥م ، وهو ينتمى إلى جماعة (ميتشجان) التى يبلغ عدد أعضائها ٢٠,٠٠٠ (عشرين ألفًا) التى أسسها (نورمان أولسن) ١٩٩٤م ضابط طيران سابق ، يمتلك متجرًا لبيع السلاح ، وتضم جماعته بجانب الضباط والجنود أصوليين متعصبين مسيحيين ويهود . ولقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز عن أحد قادتها قوله : ستشهد الولايات المتحدة الأمريكية حربًا ذات يوم ؛ لأن الحكومة تحكم سيطرتها على الأفراد الذين لا يسيطرون على حياتهمْ وأطفالهم وبيوتهم ... إننا نعد أنفسنا للدفاع عن حريتنا ، وإذا بقيت الأمور على ما هى عليه ، فإنه على مدى وقت قريب سيكون للرصاص نفس أهمية الذهب والفضة .

كما نشرت صحيفة (صنداى تلجراف) البريطانية فى ديسمبر ١٩٩٤م أن هذه العصابات ذات تنظيم متطرف ، وأن منها أعضاء ناشطين يعملون بوحدات بالجيش والأمن والقوات الخاصة ، بل إن كثيرين منهم حاربوا فى فيتنام والخليج ، وكانوا من بين القوات الخاصة ، ويتباهون بالنجاح الذى حققوه فى اختراق جهاز الاستخبارات الإلكترونى للحكومة الاتحادية ، وهم يستخدمون هذا النظام فى متابعة الحكومة الاتحادية وتدميرها حينما يحين الوقت [١] .

ولكن الغطرسة الأمريكية ـ مع علمها بنشاط هذه الجماعات الإرهابية المسلحة

---

(١) ارجع إلى مقال : ياسر ثابت : ميليشيات الكراهية فى أمريكا ، صحيفة صوت الأمة فى ٢٠٠١/٩/٢٦م .

بأحدث الأسلحة ـ لم توجه إليها اتهامًا ؛ لأن اتهامها لا يفيد فى أن يكون ذريعة إلى ضرب العالم الإسلامى ، وتصر على توجيه الاتهام لجهات إسلامية . وكما حدث بالأمس فقد تم تفجير المركز التجارى فى أوكلاهوما بواسطة عصابة ميتشجان، ووجه الاتهام إلى المسلمين وبلاد إسلامية فرضت عليها الولايات المتحدة عقوبات اقتصادية وسياسية ، وحكمت بالسجن مدى الحياة على شيخ ضرير لجأ إليها بتهمة التورط فى تفجيرات أوكلاهوما ، وهى الآن توجه الاتهام لتنظيم القاعدة الذى تزعم أنه منتشر ببلاد إسلامية عدة فى مقدمتها أفغانستان وباكستان وإيران ، كما أن له خيوطًا فى كشمير ولبنان والمملكة العربية السعودية والعراق ومصر . إن الولايات المتحدة تعمل من أجل إلصاق تهمة التورط فى الأعمال الإرهابية لضرب مصالح الغرب ذريعة إلى ضرب العالم الإسلامى ، ثم وضع قواعد أمريكية تطول بها الولايات المتحدة كل مكان بالعالم .

لا يوجد مسلم يدين بدين الإسلام ، ويفهم رسالة الإسلام الحقيقية يقبل إرهاب الآمنين أو يشجع عليه . ولكن فى الوقت نفسه يرى إحقاق الحق ولا يحيد عنه. كما أن المسلم يعلم علم اليقين أن من أحكام دينه: أن من روع آمنًا أو قتله، يكون محاربًا لله سبحانه وتعالى ويطبق عليه حد الحرابة . وأقله النفى من الأرض، وأشده القتل .

(٣)
مصر وأحداث الحادى عشر من سبتمبر

وفق الله تعالى الرئيس محمد حسنى مبارك ، فأعلن رفض مصر المشاركة فى التحالف الدولى الذى تتزعمه الولايات المتحدة ، ورفض مشاركة مصر فى حرب ضد أية دولة عربية أو إسلامية ، ووفقه الله تعالى فى المطالبة بعقد مؤتمر دولى تحت مظلة الأمم المتحدة لتحديد معنى الإرهاب ، وكيفية التصدى له ، وقد شعر المواطنون بمصر والعالم العربى والإسلامى بالارتياح لتصريحات الرئيس حفظه الله ورعاه . ثم إن هذا الموقف النبيل من الرئيس يستوجب من كل القوى المصرية مساندة الرئيس وتعضيده .

ولقد كان لتصريحات السيد الرئيس ـ سلّمه الله ـ صدى فى العالم العربى والإسلامى يتحدد فيما يلى :

١ ـ إيجاد تعريف محدد للإرهاب ، وتحديد من هو الإرهابى ؟

يجب أولاً الاتفاق على تعريف عام شامل للإرهاب، تتفق عليه الأمم جميعًا، وتحديد خطة دولية تحدد واجبات الدول فى القضاء عليه تحت إشراف الأمم المتحدة، حتى لا يكون هناك خلط بين مفهوم الإرهاب ، والمقاومة المشروعة للاحتلال كما هو الحال فى الأرض الفلسطينية ، أو التمييز العنصرى . وهذا يستدعى جذب الرأى العام العالمى لمعرفة الفرق بين الحق المشروع فى الكفاح ضد المحتل ، وبين الترويع والإرهاب. كما يستدعى البحث عن أسباب الإرهاب الدولى بالطريقة التى نادى بها الرئيس محمد حسنى مبارك وخاصة أن الدول العربية والإسلامية أيدت الرغبة فى أن تسهم فى هذه الجهود . مع تفنيد موقف الغرب خاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، التى تنفرد بالرأى فى تعريف الإرهاب بمعيارها الخاص التى تحشد له العالم، فهى ترى الإرهاب فى أفغانستان والعراق، وجماع فى باكستان وكشمير وإيران، وجماعة حماس فى فلسطين، وحزب

والولايات المتحدة لكونها أقوى دولة فى العالم
مهمة وتتحدى إرادة الأمم مثل طرح مبادر
أمام روسيا بموجب اتفاق وقع سن
بالرأى فى عدم التوقيع عل
فهى دائمة التلويح بسلاح
على حد قول الدكتور إبر
«إن توصيف الإرهاب
للإرهاب أكثر من م
الإرهابية الولايات
الإرهاب برجى ن
حربية» (١) ، ونتح
دون ما تحقيق

ويمكن التصدى للإرهاب أو احتوائه بقيام عدالة عالمية ، وبالحوار بين الشعوب على قدم المساواة، وليس بعمل عسكرى تستخدم فيه أحدث أسلحة الدمار الشامل.

٢ ـ وضع السلاح الذى يشعل نيران الحروب فى أماكن كثيرة من العالم ، على أن تقدم الدول القوية للدول الضعيفة الحلول العملية لمشكلات الأماكن الملتهبة بالحروب من العالم ، بسبب خلل التوازن فيما يتعلق بتوزيع الثروة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب . والمساعدة فى مجال التقنية ، وأن تكف الدول الغنية عن استغلال الثروات الخام فى الدول الضعيفة بالطريقة غير العادلة .

٣ ـ احترام الثقافة الغربية الثقافات الأخرى غير الغربية . والكف من مطالبة الشعوب غير الغربية بأخذ ثقافة الرجل الأبيض بطريقة قسرية ، بالصورة التى عبر عنها (فوكوياما) فى (نهاية التاريخ) إذ رأى فرض ثقافة الديمقراطية الرأسمالية الليبرالية الأمريكية على العالم ولو بالقوة ، وأن نكف الدول الغربية عن بث الأقوال المعسولة الخادعة فى الشعوب الضعيفة ، بل يجب عليها إيجاد الحلول ـلية الصحيحة لتقدم هذه الشعوب .

ـة فلسطين ، والاعتراف بدولة فلسطين دولة مستقلة لها جميع
قف ممارسة الإرهاب الصهيونى على المواطنين
ـدم بيوتهم وإحراقها . وأن تكون الدول
ذلك ، ووضع تصريح (جورج
، أفغانستان بأهمية إقامة
ـع الجد ، لا الخداع ـ
ـا صرّح بالتصريح نفسه
شامير) و(رابين)
، وإذا كان الولد
كان الابن صادقًا

الأمريكية بأن
لوجود

الإرهاب الذى يتعرض له الشعب الفلسطينى بلا جريرة منذ ١٠٠ سنة . (منذ قرن كامل) وما تولَّد عنه من عنف صدر من عناصر نشطة رافضة ترى أن القضية الفلسطينية قضيتهم الأساسية . كما ترى سيادة الظلم الإسرائيلى وغياب العدل الأمريكى .

وكما هو معروف فإن موقف الولايات المتحدة من قضية فلسطين ، وتأييدها المطلق لإسرائيل، قد تسبب فى خلق بيئة نبت فيها العنف وترعرع فى الفلسطينيين الذين لم يجدوا وسيلة أخرى غير الكفاح لتحرير وطنهم المحتل من القوى الصهيونية .

٦ ـ وضع آلية ضرورة التأكيد على عدم الخلط بين الإسلام والإرهاب بتقديم الصورة الصحيحة للإسلام ، وستكون المعرفة الصحيحة بالإسلام بداية حقيقية لحوار الحضارات ، دون أن يستهدف قومًا بعينهم ، أو دين بعينه ، أو حضارة بعينها أو ثقافة ما . وتصحيح معنى الإرهاب الذى ترعرع فى العالم الغربى ، وتبيان كيف أنه مشكلة غربية بالدرجة الأولى .

٧ ـ التأكيد على ضرورة التضامن العربى ، ووحدة الصف الإسلامى ، وأن يكون متميزًا فى هذه المرحلة ، فلا يكون شرقيًا ولا غربيًا . لقد كنا منذ الخمسينيات طرفًا فى الحرب الباردة بتحالف تم مع الشرق . والآن فإن وحدة الصف لا يجب أن تفرض علينا أن نتبع قسرًا ثقافة الغرب أو أحلافه إننا كما يؤكد د. مصطفى الفقى : « نرى ضرورة البعد عن قبول فلسفة الاستسلام ، فنحن ننتمى للحضارة العربية الإسلامية التى تواصلت تاريخيًا ؛ لأن الإسلام دين ودنيا وسياسة وحياة وفكر ، ولا يمكن أن تنتزع تأثيراته فى المسلمين . وبالتالى يجب أن نقاوم ما هو مطروح ، ولأن الحضارة الإسلامية حضارة تواصل ، فهى ليست حضارة منكفئة ، أو منعزلة ، وهم يريدون تصوير الإسلام بأنه منعزل وإظلامى .

والعولمة امتداد للظاهرة الاستعمارية الغربية ، بل آخر تطور للاستعمار ، حيث يلتهم الأقوى الأضعف بمسميات براقة مثل سقوط الحواجز ، وانتهاء الحدود وعالمية الإنسان ، وكوكبية العالم » (١) .

---

(١) ارجع إلى ندوة : نحو عالم متعدد الأطراف قائم على العدالة والإنصاف ، الأهرام ٢٦/ ١٠/ ٢٠٠١م .

العرب والمسلمون أبناء حضارة عظمى ، ويجب أن يعوا دورهم فى تواصل الحضارة ، وعليهم ألا يذوبوا فى ثقافة الغرب أو الشرق ، كما لا يجب عليهم أن يفرضوا على أنفسهم العزلة . بل يجب عليهم المشاركة الإيجابية فى إثراء ثقافة البشر بتعريف العالم بهم ، بعقد المؤتمرات الدولية فى حوار الحضارات ، لا صدام الحضارات أو حرب الحضارات . كما تنبأ (هنتنجتون) وكما تفعل الولايات المتحدة فى العراق وأفغانستان. ولابد أن يكون تحرك المسلمين صحيحًا على الساحة الدولية ، وأن تكون أهدافهم واضحة فى الدعوة إلى معالجة صحيحة للتصدى لظاهرة الإرهاب ، وتحديد موقف الإسلام منه . والحرص على أن يكون لنا رأى يبين للعالم التعريف الصحيح للإرهاب، ولا نترك دولة واحدة مهما كانت قوتها تنفرد بالرأى ، وتعرف الإرهاب بما تراه موافقًا لهواها ، وتفرضه على الآخرين .

خاتمة

شبحا (هنتنجتون) و(فوكوياما) يعودان فى ديسمبر ٢٠٠١

فى كتاب (صدام الحضارات) رأى (هنتنجتون) أن حدود عالم الإسلام دموية ، سواء كانت هذه الدموية بدمائها المهراقة بين مسلمين ومسلمين ، أم بين مسلمين وغير مسلمين ، فالإسلام بزعم (هنتنجتون) عدوانى ، وأن عدوانيته تنبعث من عقيدته .

بدا الأمر وكأن (صمويل هنتنجتون) يوم ألف كتابه (صدام الحضارات) يحذر الغرب ، خاصة الولايات المتحدة الأمريكية من عدوانية الإسلام ودمويته ، كان ذلك فى بداية التسعينيات بعد إعلان نهاية الاتحاد السوفيتى ، وبعد نحو من عقد يعود (هنتنجتون) نفسه ليحذر العالم الغربى مرة ثانية ، فيكتب مقالاً فى مجلة النيوزويك العدد السنوى (ديسمبر ٢٠٠١ ـ فبراير ٢٠٠٢م) بعنوان : (عصر حروب المسلمين) وفى هذا المقال كرر زعمه بأن السياسة الكونية المعاصرة تتمثل فى (عصر حروب المسلمين) سواء مع بعضهم البعض أو مع بعضهم والآخرين ؛ وأخذ يعدد حروب المسلمين فى العشرين سنة الأخيرة على الوجه التالى :

١ ـ فى سنة ١٩٨١م غزت العراق إيران ، وكانت حربًا طاحنة قتل فيها نصف مليون نسمة ، بالإضافة إلى مئات الآلاف من الجرحى والأسرى .

٢ ـ وفى آخر العقد نفسه سنة ١٩٨٩م تفجرت مقاومة إسلامية عنيفة ، أخذت طابع الجهاد الإسلامى فى أفغانستان ، انتهت بإرغام القوات السوفيتية على الانسحاب وتحرير أرض أفغانستان .

٣ ـ وفى سنة ١٩٩٠م اجتاحت العراق الكويت ، وتدخلت الولايات المتحدة لإنقاذ مصالحها فى الكويت ، وألحقت الهزيمة الساحقة بالعراق ، ثم أخذت فى

العمل المتواصل من أجل تجريدها من السلاح .

٤ ـ وفى التسعينيات اندلعت الحروب بين المسلمين ، وغير المسلمين فى : البوسنة، وكوسوفا، ومقدونيا، والشيشان، وأذربيجان، وطاجيكستان ، وكشمير، والهند، والفلبين، وإندونيسيا (تيمور الشرقية) وفلسطين ، والسودان، ونيجيريا، وموريتانيا.

لكن (هنتنجتون) لم يذكر أن كل هذه الحروب كانت حروبًا عرقية وعنصرية فرضت على المسلمين، وكانت تساعد على إشعالها قوى جبارة تفوق قوة المسلمين. ولكنه يقول : « ولقد كان العنصر الأساسى من المشاركين فى هذه الحرب والصراعات يتمثل فى المقاتلين المجاهدين ممن اشتركوا فى الحرب الأفغانية ، ومن المنظمات الإسلامية من دول إسلامية عديدة عبر العالم ، وفى منتصف التسعينيات كان نصف عدد الصراعات العرقية فى العالم صراعات بين المسلمين ممن يحاربون بعضهم البعض ، أو يحاربون غير المسلمين » (١) .

وبمنطق (صمويل هنتنجتون) : ما دامت أفغانستان فى حربها ضد السوفييت قد فرّخت هذا الكم الهائل من المجاهدين المحاربين باسم الإسلام فى كل مكان ، فإنها تستحق العقاب الرادع ، ولو أدى ذلك إلى إفنائها .

(هنتنجتون) وأمثاله من منظرى السياسة الأمريكية ، يمثلون جزءًا من قاعدة الحكم فى الولايات المتحدة تكتمل برجال: الإدارة الحاكمة والهيئات التشريعية، والاستخبارات، وصناع سلاح الدمار الشامل (الاستثنائى) ورجال الأصولية الاقتصادية المعولمة ، هؤلاء هم الذين يمثلون القاعدة فى الديمقراطية الرأسمالية الأمريكية ، وهم الذين يحركون العقل الأمريكى .

بعد حرب العراق وإيران ، وحرب العراق والكويت ، وأفغانستان والاتحاد السوفيتى وبعد انهيار هذا الأخير وتفككه ، ثم ركونه إلى الظل ، وتواريه وضعفه من أن يكون القوة العظمى الثانية المناوئة للولايات المتحدة ، وبعد انشغال أوربا ببناء كيانها السياسى والاقتصادى الذى دمرته الحرب العالمية الثانية ، حدث فراغ

---

(١) صمويل هنتنجتون ـ مقال (عصر حروب المسلمين) نشر فى جريدة الأهرام ، ص ١٢ فى ٢٢/١٢/٢٠٠١م .

استراتيجى عالمى ، نشطت فيه الولايات المتحدة الغنية العفية منفردة ، ومن ثم أخذت تبحث عن محرك عالمى يزيد من نشاطها وقوتها، واختارت العالم الإسلامى لملء الفراغ الذى كان يملؤه الاتحاد السوفيتى، ورأت فيه عالمًا يجب تنصيبه خصمًا جديدًا يتلاءم مع المرحلة الراهنة للحضارة الأمريكية ، وكان لديها الأسباب والمبررات :

أولاً : لأن العالم الإسلامى لا يزال يملك ثروة نفطية هائلة ، تريد الولايات المتحدة أن تستفرغها ، قبل التحول إلى نفط بحر قزوين الذى تعد لاستغلاله من الآن، قبل الاستيلاء عليه، بعد تفريغ الآبار العربية والإسلامية فى منطقة الخليج.

ثانيًا : لأن عالم الإسلام خصم ثرى بتراثه الثقافى ، وأنه يلف العالم القديم كله بحزام حضارى ، ثم بدأ يغزو العالم الجديد بهذا الموروث الحضارى بعد أن صار فى كل العالم مسلمون مستوطنون يحملون تراثًا ثقافيًا يؤكد كرم محتدهم الحضارى .

ثالثًا : هناك إحساس نفسى بأهمية قهر هذا العالم والتفوق عليه حضاريًا وثقافيًا وأخلاقيًا ؛ لأنه حقق نصرًا ثقافيًا وعلميًا على الغرب ، وتفوق عليه لعدة قرون خلت.

أضف إلى ذلك أن الولايات المتحدة التى يحركها الفكر البرجماتى الذرائعى وجدت نفسها تكسب كل جولاتها السياسية والعسكرية والاقتصادية منذ منتصف القرن العشرين، سواء كان ذلك فى معاركها مع الآخرين ، أو فى معارك الآخرين مع بعضهم البعض ، كما حدث فى الحرب العالمية الثانية ، وفى حرب العراق / إيران فقد باعت السلاح لكلا الفريقين بنفسها ، أو عن طريق وسطاء (إسرائيل) وكسبت بلايين الدولارات ، وكسبت فوق ذلك إضعاف دولتين تنظر إليهما باعتبارهما عدوين لدودين لها ، وتعتبرهما محور الشر ، وفى حرب الاتحاد السوفيتى / أفغانستان كسبت هزيمة الاتحاد السوفيتى أكبر خصومها العالميين ، وبالتالى كسبت نفوذًا جديدًا بالعالم بدون ثمن ، وبتدخلها فى حرب العراق / الكويت صنعت بيديها وعلى عينيها النظام العالمى الجديد ، أحادى الجانب ، وبعد كل هذه المكاسب أخذ كبار المفكرين الأمريكيين من المشاركين فى صنع القرار

يعرّفون الولايات المتحدة بأنها الدولة العظمى الوحيدة فى العالم الجديرة بأن توصف بأنها قوة عظمى منفردة .

فى خضم هذه المشاعر الأمريكية ، لم تعد أية ثقافة أو حضارة أو كيان سياسى مهيأ للصدام مع حضارة الغرب ، إلا الإسلام باعتباره كما اعتقد المنظرون الأمريكيون وفى مقدمتهم (صمويل هنتنجتون) و(فرانسيس فوكوياما) الخطر الأكبر أمام الديمقراطية الغربية ، تأويل ذلك ـ بحسب زعمهم ـ أن الديمقراطية الرأسمالية الأمريكية الحرة ـ على وجه التحديد ـ تنشد العالمية ، إن لم تكن العالمية ذاتها من وجهة نظر (فرانسيس فوكوياما) فى كتابه (نهاية التاريخ وخاتم البشر) فقد ردد (فرانسيس فوكوياما) ـ الصوت الأمريكى الذى يرى أن ديمقراطية بلاده يجب أن تسود العالم ـ أن على كل النظم السياسية والاقتصادية الأخرى أن تتوقف، لكى تأخذ الديمقراطية الرأسمالية الأمريكية الحرة المكان الأوحد فى العالم كله ـ كما أن الصوت الأمريكى نفسه يرى وجوب أن تعم هذه الديمقراطية العالم ولو بالقوة . فإذا عرفنا كما صرح (فوكوياما) أن الإسلام عالمى التوجه، وأنه جاء للناس جميعًا ، فبحسب مزاعم كل من (فوكوياما) و(هنتنجتون) فإن الصدام بين الإسلام ، والديمقراطية الأمريكية حتمى . بل إن (فوكوياما) على وجه الخصوص يرى أن الإسلام يرفض (الليبرالية) الحرية التى تقدسها الحضارة الغربية ، خاصة فيما يتعلق بحرية النساء المطلقة ، والحريات الجنسية التى تتحفظ حيالها الثقافية الإسلامية ، وهو الأمر الخطير الذى تجب مواجهته (١) .

هنا يطرح السؤال التالى : هل أمثال (فوكوياما) و(هنتنجتون) لا يفهمون الإسلام ؟ أم أن سطوة المصالح الأمريكية والحرص عليها تقف دون فهم صحيح للإسلام ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فإن المسلمين ـ بوعى من تعاليم دينهم ـ لا

---

(١) توجد شبكات عمل نسوية تنطلق من الولايات المتحدة الأمريكية لتصبح متعدية القومية تطالب بتمكين المرأة من: إشراك الرجل فى المسؤولية عن السلوك الجنسى ، والعناية بالرضع ، وإلغاء التشريعات التمييزية بزعمهن فى الميراث والطلاق ، وتفسير آيات القرآن الكريم المتعلقة بالنساء بواسطة الجمعيات النسوية .

اقرأ التفاصيل فى بحث للدكتورة (فالنتين مقدم) أستاذة علم الاجتماع بالولايات المتحدة الأمريكية ـ من أصل إيرانى : شبكات العمل النسوية متعدية الجنسية ـ مجلة الثقافة العالمية ، العدد (١٠٥) ، الكويت ، مارس ٢٠٠١م ، ص ١٣٢ ـ ١٥٥ .

يتدخلون فى شؤون الآخرين ، ما داموا لم ينبذوا إليهم بما يسىء إلى عقيدتهم أو إليهم . ولهذا يتعامل المسلمون مع غيرهم بالتى هى أحسن ، فقد أمرهم القرآن بأن يقولوا للناس حسنًا ، وأن يجادلوهم ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

ولكن (فوكوياما) فى كتاب (نهاية التاريخ وخاتم البشر) يرى ضرورة وقوف الغرب فى مواجهة الإسلام بحزم ، خوفًا من انتشاره ، لما له من جاذبية عظمى؛ لأنه نظام متماسك، ولما تمثل شريعته ومبادئه من عدل سياسى واجتماعى، يمكن أن تكون له خطورة على انتشار القيم الديمقراطية ، ورأسمالية السوق ، وكل قيم الحضارة الغربية.

إن مزاعم (فوكوياما) غير صحيحة ؛ لأن الإسلام لا يناهض الحرية ـ ولأن الناس ـ كما قال عمر ﷺ من موضع الحكم : (قد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا) .

ولا يأخذ التشريع الإسلامى موقفًا مناهضًا لحرية السوق ما دامت منضبطة بضوابط شرعية ، محققة للعدالة الاجتماعية بين الناس ، وضامنة لحقوق الفقراء فيها ، التى هى حقوق الله فى الوقت نفسه فى تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعى ؛ لأن لله حقًا فى كسب الأغنياء يرد على فقرائهم . وكان كبار الصحابة ﷺ من التجار ، فقد كان أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ تاجرًا ، لم يترك التجارة إلا عندما ولى أمر المسلمين ، وكان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ﷺ من أكبر تجار قريش . وقد دعما الإسلام والمسلمين بأموالهما .

إن هناك مواطن لقاء بين الحضارات والثقافات يمكن أن تحقق السعادة للبشرية، بشرط أن يحترم كل أهل حضارة الآخرين فى مواطن الاختلاف . ما دامت لا تهددهم بالخطر .

الحضارة الإسلامية تقوم على احترام الآخر ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، الآية تؤكد على وحدة الأصل الإنسانى ، وأن لا فضل لعرق على عرق أو لون ، أو جنس على جنس آخر . كما تؤكد على أن التعارض شىء مهم، وهو احترام ما عند الآخر ، بل تدعو إلى معرفته ومعرفة ثقافته ، والأخذ بما ينفع منها ، وبذلك تنتفى عوامل الصدام الإنسانى بين الناس جميعًا .

إن الاختلاف سنة من سنن الخلق ، فكما أن التعارف مهم لمعرفة ما عند الآخرين من خير ونفع ، وتبادل المصالح والمقاصد ، فإن الاختلاف كذلك من سنن الخلق ، لأن ذلك يثرى الفكر، ويذكى الإبداع ويبرز الجمال الإنسانى ، ومن ثم فإن الإسلام لا يفرض عقيدته أو شريعته أو ثقافته فرضًا على غير المسلمين. قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [المائدة : ٤٨] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [هود : ١١٨] ، وترك للناس حرية العقيدة ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

من كل ما سبق فإن الإسلام لا يرى حتمية الصراع أو الصدام بين الحضارات، إنما يقبل التدافع الذى يؤدى إلى التنافس المثمر بين الأمم لمصلحة الناس جميعًا قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة] .

بهذه الأصول الإسلامية تعايشت الحضارة الإسلامية مع كل الحضارات ، ولم تسع إلى القضاء على أية حضارة ، خاصة عندما كانت الأمة الإسلامية أقوى الأمم وأعظمها ثقافة ومدنية ، بل إن المسلمين وهم فى أعلى حالات قوتهم أخذوا من الحضارات الأخرى وأخصبوها وزادوا عليها ، وبثوها فى العالم .

لكن (صمويل هنتنجتون) بعد كتاب (صدام الحضارات) يفاجئنا بمقال : (عصر حروب المسلمين) وهذا المقال الأخير بمثابة ملخص لكتاب (صدام الحضارات) كأنه فى مقاله هذا يريد أن يقول للإدارة الأمريكية ولكل حلفائها فى الغرب : ألم أقل لكم من هم المسلمون قبل حوادث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م ؟! مع أن الجناة الإرهابيين لا يزالون مجهولين ، وقد يكونون من غير المسلمين ، فالولايات المتحدة لم تصل إلى معرفة من هم الجناة بعد ، ولو عرفت ما سكتت ، خاصة إذا كانوا من المسلمين .

هنتنجتون يكرر مختصر أفكاره عن ميل المسلمين للحرب فى مقال (عصر حروب المسلمين) وهو نفسه مطول أفكاره التى فصلها فى كتاب (صدام الحضارات) وفيها يحدد جذور حب المسلمين للحرب فى :

١ ـ «فى أسباب أكثر عمومية كامنة فى العقيدة الإسلامية ذاتها، وفى القناعات الإيمانية فى الإسلام ، فإن هذه العقيدة وتلك القناعات بزعمه مثلها فى ذلك مثل ماضى المسيحية (عصر الحروب الدينية ، ومحاكم التفتيش) حيث يدأب معتنقو هذا الدين على أن يستخدموا هذه العقائد ، وهذه القناعات الإيمانية لتبرير حالة السلام ، أو حالة الحرب كما يشاؤون » (١) . أى أنهم بزعمه قادرون على تأويل نصوصهم الدينية تأويلاً ذرائعيًا تبريريًا ، بحسب الحالات التى يريدونها فى حالى تبرير السلام أو تبرير الحرب .

٢ ـ إن الذى يوقع المسلمين فى أخطار الحروب بزعمه عجز المسلمين عن اللحاق بالغرب فى مجالات التحديث والعولمة . ولهذا كان انبعاث الحركات الإسلامية بحسب رأيه ، حالة من حالات رد الفعل ، لمواجهة احتياجات المسلمين الذين تخلفوا فى التعليم والتصنيع والزراعة ، والذين تزايد عددهم بجانب تخلفهم بشكل انفجار سكانى، مما جعلهم يعانون من البطالة التى تدعم بدورها الاندفاع إلى الإرهاب .

٣ ـ الانفجار السكانى فى العالم الإسلامى هو القنبلة الديموجرافية الموقوتة فقد أدت « زيادة السكان فى المجتمعات الإسلامية التى أنتجت زيادة ملحوظة فى عدد الشباب فى عمر من ١٦ سنة إلى ٣٠ سنة ، وإن الذكور فى مثل هذه الأعمار هم الذين ينخرطون بشكل رئيسى فى أعمال العنف ، فى كل المجتمعات التى يوجدون فيها بأعداد وفيرة » (٢) .

٤ ـ حقد العالم الإسلامى تجاه الغرب ـ بزعمه ـ فإنه عبر العالم الإسلامى كله ـ خاصة بين العرب المسلمين ـ يوجد إحساس قوى ملىء بالحزن والاستياء ، والحسد والعدوانية تجاه الغرب وثروته ، وقوته وثقافته وتمدنه ، وتقدمه .

٥ ـ ويضيف (هنتنجتون) للأسباب السابقة ، ما أطلق عليه : الانقسامات الدينية والعرقية والسياسية والثقافية فى العالم الإسلامى . ويضرب مثالاً بالخلاف بين مذهبى السنة والشيعة ، خاصة فى المملكة العربية السعودية وإيران ، ويزعم أن الدولتين تتنافسان « فيما بينهما لدعم نوع الإسلام الذى يريده كل منهما » (٣) .

(١ ـ ٣) من مقال هنتنجتون (عصر حروب المسلمين) المنشور بالأهرام فى ٢٢/١٢/٢٠٠١م .

ألا يعرف (هنتنجتون) أن الإسلام واحد ، وإنما الاختلاف فى فهم أمور خلافية فى الفروع ، وليس فى الأصول ، ثم إن حربا لم تقم بين المملكة العربية السعودية - وهى سنية - وبين إيران الشيعية ، وإنما نشبت حرب ضروس دبرتها المخابرات الأمريكية بين دولتين من العالم الإسلامى أغلب سكانهما من الشيعة بأسلحة أمريكية هما : إيران والعراق .

٦ - ويحاول (صمويل هنتنجتون) فى مقاله - كما فعل فى كتابه - أن يتظاهر بالحيدة فيقول : إن عاملاً إمبرياليًا يضاف إلى هذه العوامل أدى إلى انبعاث حالة العنف الإسلامى ، فالمسلمون لم ينسوا الهيمنة الإمبريالية واحتلال أراضيهم بقوات احتلال غربية لمدة قرن كامل ويزيد ، واستمرار القوى الإمبريالية خاصة إنجلترا والولايات المتحدة فى اتخاذ سياسات عدوانية للعالم الإسلامى ، مثلما حدث فى إيران والعراق ، مع استمرار السياسات الحميمية ، والعلاقات الودية مع إسرائيل (١) .

ومثل هذه العبارات - فى كتابات (هنتنجتون) تأتى متخفية على استحياء ذرًا للرماد فى العيون ، حتى يوصف بالحيدة ، وما هو بالمحايد ؛ لأن كتاب (صدام الحضارات) فى طبعته العربية يزيد على الخمسمائة صفحة من القطع الكبير ، وتتوه فى طياته مثل هذه العبارات ، التى لو جمعت ما سودت صفحة واحدة .

ومع ذلك فإن (هنتنجتون) وهو يتظاهر بالحيدة ، لم يستطع تبرير التحيز الأمريكى لإسرائيل ، وهو انحياز ضار بالعرب والمسلمين ، كما لم يشر إلى العدوان الإسرائيلى اليومى على الفلسطينيين العزل بمباركة الولايات المتحدة .

وعندما يركز (هنتنجتون) هجومه على دولتين إسلاميتين لهما وزن كبير فى العالم الإسلامى - السعودية وإيران - وكيف أمدًا مسلمين بالمال فى مواقع أوربية مثل (البوسنة)، لم يذكر أن المسلمين فى هذه الدولة الأوربية كانوا ضحايا للتمييز العنصرى، والتطهير العرقى على يد الصرب الذين كانوا يتلقون المساعدات العسكرية والمالية من روسيا وأوربا الشرقية ، على عين الولايات المتحدة وسمعها وبصرها ، ويشهد المفكر الأيرلندى: (فريد هاليداى) فى كتابه (الإسلام وخرافة المواجهة)

---

(١) من مقال هنتنجتون (عصر حروب المسلمين) المنشور بالأهرام ٢٠٠١/١٢/٢٢م .

سنة ١٩٩٧م على ألوان التمييز العنصرى ضد المسلمين في كل قارات العالم .

إن الأسباب التى ذكرها هنتنجتون فى كتابه (صدام الحضارات) ومقاله (عصر حروب المسلمين) هى من وجهة نظره أسباب انتشار العنف الذى يتورط فيه المسلمون. وهذه الأسباب نفسها تدفع (هنتنجتون) لطرح السؤال التالى : هل يمكن أن يتم حشد تلك العوامل لتشكل صدامًا حضاريًا عنيفًا بين الإسلام والغرب ؟ وهل من الممكن أن تسبب صدامًا بين الإسلام والحضارات الأخرى ؟

يجيب (هنتنجتون) نفسه على السؤال ، ولكن إجابته تأتى فى صورة تقرير مبتسر يحول شك (هنتنجتون) ومزاعمه المحتملة فى كتاب (صدام الحضارات) باحتمال صدام محتمل بين الإسلام والحضارة الغربية كأنه يقين بعد حادث الحادى عشر من سبتمبر بقوله: « إن هذا الأمر يعد بوضوح هدف أسامة بن لادن ، فلقد أعلن حربًا مقدسة ضد الولايات المتحدة ، وحث المسلمين على قتل الأمريكيين دون ما هوادة أو تفرقة ، وحاول جاهدًا أن يقوم بتعبئة المسلمين فى كل مكان من أجل تفعيل جهاده ، ومن الناحية الأخرى فلقد أعلنت الولايات المتحدة حربًا كونية على الإرهاب » .

«إن عناصر صدام الحضارات متوافرة، وردود الفعل تجاه أحداث الحادى عشر من سبتمبر ، وكذلك رد الفعل الأمريكى تمت فى حدود الخطوط والأطر الحضارية [لصدام الحضارات] بشكل صارم » (١) .

إذن بالمفهوم الأمريكى تحققت نبوءة لعبة (صدام الحضارات) كما وضعت تمامًا فى أجندة السياسة الأمريكية الخارجية، وكانت هذه الفقرة الأخيرة التى تحققت فيها النبوءة ـ التى وردت فى مقال (عصر حروب المسلمين) ـ هى الإضافة الوحيدة لمضمون كتاب (صدام الحضارات) ، وكأنّ (هنتنجتون) أراد أن يبسط فى كتاب (صدام الحضارات) النظرية وبراهينها ، ويرجئ النتيجة ـ حتى يأتى حدث يوافقها ـ لكى تكون نتيجة مبررة، وكان الحدث الجلل فى الحادى عشر من سبتمبر ذريعة لها، وذريعة لضرب العالم الإسلامى تبدأ من أفغانستان . إن الحوادث مرتبة بدقة فى (الأجندة الأمريكية) وينتظر كل حدث دوره للظهور فى الوقت المناسب .

---

(١) من مقال هنتنجتون (عصر حروب المسلمين) المنشور بالأهرام ٢٢/١٢/٢٠٠١م .

إن الغرب ـ والولايات المتحدة بصفة خاصة لم ينظروا لصحوة العالم الإسلامى على أنها صياغة إسلامية لحركة وطنية . كذلك يخطئ العلمانيون الذين تدور عقولهم فى فلك التفكير الغربى ، لأنهم لم ينظروا إليها فى إطار السياق العام للحركات الوطنية فى العالم الإسلامى ، ولم ينظروا إلى التعبير الوطنى الذى تحمله هذه الحركات ، بل نظروا إليها بوصفها تعبيراً ثقافيًا ، أكثر منه وطنيًا يذود عن الوطن فى مواجهة العدو الأساسى المتمثل فى الاستعمار ، والإمبريالية : الغربية / الأمريكية [1] والصهيونية.

إن العالم الإسلامى يحيط بالعالم القديم فى آسيا وإفريقيا وأوربا ، وفى القرن العشرين بدأ الإسلام يغزو العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة ، ويقدر عدد المسلمين فى الولايات المتحدة ، وكندا ، وأمريكا الجنوبية بأكثر من عشرة ملايين نسمة . والغرب/ الولايات المتحدة يخشون أن يسيطر الإسلام على العالم بحزام متين ، فهو فى العالم القديم يمتد بعد إفريقيا إلى غرب آسيا ، إلى تركيا والجزيرة العربية وإيران ويمتد إلى الهند وباكستان وأفغانستان ، وجمهوريات وسط آسيا وغرب الصين ، وهذا الحزام القوى الطويل العريض يمتلك ناصية أهم الطرق البحرية والجوية فى العالم ، وغنى بالطاقة والمواد الأولية والمحاصيل ، ولو اتفق أهله على صيغة موحدة فيما بينهم صاروا أقوى تأثيراً فى العالم ، هكذا ينظر إليهم الغرب / الولايات المتحدة . وهو ما يعمل له الغرب بقيادة الولايات المتحدة ألف حساب ، ويعملون بالتالى من أجل إضعافه ، ومحاصرته فى وسط آسيا وغربها بقواعدها فى باكستان وأفغانستان . وفى إفريقيا فى جنوب السودان ، وفى القرن الإفريقى فى الصومال، بالتحكم فى حركة التفاعلات الداخلية بالصومال ، بجانب دوريات كثيفة لسفن الأسطول الأمريكى لمراقبة السواحل الصومالية ، وبالحشود الأثيوبية على طول الحدود المشتركة مع الصومال .

أما الغرب الأسيوى العربى ، فإن الوجود الصهيونى الفاشى / النازى كفيل بأن يعوق مسيرة التقدم فيه ، كما يريد الغرب / الولايات المتحدة الأمريكية .

ليكتب (فوكوياما) و(هنتنجتون) وينظران لضرب كل القوى المناوئة لسياسة

---

(١) انظر : المستشار طارق البشرى : حوار معه فى مجلة الشاهد ، ص ٤١ ، عدد فبراير ٢٠٠٢م .

الولايات المتحدة الأمريكية ، وتدمير أى شعب ، أيا كانت الحضارة التى ينتمى إليها ، حتى ولو كان صديقًا للولايات المتحدة بالمفهوم البرجماتى ، حيث تنتهى الصداقة يوم تنعدم المصلحة (١) .

إن الدور الآن على بلاد المسلمين ، وكان قبلها على اليابان ، وقد يكون بعدها على الصين أو الهند ، بشرط أن تظل القوة الإمبريالية الغربية عفية قوية تجنى الثمار ، وسيكون رد الفعل الأمريكى بحسب تعبير أحد المنظرين الأمريكيين قد تم فى حدود الخطوط والأطر الحضارية بشكل صارم .

إن الولايات المتحدة قدمت توقيت الصدام مع الحضارة الإسلامية ، على الصدام مع الحضارتين الكونفوشية والهندوكية ؛ لأن بلاد المسلمين فى حاضرها أضعف من كل من هاتين الحضارتين ، وقد يكون الصدام القادم كما يتنبأ (صمويل هنتنجتون) فى مقاله (عصر حروب المسلمين) فى سنة ٢٠٢٠م مع حضارة أخرى، وفى ذلك الحين تكون الولايات المتحدة قد استولت على آخر قطرة من النفط العربى . يقول (هنتنجتون) : «وإنه بحلول سنة ٢٠٢٠م سوف تنخفض حدة الزيادة فى عدد فئة الشباب فى العالم الإسلامى ، وبالتالى فإن (عصر حروب المسلمين) يختفى فى أدراج التاريخ ، وتتبعه حقبة جديدة تهيمن عليها أشكال أخرى من العنف بين شعوب الإسلام .

وبهذه الفقرة ختم (هنتنجتون) مقال (عصر حروب المسلمين) .

ويؤكد نبوءة (هنتنجتون) نبوءات غربية أخرى مثل ما جاء فى كتاب صدر سنة ١٩٩٦م بعنوان (الحرب المقبلة) لمؤلفيه : (كاسبر وينبرجر) و(بيتر شويتزر) وما جاء بهذا الكتاب أشبه ما يكون بالتحذير والتحريض فى آن واحد ، فمؤلفاه

---

(١) تم تدمير شعب أفغانستان وتمزيقه ثمنًا لتحقيق مصالح الولايات المتحدة مرتين :

الأولى : عندما هزم الاتحاد السوفيتى فى حرب أخذت طابعًا إسلاميًا ، فمهد لتفكيكه وإنهاء الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، التى لم تستطع الولايات المتحدة ومعها حلف الناتو أن تقضى عليها فى خلال نصف قرن .

والمرة الثانية : عندما بحثت الولايات المتحدة عن ذريعة لضرب العالم الإسلامى ، وبدأت بأفغانستان معقل المجاهدين المسلمين الذين انتهى دورهم بهزيمة الاتحاد السوفيتى ، وتحولوا برأى الولايات المتحدة إلى إرهابيين مسلمين. وهذا يؤكد اختفاء جميع الدوافع الأخلاقية عند الولايات المتحدة ، لتحل محلها الدوافع الذرائعية النفعية .

يريان أن الولايات المتحدة ستكون مضطرة للدخول فى حروب مقبلة ، من أجل تحقيق مصالحها لدى دول غير إسلامية ، والغريب أن يحدد الكتاب مواقيت افتراضية ، وأسلحة متقدمة ، كما يحدد الدول التى ستكون ميادين الحروب المقبلة مع الولايات المتحدة . وهى :

١ ـ حرب للتدخل بين كوريا الشمالية ، والصين .

٢ ـ حرب ضد إيران .

٣ ـ حرب ضد المكسيك .

٤ ـ حرب ضد روسيا فى سنة ٢٠٠٦م .

٥ ـ حرب ضد اليابان فى سنة ٢٠٠٧م .

وللكتاب أهمية بالغة لأن مؤلفيه : (كاسبر وينبرجر) كان وزيرًا أسبق لوزارة الحربية الأمريكية . و(بيتر شويتزر) يعد واحدًا من أبرز خبراء المستقبليات فى الغرب.

وإذا كان هذا مما يعتد به ، فإن العصر (عصر الحروب الأمريكية) وهندسة النزاعات وتفعيلها ، ولا يمكن أن يكون الدافع حينئذ صدام حضارات ، أو صراع أديان وثقافات بقدر ما هو مدفوع بهندسة العولمة وخططها الفاعلة لمصلحة الشركات فى الإمبراطورية الأمريكية ، من أجل ترويج السلاح المدمر وتسويقه عالميًا فى آخر أشكال الأصولية الاقتصادية الساعية إلى الحروب الشاملة ، بدون وعى لما يمكن أن تسببه من تعاسة للبشرية ، يوم لن يتردد راعى البقر الأمريكى فى إلقاء قنابله النووية فوق أى أرض يريد اغتصابها ، كما فعل من قبل فى هيروشيما ونجازاكى ، ولكنها فى المرة المقبلة ستكون أكثر تدميرًا ، وأشمل إبادة وإفناءً .

* * *

عندما نشر مقال (عصر حروب المسلمين) فى الصفحة الثانية عشرة فى ٢٢/١٢/٢٠٠١م بصحيفة الأهرام ، رد عليه فى الصفحة نفسها الدكتور حسن محمد وجيه خبير لغويات التفاوض والحوار الدولى. أى أنه خبير من أهل الصنعة، وليس متطفلاً على أهلها .

وأهمية رد الدكتور حسن محمد وجيه ، أنه بين الدافع النفسى للمنظرين الأمريكيين وراء كتابة مثل هذه المقالات ، كما بين أن المسألة لا تقف عند دوافعها النفسية، ولكن الأهم من ذلك والأكثر خطورة ما يمكن أن تفعله من رد فعل سلبى إزاء الإسلام والمسلمين لدى من وجهت إليهم . وهذا ما بينه رد الدكتور حسن وجيه قال : « إن مقال (صمويل هنتنجتون) يعد مثالاً تطبيقيًا فى كليته وطريقة إخراجه لما أسميه : استراتيجية تصنيع صور كراهية المسلمين ، وانعكاسًا لعصر تقنية العداء للإسلام وللمسلمين ؛ لأنهم يستخدمون لأغراض التشويه أشكالا وأساليب وتقنيات عالية المستوى ، يشهد لها بالحِرَفية عالية المستوى فى الإعلام الغربى بشكل عالى الكثافة ، بهدف ترسيخ صور ذهنية فى غاية السلبية من شأنها إلحاق الضرر بصورة الإسلام وحقيقته السمحة .

المقال تم إخراجه بعناية فائقة : كتب عنوانه (عصر حروب المسلمين) على اتساع صفحتين كاملتين متقابلتين ، وصور على أرضية المقال مآذن المسجد النبوى الشريف . وخمسة أسطر تتضمن عبارات إيحائية مثيرة ومهيجة مثل :

أرض المعارك .

العنف المتدفق .

فورة بركان العنف .

الصدام الكونى .

حروب يشنها المسلمون على الغرب والعالم كله .

وهى عبارات مناقضة لجلال مشهد مسجد الرسول ﷺ ، وروعته وأمانه ، وصفائه ، كأنهم يصورون العنف إسلاميًا ، انبث من مسجد رسول الإسلام ، ومن تعاليم نبى الإسلام .

ماذا فعل المسلمون للعالم ؟! إن شمس الإسلام لا تزال تشرق على العالم ، والغرب نفسه أفاد من ثقافة المسلمين وحضارتهم ومن ثرواتهم، ولكن من الأسف أن يكون المسلمون المعاصرون منتجى تمور لا يأكلونها ، بل يأكلها الغرب ثم يلفظ لهم بالنوى .

إن المسلمين هم ضحية العولمة الثقافية الغربية ، والعولمة الاقتصادية التى تحتكرها الولايات المتحدة ، وعولمة لا تعترف بالتراحم ، وتمتلك من قوة المال والاقتصاد فوق ما تملكه دول كثيرة ، فصارت ذات سيادة فوق سيادة الدول .

إن العصر ليس (عصر حروب المسلمين) كما يزعم (هنتنجتون) بل عصر الإمبراطورية الأمريكية ، إمبراطورية المبادرة بالفعل :

١ ـ بحكم تكوين العقل الأمريكى ذى النزعة النفعية الذرائعية .

٢ ـ وبحكم ما تملكه من ثروة وعلم وسلاح فتاك .

٣ ـ ولأنها دولة أنانية تريد تقنين الاستثناء الأمريكى دوليًا ، وتجعل من نفسها دولة ذات نفوذ استثنائى فى العالم ، ومن ثم تفعيل ما تريد وقتما تريد .

ولهذا يتساءل الدكتور حسن محمد وجيه : « لماذا تقوم إحصائيات العنف والإرهاب التى أوردها (هنتنجتون) و(فوكوياما) وإلصاقها بالمسلمين دون سواهم ، مع أن الإرهاب موجود فى كل أهل الديانات والحضارات ؟!

إن من أبلغ ما قيل من رد على هؤلاء الغربيين الذين يتهمون الإسلام بأنه دين الإرهاب ما ورد على لسان الملاكم الأمريكى الأشهر ، محمد على ـ الذى ذهب مثل مواطنين أمريكيين إلى موقع مركز التجارة العالمى بعد الحادث الأليم ، فسأله صحافى : ما رأيك فيما فعله مسلمون مثلك ؟ فأجاب : « هتلر كان مسيحيًا » . كذلك فإن ستالين لم يكن مسلمًا ، وميلوسيفتش صاحب أكبر مذابح للمسلمين فى البوسنة ، وغيرهم كثيرون من غير المسلمين .

والعنف فى الولايات المتحدة لم يقم به مسلمون . وإن الذى فجر مركز التجارة العالمى بنيويورك سنة ١٩٩٣م أمريكيون ، والمبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما سنة ١٩٩٥م كان (تيموثى ماكفى) ولم يكن مسلمًا .

والعنف الدينى فى الولايات المتحدة قامت به جماعات دينية غير إسلامية مثل: الميليشيات المسيحية ، وحركة الهوية المسيحية ، والنشطاء المسيحيين المناهضين للإجهاض، فقد قام به القس البروتستانتى الأمريكى (مايكل براى) .

إن ألوان الإرهاب عديدة ، ولكن الإحصاءات تؤكد أن أخطره فى فلسطين

المحتلة، وفى الولايات المتحدة ، ونتائجه المدمرة بين الشباب الأمريكى نتيجة لعولمة الإعلام ، وهو ما علقت عليه أستاذة الإعلام الأمريكية : (بربارا ويلسون) فقد صرحت بأن الإرهاب الأمريكى يصدره الإعلام الأمريكى فى علب (كرتون) وله تأثيرات سلبية واجتماعية فى زيادة السلوك العدوانى لدى الأطفال والشباب فى الولايات المتحدة ، ثم لدى الأطفال فى العالم المتعولم إعلاميًا ، المتأثر بالأفلام والمسلسلات الأمريكية ، التى تدعمها أصولية اقتصادية، تخرب العقول، وتحض على العنف والتدمير وتعلم الإرهاب، كل ذلك فى سبيل الحصول على المال ، ولو أدى إلى تغييب القيم الأخلاقية ، حتى لم يعد من الأمور الغريبة فى هوليود أن يحصل ممثل واحد على مائة مليون دولار لتمثيل دور فى فيلم واحد ، يتمحور حول : عصابات المافيا والجريمة والعنف ؛ لأن العائد على شركات إنتاج هذه الأفلام يقدر بمئات الملايين من الدولارات .

* * *

ولكن لماذا غاب الخطاب الإسلامى،والمشروع الحضارى الإسلامى أو غُيِّب ؟!

وهل عجز المسلمون والعرب عن إلقاء خطابهم ، أو عرض مشروعهم ؟

الخطاب الإسلامى العربى غيِّب . ولقد دأب المستشرقون منذ ثلاثة قرون على البحث فى ثمرات الإسلام ، وكتبوا آلاف الأبحاث فى كل فروع المعرفة التى تناولها هذا التراث وقدموها لحكوماتهم الاستعمارية ، ولو أنهم أقبلوا على تفهمها بحيدة العلم لما وقع الخلاف . ولكن لأنهم قرؤوها بعقل الاستعمار العدوانى غيبوا الحقيقة ، واتخذوا موقفًا عدوانيًا من الإسلام والمسلمين ، وكان هذا التغييب المتعمد أول مراحل تصعيب الحوار بين الحضارات ـ بل إن هذا التغييب أدى إلى انعدام المناخ الصحى الذى يتم فيه الحوار الصحيح، وبالتالى افتقد الحوار أهم شروطه ، وهو القبول المتبادل بين المتحاورين ، واعتراف كل طرف بقيمة ثقافة الآخر ، وبقيمها المادية والأخلاقية والمعرفية ، وما يمكنه أن يفيد منها ، من المؤسف أن منظريهم زيفوا كتابات عن الإسلام وكان آخرهم (فوكوياما) و(هنتنجتون) ، وباتت المسألة كامنة فى قيم الإسلام التى يحرص عليها المسلمون ، والتى يريد منظرو الثقافة الغربية تغييبها ، وهو « أمر لابد أن يكون محل اعتبار فى

تحديد صيغة المجتمع ، وأسسه المعنوية التى يقوم عليها ، فالإسلام خيار فى مواجهة العولمة فى جانبها الثقافى ، وجانب البناء الحضارى » [1] .

وهذا ما لم يفهمه (فوكوياما) أو فهمه وسكت عنه، وهو الشىء نفسه الذى يتجاوز ذرائع (هنتنجتون) فيما عرّفه بالدموية الإسلامية والإرهاب الإسلامى .

إن كلا من (فوكوياما) و(هنتنجتون) يرى أن الخطورة التى يواجهها الغرب ليست فى رفض المسلمين للعلمانية، والديمقراطية الرأسمالية والحداثة فحسب ، بل أكثر من ذلك فقد رأيا أن الخطورة الأشد خطرًا تكمن فيما أطلقوا عليه: « الفاشية الأصولية الإسلامية » .

إنهما يضعان الدولة العلمانية ، والحداثة ، والتسامح الدينى ـ كل ذلك بمفهوم الغرب ـ فى مواجهة الإسلام ، ويزعمان أن المسلمين يرفضون الحضارة الغربية ؛ لأنهم يريدون التفرقة بين دار الكفر ودار الإسلام ، وهذا كذب ومين يتبعهم فيه كثير من المفكرين الأمريكيين المؤثرين فى تفعيل السياسة الأمريكية الخارجية .

إن منظرى الغرب ، وفى طليعتهم غلاة علماء الاستشراق يعزون تخلف المسلمين إلى التمسك بالدين ، ويرون أن الفصل بين الدين والثقافة والفكر والعلم ضرورى من أجل التقدم، وصدقهم بعض مفكرى المسلمين فى أقطار العالم العربى الذين يرون الدين حائلاً دون الوصول إلى التقدم ، وينظرون إلى الدين ـ كما ينظر إليه الغربيون ـ على أنه كينونة ماضية ، وأن التمسك به تمسك بماض مظلم ، ورفض للحاضر والمستقبل .

إن أولئك وهؤلاء جميعًا لا يجهلون أن الحضارة الإسلامية ـ التى التمست عزتها من الإسلام ـ أخذت من الهند والفرس واليونان والصين وغيرهم من أصحاب الحضارات القديمة ، وأثبتت قدرة فريدة على التكيف مع ما ينفعها ، وتركت ما لا ينفعها وأبقت عليه احترامًا لأهله،وعلى سبيل المثال فعندما دخل المسلمون مصر لم ينظروا إلى آثار قدماء المصريين على أنها معبودات وثنية كتلك التى كانت فى الكعبة يوم فتح مكة فتركوها ، وأطلقوا عليها أسماء لم تكن تعرف

---

(١) طارق البشـ

بها قبل الفتح الإسلامى مثل : أبى الهول والأهرامات ومدينة الأقصر وغيرها . فدل ذلك على قمة التسامح الدينى ، واحترام مأثورات الشعوب .

والآن يتهم منظرو الغرب المسلمين بالتعصب ، وعدم القدرة على استيعاب الحداثة، ويكاد يكون ذلك هو التفكير الشائع ، كما لاحظ إدوارد سعيد العربى الذى يشارك فى مهام التثقيف فى أشهر جامعات الولايات المتحدة ، إن إدوارد سعيد من أهم الشهود على حيف نظرة الغرب إلى المسلمين ، خاصة الذين يبالغون فى تشويه صورة الإسلام والمسلمين فى كتاباتهم مثل المستشرق لويس برنارد ، الذى يرى أن المسلمين يعانون من حالات نفور من التحديث ، ويعزو ذلك إلى أنهم يرفضون التفريق بين الدولة والدين، مع تشويه الحقيقة ، وإقامة تناظرات زائفة تعبر عن كره غريزى للإسلام ، ويؤكد إدوارد سعيد على أن طريقة التفكير لدى هذا المستشرق وأمثاله ونظرتهم إلى الإسلام تنبثق من رؤية سياسية أكثر منها رؤية فكرية منزهة عن الأغراض .

كان الاهتمام الأوربى بالإسلام ، منذ البداية ، مستمداً من الفزع من منافس قوى يمثل خطراً على المسيحية الأوربية ، ولقد تواصل هذا الإحساس بالفزع حتى صار الإسلام فى مخيلة الغرب نقيض الحضارة الغربية ، على الصعيد التخييلى والجغرافى والتاريخى والثقافى ، بتنميطات تصف المسلمين بالقدرية والبلادة والقسوة ، والانحطاط ، وسيظل المحترفون المختصون بدراسة الإسلام فى أوربا والولايات المتحدة ينظرون إلى الإسلام دينا وثقافة دون أن يحبوهما أو يعجبوا بهما. ثم تدعمت هذه النظرة لدى الباحثين والصحافيين والإعلاميين فى الولايات المتحدة بتنميطات تحقيرية تكدس فى سلة واحدة : الإسلام والإرهاب والتعصب والعنف .

ولقد انتهزوا فرصة انتهاء الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتى ، فسارع (هنتنجتون) إلى إعادة طرح فرضية الحرب الباردة، ولكن ليس مع الاتحاد السوفيتى إذ جعل لها بديلاً أطلق عليه (صدام الحضارات) وبها صار الإسلام نقيض الديمقراطية الرأسمالية فى الحرب الباردة الجديدة ، وتابعه فى ذلك الرأى تلميذه (فوكوياما) . ولقد صنعت أفكارهما نوعًا من التوتر العنصرى فى الرأى العام الغربى ، فقد تأثر بهما (بول جونسون) فنشر فى عدد ١٨ أبريل سنة ١٩٩٣م من

مجلة (نيويورك تايمز) مقالاً تحت عنوان : الاستعمار عائد ، رأى فيه أن على الأمم المتحضرة أن تضع نصب أعينها مهمة إعادة استعمار العالم الإسلامى ؛ لأنه لا يملك الشروط الأساسية الأدنى للحياة المتحضرة ، ولقد وجد مقاله ـ كما أكد إدوارد سعيد ـ أصداء عديدة لدى صانعى السياسة فى الولايات المتحدة وفى وسائل الإعلام ، وبالطبع فى وزارة الخارجية الأمريكية (١) .

إن هذه الأفكار صارت أساسية فى الدوائر الغربية السياسية الشعبية والرسمية، فقد طالب (أوتو شيللر) وزير الداخلية فى ألمانيا المسلمين هناك ـ فى اجتماع حزبى ـ أن يقبلوا وصف الدين الإسلامى بأنه هرطقة ، وأنه يرفض التسامح ، وحرية البحث العلمى (٢) .

وصرح وزير العدل الأمريكى (جون أشكروفت) فى النيويورك ديلى نيوز فى ٢٠٠٢/٢/١م ، فقال : الإسلام دين يطلب الله فيه من المسلم إرسال ابنه لنيل الشهادة من أجله (من أجل الله) ، ونشرت (مرجريت تتشر) رئيس وزراء إنجلترا السابق فى الجارديان فى ٢٠٠٢/٢/١٢م تحذر الغرب من الإرهاب الإسلامى،ووصفت الناشطين المسلمين بأنهم مثال البلشفية الجديدة؛لأنها ما برحت تلح على أن الإسلام وريث الشيوعية فى الحرب الباردة ، وفى تهديد الغرب .

ولمساندة بوش فى حملته ضد المسلمين فإن ستين كاتبًا من أكبر المفكرين وأشهرهم فى الولايات المتحدة من كل التيارات السياسية ، أصدروا بيانًا أعلنوا فيه أن الحرب التى تخوضها الولايات المتحدة ضد المسلمين « تمثل ضرورة أخلاقية عادلة » .

إن الذى تريده حكومة الولايات المتحدة بحسب قول الأستاذ فهمى هويدى يتلخص فى ثلاثة أشياء :

١ ـ التأييد المطلق للحملة التى تقودها الولايات المتحدة ضد الإسلام .

٢ ـ تركيع العالم الإسلامى والعربى .

---

(١) إدوارد سعيد تعقيب على ما كتب عن كتابه (الاستشراق) مجلة القاهرة ، العدد ١٥٠ مايو ١٩٩٥م .

(٢) وهذا مما دعا الرئيس مبارك فى أثناء رحلته بالولايات المتحدة (فى مارس ٢٠٠٢م) أن يدعو إلى إيجاد تفاهم أفضل بين الثقافات والحضارات والأديان ، الأهرام فى ٢٠٠٢/٣/٥م ، الصفحة الأولى .

٣ ـ إعادة تشكيل العقل الإسلامى .

وتعلن الولايات المتحدة إعلانًا صريحًا مضمونه : من ليس معنا فهو علينا ، وأى انتقاد يوجه للحملات التى تقودها الولايات المتحدة من المحرمات ، ثم هم بعد ذلك يتدخلون فى شؤون المسلمين والعرب ، ويركزون على التعليم بصفة عامة ، والتعليم الدينى بصفة خاصة ، وقد بدؤوا فى باكستان واليمن ، كما أن الخارجية الأمريكية قدمت مذكرة لإحدى الدول الإسلامية الكبرى تحدد فيها مواد الثقافة الإسلامية ، وساعات تدريسها .

وفى تهديد وغطرسة وجه الكاتب الأمريكى فريدمان، إلى وزير الشؤون الإسلامية بإحدى الدول العربية الكبرى تحذيرًا نشرته (النيويورك تايمز) فى ١٢/١/٢٠٠٢م ؛ لأنها بزعمه تعلم طلابها أن المسلم أفضل على الله من غير المسلم ، مما يدعو إلى عدم التسامح الدينى ، ويطالبهم بتغيير مناهجهم الدينية ، وإن لم يفعلوا فستوجه إليهم الولايات المتحدة تهمة تصدير الأموال لأولئك الذين تشن عليهم الحرب ، وتنظر إليهم كما كانت تنظر إلى الاتحاد السوفيتى أيام الحرب الباردة (١) .

إن الولايات المتحدة تريدها أمريكية فى العالم كله ، ولهذا رأى الدكتور أنور عبد الملك أن ذرائع العولمة كما تريدها الولايات المتحدة هى : العلمنة والحداثة بالمثال الأمريكى فى مجالات العدالة المتساوية للجميع ، وتحديد سلطة الدولة ، واحترام المرأة والملكية الخاصة ، وحرية الرأى والاعتقاد ، والتسامح الدينى (٢) ، وكلها مبادئ جعلها الإسلام مبادئ أصلية فى شريعته، ولكن منظرى الغرب ينفون ذلك عمدًا عن الإسلام ، ويعطون لها تفسيرات معاكسة لكى توافق مخططاتهم الشريرة .

إن من آخر ما كتب (فوكوياما) مقالاً فى (النيوزويك عدد ديسمبر ٢٠٠١م) بعنوان (هدفهم العالم المعاصر) يعبئ فيه الرأى العام الأمريكى بطرح السؤال التالى: هل المؤسسات والقيم الغربية فى الديمقراطية والحريات الشخصية ، وسلطة

---

(١) ارجع إلى مقال فهمى هويدى ، الأهرام فى ١٩/٢/٢٠٠٢م .
(٢) الأهرام فى ١٩/٢/٢٠٠٢م .

القانون والعمل المؤدى إلى حرية الاقتصاد ، تمثل تطلعات عالمية أم أن ذلك التصور وهم غربى ؟ وفى المقال نفسه يجيب (فوكوياما) مدعيا انغلاق عقل كل من لا يؤمن بهذه القيم الغربية . إن فوكوياما بالإجابة بنفسه عن تساؤله يمهد لإقرار الهدف الذى يريد أن يصل إليه من مقاله ، فيقرر أن المسلمين وحدهم هم الذين يرفضون اعتناق القيم الغربية ، ومن ثم يجب أن يوجه إليهم الاتهام فى عبارة موجزة غير قابلة لأى تأويل فيقول : « إن المزاج الثقافى العربى الإسلامى يسيطر عليه الانغلاق والفاشية» ، وهى تكاد تماثل عبارة (هنتنجتون) فى نهاية مقال (عصر حروب المسلمين) [فى ذات التوقيت ديسمبر ٢٠٠١م] : « إن عناصر صدام الحضارات متوافرة،وإن ردود الفعل تجاه أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وكذلك رد الفعل الأمريكى تمت فى حدود الخطوط والأطر الحضارية بشكل صارم » .

إذن بسبب هذه النظرة ذات العداء المسبق للإسلام ، فإن حتمية التبرير الأمريكى تسبق قراراته ؛ لأنهم بما كرسوه لأنفسهم فى ثقافتهم من اعتبار الإسلام خصمًا شريراً لحضارة الغرب ، تجب مجابهته .

الأمر لا يتلخص فى كونه صدام حضارات ـ كما يزعم (هنتنجتون) ولا حوار حضارات كما يتمناه أغلب المسلمين، إنما هى الحضارة الأمريكية، أو التنين الذى يريد أن ينفرد وحده بكل شىء ، ولهذا فهم يطلقون الاتهامات مثل قولهم : الإسلام أصولى، وفاشستى وإرهابى، ثم لا ينتظرون أن يدافع أصحاب هذا الدين عن دينهم أو عن أنفسهم، الشىء نفسه هو الذى سمح (لبوش الابن) أن يعلن فى مساء الثلاثاء الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م الحرب الصليبية على المسلمين الأشرار ليعرف العالم من هم الخيرون، ومن هم الأشرار ، ثم هيأ لنفسه بعد ذلك أن يرى فى إيران والعراق (الإسلام) وكوريا الشمالية (الحضارة الكونفوشية) محور الشر .

إن الولايات المتحدة ـ من أجل رغبة الهيمنة على العالم ـ لن تنتهى عن غيها، والمتهم الغائب موجود فى مخيلة منظريها ، ويمكن استحضاره فى أى وقت لتبرير سحق من لا تعتبره صديقًا ، فتلصق به تهمة الإرهاب ، ثم توجه إليه الضربة القاضية ، وللولايات المتحدة طرق وذرائع لإلصاق التهم ، وجعل المتهم مجرمًا يستحق العقاب الرادع .

إنه إرهاب الدولة العظمى ، وهيمنة القطب الواحد ، مع أن كل هذه الدول المتهمة فى عيون الولايات المتحدة ـ كما يقول الدكتور أنور عبد الملك ـ « لا تمثل تهديدًا حقيقيًا للجبروت الأمريكى » .

يضاف إلى سطوة العولمة الثقافية سطوة الاقتصاد الرأسمالى ، أو العولمة الاقتصادية فهى أشد قسوة وتسلطًا من العولمة الثقافية ، لأن القطب الأمريكى الأعظم يمسك بزمامها ، يقودها ويحركها فى إطار تحقيق مصالحة الاقتصادية بالدرجة الأولى ، ولا يلتفت إلى نداءات الدول الآخذة فى النمو فى مرحلة التحول إلى العولمة .

إن الدراسات المعنية بهذه الدول ، تطلب مدها بمدخلات مفيدة ، وإرشادات مجدية فى اختبارات السياسات المعنية لبناء طاقة منتج الخدمات الذى يعزز الطاقة المحلية لهذه الدول بزيادة مساهمة الخدمة الأجنبية فى الاقتصاد المحلى من خلال الاستثمار والتجارة عبر الحدود [1] .

ولكن حلم فقراء العالم يخالف الواقع ، لأن تأثير العولمة الاقتصادية فى كبار المستثمرين تجعلهم يتصرفون وكأن السوق العالمى سوقهم ، دون ما اعتبار للاقتصاديات القومية للدول الفقيرة .

إن المذهب الرأسمالى العولمى يجرى تطبيقه بطريقة انتقائية فى دول العالم الثالث، وفى مقدمتها الدول الإسلامية، بالأسلوب الذى يحقق المكاسب للقوة القائدة فى النظام المعولم ، كما حدث فى أفغانستان ؛ إذ لم تكن القضية التى طرحت أمام العالم قضية مقاومة قواعد الإرهاب التى يقودها الملا محمد عمر وأسامة بن لادن بقدر ما كانت ذريعة للاستيلاء على أفغانستان ، وإنشاء القواعد العسكرية الأمريكية بها من أجل السيطرة على قلب آسيا ، وثروات بحر قزوين بصفة خاصة ، دون الالتفات إلى ما يترتب على ذلك من خلل فى أبنية الدول الضعيفة ، أو عدم استقرارها الاجتماعى ، وتحطيم هياكلها الاقتصادية ، مع إرغامها على مسايرة النظام الرأسمالى الحر على الطريقة الأمريكية .

---

(١) انظر : كتاب ـ العولمة والتحرير ـ التنمية فى مواجهة أقوى حدثين : الأمم المتحدة ـ الأنكتاد (١٩٩٦) بدون ذكر مؤلف ـ ترجمة : ياسر محمد جاد الله ، وعربى مدبولى أحمد ، مراجعة : مصطفى عز العرب ، المشروع القومى للترجمة ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة سنة ٢٠٠٠م .

لو أن الولايات المتحدة راعت فى علاقاتها مع هذه الدول خيار المواكبة لكان أفضل للطرفين ؛ لأن الولايات المتحدة تملك أعلى وسائل التقنية، والوفرة المالية، ويملك الطرف الثانى الأضعف مصادر الخامات ، وأسواق التوزيع ، ولو أنها راعت مصلحة الآخر لاستفادت منه اقتصاديًا وأفادته بجانب كسب السلام العالمى للجميع . ولكن مما يؤسف له فإن رأسمالية العولمة لا تقبل إلا أن يكون لها مع مثل هذه الدول وضع استثنائى ، يقوم على المواجهة ، وتدعمه فرضيات الهيمنة ، مع تهميش دور هذه الدول فى النظام العالمى بأسره ، بل إنها فى كثير من الأحيان والأحوال تعمل بطرق مرئية ، وغير مرئية على إحداث الخلل الاقتصادى لهذه الدول لتظل تابعة لدول الاقتصاد الأقوى ، ومحتاجة إليه .

من أجل هذا قامت حركة مناهضة فى الغرب ذاته لتعبر عن موجات السخط الرافضة لمنطق الأصولية الاقتصادية ، والسوق الحرة ، والرأسمالية الليبرالية الجديدة ، ورفض شعوب بأكملها لطغيانها ، فإن هذه القوى المضادة لعولمة السوق الرأسمالى ، لم تصمد أمام الرأسمالية المتوحشة،التى تهتم بشريحة صغيرة من البشر ، وتلتهم ـ كالتنين ـ ملايين الجياع والمرضى الذين لا يزيدون عن كونهم وقود شهوة الرأسمالية .

وعلى كل فإن وجود معارضى العولمة المتوحشة من فقراء العالم ، يطرح قضايا لا يعيرها مالكو الشركات متعدية الجنسيات أدنى اهتمام ، ويأتى فى مقدمتها حدوث خطر الإرهاب ، الناتج عن غياب العدالة الاجتماعية بين الشعوب ، فالإرهاب ينمو حيث يكون الفقر واليأس .

لقد طرح فى آخر مؤتمرات دافوس سنة ٢٠٠١م إحصائيات كأنها تحذير ونذير للقائمين على الاقتصاد المعولم ، ودلت هذه الإحصائيات على أن الاقتصاد العولمى غير عادل ، يستبين منه :

١ ـ ٢٠٪ من أغنى أغنياء العالم يسيطرون على ٨٢٪ من الدخل الإجمالى العالمى. وليلاحظ أنهم كانوا يملكون ٨٠٪ فقط فى العام الماضى ، أى أن دخلهم فى ازدياد .

٢ ـ أن عدد الذين لا يشبعون فى العالم وصل ٨٠٠ مليون نسمة ، وأن

٥٠٠ مليون من سكان العالم يعانون من سوء التغذية .

٣ ـ أن هذه الأرقام ليست قاصرة على العالم الثالث ـ الأكثر تضرراً من العولمة، فإن هناك أكثر من ١٠٠ مليون نسمة يعيشون تحت خط الفقر فى الدول الصناعية الكبرى ، منهم فى الولايات المتحدة الأمريكية قائدة الاقتصاد العولمى ، ٤٧ مليون بدون تأمينات . وفى لندن عاصمة إنجلترا حوالى ٤٠٠ ألف إنسان بدون مأوى . وفى روسيا ٦٠ مليون يعيشون تحت خط الفقر .

لقد تلقت السيدة / مارى روبنسون مفوضة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان هذه الأرقام ، فدعت إلى ضرورة إعطاء المواطن العادى دوراً أكبر فى إطار العولمة ، وأعلنت فى مؤتمر دافوس الأخير ٢٠٠١م بنيويورك بأنه ينبغى التحرك صوب عولمة ذات طابع أخلاقى .

وفى المؤتمر نفسه ، وجهت بعض الدول الكبرى ـ عن طريق مندوبها ـ انتقاداً للولايات المتحدة ؛ لأنها اعتادت أن تأخذ القرارات بمفردها ثم تطالب الآخرين باتباعها، أو البقاء بعيداً فى الظل ، وأنها لم تضع حداً للعنف المتصاعد فى العالم، خاصة العالم العربى ؛ لأنها تنحاز لإسرائيل على حساب العرب .

إن الولايات المتحدة لا تنظر إلى هموم الملايين الذين تذبحهم رأسماليتها المتوحشة ، فكل الذى يهمها أن تضاعف من أرباحها ، ولقد ترتب على ذلك إجهاض الشرعية الدولية ، فالولايات المتحدة لا تدع الأمم المتحدة تأخذ القرارات بحيدة ، بل تعلن القرارات المأخوذة سلفا من البيت الأبيض .

إن العالم يناشد الولايات المتحدة مساعدة فقراء شعوب العالم فى بناء اقتصادياتهم، والسير باتجاه عولمة جديدة رحيمة تخدم المجتمعات الفقيرة ، لكى يكون الإنسان فيها محترمًا (١) .

* * *

كلمة أخيرة : من الممكن أن يقوم تعاون اقتصادى بين الدول العربية والإسلامية ، وإن مقومات هذا التعاون موجودة ؛ لأن العالم الإسلامى زاخر

---

(١) انظر : د. سعيد اللاوندى تحليل كتاب : عولمة الرفض ، الأهرام فى ٢٠٠٢/٢/١٩ .

بالخيرات والثروات فى باطن الأرض وعلى سطحها ، بالإضافة إلى أنهم يعيشون فى مركز العالم جغرافيًا ، وقد تنقصهم وسائل التقنية العالية ، وهى ميسورة ـ إن شاء الله ـ إذا تعاونوا على الخير والبر ، فالعالم الإسلامى زاخر بعلمائه فى كل مجالات العلم ، ولذلك فإن هذا العنصر إذا صدقت النية والعزم يمكن استحضاره واستيعابه ، من أجل التعاون الإيجابى فيما بينهم وعند ذلك سيكونون قوة يعمل لها ألف حساب سواء فى حالة مواكبة العولمة أو مواجهتها . والله المستعان .

تم كتابة فصل الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر والخاتمة فى :

ميت سويد :

الثلاثاء ٢١ من ذى الحجة سنة ١٤٢٢هـ

٥ / ٣ / ٢٠٠٢م

المصادر والمراجع

أولا : المراجع العربية :

١ ـ **ابن منظور** : لسان العرب ـ دار المعارف بمصر . د . ت .

٢ ـ **أرنولد توينبي**: تاريخ البشرية ـ الجزء الثانى ترجمة: نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٨م .

٣ ـ **أشرف البنان** : الجات ومستقبل العمالة فى مصر ـ كتاب الأهرام الاقتصادى ، العدد ١٣٦ ، مايو ١٩٩٩م.

٤ ـ **ألفين توفللر** : تحول السلطة ـ ترجمة : لبنى الريدى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م .

٥ ـ **إيان كريب** : النظرية الاجتماعية ـ عالم المعرفة رقم (٢٤٤) ، الكويت ، أبريل ١٩٩٩م.

٦ ـ **إيمانويل كانط** : مشروع للسلام الدائم ـ ترجمة وتقديم : د. عثمان أمين ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م .

٧ ـ **بدران بن مسعود الحمد** : الظاهرة القومية فى الوعى الحضارى نموذج مالك بن نبى، كتاب الأمة ـ العدد (٧٣) قطر ـ رمضان ١٤٢٠هـ .

٨ ـ **برهان غليون** : ثقافة العولمة ـ دار الفكر بيروت ١٩٩٩م.

٩ ـ **بطرس غالى** : التنظيم الدولى ـ الجزء الأول ـ الأنجلو المصرية ١٩٥٦م.

١٠ ـ **بنيامين سبوك** : فن الحياة مع المراهق ـ ترجمة : منير عامر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١م.

١١ ـ **بول هرست ، جراهام تومسون** : ما العولمة ؟ الاقتصاد وإمكانات التحكم ـ عالم المعرفة رقم (٢٧٣) ـ الكويت ٢٠٠١م.

١٢ ـ **بيتر مارتين ، شومان** : فخ العولمة ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ أكتوبر ١٩٩٨م .

١٣ ـ التهانوى : كشاف مصطلحات الفنون ـ طبعة الهند ١٨٩١م .

١٤ ـ د. جلال أحمد أمين : العولمة ـ كتاب اقرأ ـ رقم (٦٣٦) .

١٥ ـ د. حازم الببلاوى: على أبواب عصر جديد ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧م.

١٦ ـ د. رمزى زكى : الاقتصاد السياسى للبطالة ـ تحليل لأخطر مشكلات الرأسمالية ـ عالم المعرفة (٢٢٦) أكتوبر ١٩٩٧م .

١٧ ـ رونالد روبرتسون : تخطيط الوضع الكونى ـ دار سياح ١٩٩٢م .

العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافية ـ ترجمة : أحمد محمود ونورا أمين ، مراجعة : محمد حافظ دياب ـ المشروع القومى للترجمة ـ المجلس الأعلى للثقافة.

١٨ ـ زكى نجيب محمود : قيم من التراث ـ دار الشروق ١٩٩٩م .

١٩ ـ د. سمير أمين : مبحث مناخ العصر رؤية نقدية ضمن كتاب : العولمة والتحولات المجتمعية فى الوطن العربى ـ مركز البحوث ـ الجمعية العربية لعلم الاجتماع ١٩٩٩م.

٢٠ ـ صمويل هنتنجتون : صدام الحضارات ـ ترجمة : طلعت الخشاب ـ الطبعة الثانية ، دار سطور ، ١٩٩٩م.

٢١ ـ د. طلعت عيسى : سان سيمون ـ دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٨٧م.

٢٢ ـ د. الطيب زين الدين : من مباحث العولمة والتحولات المجتمعية فى الوطن العربى ـ مركز البحوث ـ الجمعية العربية لعلم الاجتماع ١٩٩٩م .

٢٣ ـ د. على حبيش: العولمة والبحث العلمى، ملحق الأهرام الاقتصادى ١٩٩٧م.

٢٤ ـ فرانسيس فوكوياما : نهاية التاريخ وخاتم البشر ـ ترجمة: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة ١٩٩٣م .

٢٥ ـ مارسيل سيرل : أزمة الخليج والنظام العالمى الجديد ـ ترجمة : د. حسن نافعة ـ دار سعاد الصباح ـ الطبعة الأولى ١٩٩٢م .

٢٦ ـ مالك بن نبى : شروط النهضة ـ ترجمة : د. عبد الصبور شاهين ـ دار الفكر بدمشق ١٩٩٦م .

٢٧ ـ د . محمد حسن الإبيارى : المنظمات الدولية الحديثة وفكرة الحكومة العالمية ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م .

٢٨ ـ د. محمد رؤوف حامد:الوطنية فى مواجهة العولمة ـ كتاب اقرأ رقم (٦٤٧).

٢٩ ـ د. محمد عمارة : الإسلام والعروبة ـ الهيئة المصرية العامة ١٩٩٦م .

٣٠ ـ د. مصطفى عبد الغنى : الجات والتبعية الثقافية ـ مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م .

٣١ ـ د. مصطفى الفقى : تجديد التفكير القومى ـ الهيئة المصرية العامة ١٩٩٩م .

٣٢ ـ هربرت شيللر : المتلاعبون بالعقول ـ عالم المعرفة ، الكويت رقم (٢٤٣) .

٣٣ ـ هناء عبيد : العولمة ـ سلسلة موسوعة الشباب رقم (١٣) الأهرام ٢٠٠١م .

٣٤ ـ كتاب الغولمة والتحرير : التنمية فى مواجهة أقوى حدثين : الأمم المتحدة ـ الأنكتاد ١٩٩٦م (بدون ذكر المؤلف) ترجمة : ياسر محمد جاد الله ـ عربى مدبولى أحمد . مراجعة : مصطفى عز العرب ـ المشروع القومى للترجمة ـ المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠م .

ثانيًا : الصحف :

١ ـ الأخبار .

٢ ـ الأسبوع .

٣ ـ الأهرام .

٤ ـ الشعب .

٥ ـ صوت الأمة .

ثالثًا: المجلات والدوريات :

١ ـ الثقافة العالمية العدد رقم (١٠٢) ، الكويت ، سبتمبر ٢٠٠٠م ، والعدد رقم (١٠٥) مارس ٢٠٠١م .

٢ ـ المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، العدد (١٦٣) ، مارس ٢٠٠٠م.

٣ ـ السياسة الدولية ـ مصر ، العدد (١٣٣) يوليو ١٩٩٨، والعدد (١٣٤) أكتوبر ١٩٩٨م.

٤ ـ الشاهد ـ عدد فبراير ٢٠٠٢م .

٥ ـ عالم الفكر ـ الكويت ، أعداد أكتوبر ١٩٩٦م ، وأكتوبر ١٩٩٨م ، وأكتوبر ١٩٩٩م.

٦ ـ الفكر المعاصر ـ مصر ،العدد (٢٠) لسنة ١٩٦٦م،والعدد (٥٨) لسنة ١٩٦٩م.

٧ ـ المنهج ـ سوريا ـ شتاء ١٩٩٩م .

٨ ـ المعرفة السعودية ، الأعداد (٤٦، ٥٦، ٥٨) .

٩ ـ الهلال ـ مصر ـ عدد أغسطس ١٩٩٨م .

رابعًا : مؤتمرات :

ـ مباحث مؤتمر : العولمة ونظام التعليم فى الوطن العربى ـ كلية التربية جامعة المنصورة ، من ١٢ إلى ١٣ ديسمبر ١٩٩٨م .

خامسًا : إذاعة :

ـ صوت أمريكا فى ٦ مارس ١٩٩٣م .

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

العولمة بين المتفائلين والمتشائمين

الفصل الرابع

العولمة والعرب والإسلام

الفصل الخامس

الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر

رقم الإيداع :٧٨٨٦/ ٢٠٠٢م
I.S.B.N:977-15-0405-3

هذا الكتاب

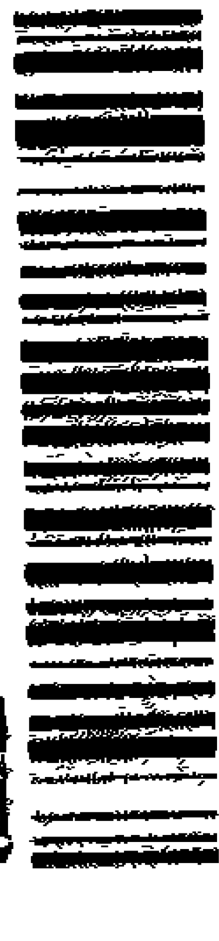
* إن مصطلح العولمة مصطلح وافد من الغرب ، ويعنى وحدة كونية تشمل كل النشاطات الإنسانية لكل الأمم على أساس أنها كون واحد ، يتعامل وفق منظومة واحدة فى مجالات : الاقتصاد والسياسة ، والفكر والثقافة ، والعلم والاختراع ، والنتاج الصناعى ، وحقوق الإنسان ، ووسائل الاتصالات والتقنية والإعلام ، بقصد تعميم أنماطها بحيث لا تخص بلدًا دون الآخر ، دون ما اعتبار لماضى هذه الشعوب الدينى أو العرقى أو الثقافى !

* ولم تنشأ العولمة فجأة ، وإنما هى نتاج تراكمات ثقافية واقتصادية واجتماعية فى المجتمع الغربى ، وشيئًا فشيئًا صارت واقعًا مؤثرًا فى سياسات العالم فى الربع الأخير من القرن العشرين ، وبصفة خاصة بعد بروز الدور الأمريكى كقوة متفردة غالبة !!

* وقد بدت العولمة وكأنها حتمية فى صيرورة حركة التاريخ ، وأصبحت دافعًا قويًا فى تحريك العالم ، وتعبيرًا عن قوة الهيمنة التى تملكها بعض الدول ، لفرض هيمنة لم تشهدها الإنسانية من قبل ، ولصالح قوة عظمى مثل الولايات المتحدة.

* والكتاب يعرض لهذه الظاهرة « العولمة » مبينًا خطورتها على العرب والمسلمين ، وذلك من خلال النطاق الرئيسية التالية :

- مفهوم العولمة وانعكاساتها وثقافتها .
- العالم الإسلامى ونهاية التاريخ فى عقل « فوكوياما » .
- أمريكا والدول المحورية .
- إلى أين تذهب العولمة بالفقراء ؟!
- العولمة بين المتفائلين والمتشائمين .
- العولمة والعرب والإسلام .
- ميليشيات الكراهية الأمريكية .
- مصر وأحداث الحادى عشر من سبتمبر .



* ودار الوفاء إذ تقدم هذا الكتاب لقرائها ، إنما تسأل الله أن له من وراء القصد .



الناشر

2
7

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع - المنصورة
الإدارة : ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠/ ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس : ٢٢٦٠٩٧٤/ ٥٠
المكتبة : أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٥٠
E-Mail:DAR ELWAFA @ HOTMAIL . COM

